قطرة قطرة:

أشبه بشرح الماء من شَرْبة ماء!

إميل حبيبي

هذا العدد الذي بين أيديكم الآن من مجلتنا الأدبية الفلسطينية "مشارف"، هو العدد الشهري السادس منذ صدورها في شهر آب من السنة المنصرمة. وهو، في الوقت نفسه، العدد الأول من عامها الثاني ـ 1996.

أما وهذه هي حال مجلتنا، من حيث الرتابة والأناقة والمضمون المتميّز، فتستطيعون الركون إلى أنها ستمكث في الأرض بل أصدرناها توكيداً لعزمنا على أن تمكث في الأرض ـ أرض هذه البلاد التي لا وطن لنا سواها.

ومنذ أن خططنا لإصدار هذه المجلة الأدبية الفلسطينية، وكان جرى هذا التخطيط في مدينة غزة المحرّرة حين التقينا أوائل العائدين من ديار الغربة إلى أرض الوطن على غير موعد، أدركنا أننا مُقدمون على اجتراح طريق في سرداب نُضطّر فيه إلى أن نَحْطُبَ في صخر حتى نرى ضوء الشمس من بعده ـ أشبه بسرداب يحفره سجناء عسى أن يؤدي بهم إلى الحرية. وفي روايتي الأخيرة، "خرافية سرايا بنت الغول"، شبّهت الكتابة الأدبية نفسها بهذا السرداب:

"فيكون حالي أشبه بحال جماعة من الأسرى لا أمل لهم في الحياة ما داموا في الأسر قابعين. حفروا نفقاً تحت الأرض وخططوا أن تأتي نهايته خارج أسوار المعتقل، فاصطدمت معاولهم بصخر عظيم لا قبل لها على اختراقه. ومنهم من حفر نفقاً وبلغ إلى نهايته وخرج إلى الفضاء فإذا هذا الفضاء موجود داخل أرض المعتقل وأسلاكه الشائكة وأبراجه المشحونة بالرشاشات

وبعساكر الرشاشات. فهل يَكُفُّون عن هذه المحاولة، المرّة تلو المرّة، وييأسون في حين لا منجاة لهم من الموت سوى هذا النفق"؟!

أما نحن في مجلة "مشارف"، فلم نكفّ ولن نكفّ عن هذه المحاولة مثلما ترونها شهراً شهراً وعاماً عاماً.

نحن أدرى بحال الدنيا في زمانكم، يا جيل القرن الحادي والعشرين، زمان العودة إلى البيت منهوكي القوى ويائسين من تحقيق العدالة على هذه الأرض. فلا يجد الواحد منكم، ومنّا، من ملاذ سوى الارتخاء أمام تلفزيون الكوابل خيراً ـ بالطبع ـ من تعاطي المخدرات، ونُدعى أحياناً إلى إلقاء محاضرة في ناد أو في ندوة، ويدفعون لنا إكراميات مالية أحياناً، وكثيراً ما أدهشني عدد الحُاضرين المستمعين إلى هذه المحاضرات وقد غلب اهتمامهم بالموضوع، على شقائهم اليومي، فكنتُ أقترح على مُضيفيَّ جاداً لا هازلاً، أن يدفعوا للحاضرين إكراميات الحضور قبل أن يدفعوا لي ولأمثالي إكرامية عن إلقاء المحاضرة. هذه هي حال الدنيا في نهاية القرن العشرين، ولدى شعوب الأرض كلها كما قيل لنا، فكيف سيكون حالها في القرن القادم؟!

أما وهذه هي حال الدنيا، في نهاية هذا القرن، فلا يحقّ لنا أن نُرخي أيدينا عن معاولنا التي نحطّب بها الصخر حتى لا يأتي القرن القادم إلا وقد أخرجناكم من هذا النفق إلى نور الشمس "وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون". صدق الله العظيم.

وكنّا أردنا لمجلة "مشارف" أن تكون منبراً عالياً ورحباً ينطلق الأدباء الفلسطينيون، عبره، إلى رحاب شعبهم ويُطلّون، من فوقه، على العالم العربي المحيط بهم يتواصلون ويتعارفون وقد أسفروا عن وجوههم الإنسانية العريقة. فإذا بنا، منذ العدد الأول من "مشارف"، نطلق مياه سد عذبة من العطاء كانت حبيسة في باطن أرضنا الطيّبة والعذبة، ولا تنقطع هذه المياه عن التدفّق حتى كأنها تخرج من ينابيع طال انحباسها.

وحققنا، منذ العدد الأول، ما خططنا له من تواصل بين المقيمين وبين العائدين، وبيننا وبين أشقائنا، وحققنا التواصل بين الأوائل والأواخر ونبشنا ذاكرة الأوائل ـ جيلي الفلسطيني ـ عن ملاعب الصبا فوق أرض الوطن: فلسطين التي أحببناها حتى الحياة فوق ثراها مهما يَقْسُ عليها وعلينا الزمن.

ويسعدني أن أخصص مقالتي هذه للحوار المثير مع صديق الصبا، الدكتور إحسان عبّاس، الذي ننشره في هذا العدد بعنوان: "سبع سنوات في حيفا.. إحسان عبّاس يتذكر". فقد وجدتني أذكره في جميع أعمالي الأدبية، تقريباً، وأتمنى التقاءه قبل الرحيل عن هذه الدنيا. فقد وجدت ذكراه، في خلدي، أشبه بالإبتسامة الحيية التي خلّدت صورة الجيوكاندة مثلما جاء في القصة الثانية من "سداسية الأيام الستة"، وهي بعنوان: "وأخيراً نوّر اللوز". فهل تذكرون؟ قال:

"إنني أدرك الآن أنني ما انطويت على صدفتي، واحدودب ظهري، إلا حين قطعتُ الصلة بماضيَّ. وما هو الماضي؟ إن الماضي ليس زمناً. إن الماضي هو أنت وفلان وفلان وجميع الأصدقاء، سوية رسمنا لوحة الماضي، وكلٌّ منّا لوّنها بلونه الخاص حتى جاءت على صورتها الشابة المشتعلة التي عانقت الدنيا وما فيها. ولن أعيد الصلة بهذا الماضي إلاّ إذا تكاملت أجزاء اللوحة بجميع ألوانها. وصاحبنا هذا، بحبه الجميل، أراه الإبتسامة في ثغر هذه اللوحة. أيُّ ماضٍ يبقى بدونه. وماذا يبقى من لوحة الجيوكاندة إذا مُسحت إبتسامتها"؟

"ليت الشباب يعود يوماً
فأخبره بما فعل المشيب"!

فقد اختلط الأمر على ذاكرتي حتى جاءني إحسان عبّاس الآن وأخبرني بأنه كان هو المتهم بـ "فتاة القطار" ـ من حيفا إلى عكا. ولم يكن إسمها "بعاد". أما "بعاد" فقد أحببتها، في ذلك الزمن، من بعيد لبعيد دون أن أجرؤ على مصارحتها بهذا الأمر. هكذا كان حالنا في ذلك الزمن العذري.

وعزائي أن المشيب نفسه قد خلط الأمور على ذاكرته هو أيضاً. فلم نكن نسكن في فيلا ولم نكن من الموسرين. إلاّ إذا كان الهائم على وجهه بلا أي مأوى يرى في أي بيت من حجر "فيلا" حتى ولو كان يأوي تحت سقفه، إحدى عشرة نسمة، أبوين وتسعة أولاد لم يبقَ منهم على قيد الحياة الآن سوى أربعة: أخت في بريطانيا وأخت في حيفا، في البيت نفسه في شارع عباس، وأخ في بيروت والفقير إليه تعالى، كاتب هذه السطور.

وقبل ذلك ذكرته في قصة "النوريّة ـ أنشودة في ثلاثة مقاطع":

"كانوا ثلاثة أذكياء في المدرسة. لقّبهم معلمهم بالثالوث العبقري، وأدخلَ في رؤوسهم أن مستقبلاً ذا شأن ينتظرهم. واحد سمع عنه أنه أستاذ العربية في جامعة الخرطوم، والثاني قيل إنه في مستشفى في لبنان. وهو، هنا، قاعد على عتبة الستين يتفرّج على سابلة الحياة التي لا تنقطع. وكان يُسِر إلى زنوبا بكل أحلامه. وكان يحلم بأن يكون عظيماً، فتقيم أمّته له من الغرفة التي وُلد فيها في هذا الزقاق متحفاً يُجمَع فيه تراثه. أما أمته فتفتّش عن آثارها، وأما الغرفة التي وُلد فيها، فقد هدموا جدارها وحوّلوها إلى كشك صودا وجازوزة"!

ومؤخراً، في العام 1992، عيل صبري، فكدت أن أذكر اسمه علناً لولا بقية من خبال شرقي، وقع هذا الأمر في روايتي الأخيرة ـ "خرافيّة سرايا بنت الغول":

"قال: ما من رفيق صبا حَبَّبني إلى لغة أمي وأبي كما حبّبني إليها هذا الشاب إبن شيخ عين غزال منذ أن أشركني في كتابة التمائم الساذجة وطيها في قصاصات دقيقة كان والده يطمئن بها القلوب الواجفة على مصير أحبابها الغياب ـ قلب والدة على وليدها وقلب زوجة على رجلها وقلب أرملة شابة على عريس عسى أن يحمله إليها الغيب.. فهل يكون وجه الشبه في فعل هذه التميمة أو سواها من تمائم إبن الشيخ؟ أو يكون وجه الشبه أنك لم تتمنَّ التقاءه بطفل من ذلك الزمان كما تمنيت التقاءه ولم تحقق هذه الأمنية؟

"كان عليك السفر يا عبد الله، حتى موسكو كي تلتقي أبا خالد وحتى واشنطن حتى تلتقي أبا سلمى. وما من ندوة أدبية أوروبية وافقت على المشاركة فيها إلا بعد أن علمت بأنه مشارك فيها. فلما دخلت قاعة الندوة أبلغوك بأنه لن يشترك.

"وآخرها في هذا العام (1990) حين أكرمكم أبو عمّار بوسام فلسطين وبالتقاء أحبّتكم من الأوائل والأواخر. وكنتم موعودين به. وكنت، شأنك مع المواعيد السابقة، حملت معك نتفاً من أشعاره في تلك الأيام الغابرة. فتأخّر كعادته حتى لم يبقَ لك من التمائم سوى: "الغائب عذره معاه".

"فمن القائل:

حسبك يا فتنة العالمين،
غريب، فهل تؤنسين الغريبا؟

"والقائل:

معاذ الهوى ما للنوى تبعث الجوى
بقلبي فتكويه اللواذع والجمرْ
أبت مقلتي إلا التأسّي بالبكا
فكان أساها المرَّ أن نفد الصبرْ

"ولولا حرصي على تدوين كل ما تجود به الذاكرة، حتى لا تذهب معنا إلى الآخرة، لأحجمت عن السؤال ــ ومن القائل:

أعكا أنت للأقدار دارْ
وربوع ... بات لا تزارْ

"وما عذري له أنه من حيفا، فلا هو من حيفا ولا حيفا أنقى من عكا، بل كلاهما يستقرّ على الوزن ويجتمع على الوصف منذ أن زارها إبن جبير وقال عنها إنها "تستعر كفراً وطغياناً، مملوءة كلها رجساً وعذرة". إنما عذري له أنه إبن قرية عين غزال التي لم أزرها لا في عمرانها ولا في دمرانها، إلا أن اسمها دلّني على حقيقة رسمها، فقد قيل: أصفى من عين الغزال، وادّعوا أن الغزال لا يشرب إلاّ من العين الصافية، ولولا صفاء السماء فوق عين غزال وصفاء سريرة أهلها، فاطمئنوا على الهدنة وعلى النخوة العربية، لما استطاعت طائرات اليهود أن تصيب أهدافها في عين غزال إصابة عين الثور"؟

كانت صداقة مطلع الشباب صداقة خالصة لم تلحق لوثات الحياة أن تلوّنها بأية شائبة من شوائب الأنانية، وأذكر، عن ذلك الزمان، أننا كنّا نضع النظارات الشمسية السوداء على عيوننا حتى نُخفي دموع الفراق حين كنّا ننتقل من مدرسة إلى مدرسة أخرى، وفي فلسطين، من ذلك الزمان، ما كنّا

نفترق على دين أو ملة بل كنّا نجتمع على الزمالة المدرسية والصداقة النقية. وقد لا يتذكر إحسان عبّاس أن معلمنا، الشيخ تقي الدين النبهاني، نقلني من صف التعليم الديني المسيحي إلى صف التعليم الإسلامي لكي أحفظ القرآن الكريم. أو يكون الذي كرّمني بهذا الأمر هو معلمنا رفيق اللبابيدي في ذلك الزمان. وكان اللبابيدي يطلب منّا البقاء في الصف بعد انتهاء الدوام فيغلق الباب والنوافذ علينا ثم يأخذ في شرح أوضاع شعبنا السياسية ويحرضنا على الإنتداب البريطاني ومخططاته ضد شعبنا الفلسطيني. فأحببنا معلمينا واحترمناهم على ما كانوا يبدونه نحونا من احترام ومن تحميلنا المسؤولية.

والآن، حين يتساءل كبار السن من بيننا عمّا آلت إليه مشاعر الصداقة من مصير، ويرددون قول المتنبي عنها أنّ:

"نصيبك في حياتك من صديق

نصيبك في منامك من خيال"

أعود إلى أيام الزمالة المدرسية فلا أجد الصداقة إلا في ميعة الصبا وأنها "سرايا" التي حطمتها مثلي وأقل غيري، ذلك الغول الذي نسميه ـ أحياناً ـ باسم ضيق العيش وانضممت، فيما بعد، إلى حركة توقعت أن تنقش على أعلامها شعارنا التراثي الجميل: "رب أخ لك لم تلده أمك". فقبضتُ الريح في آخر أيامي كأني ذلك القائل:

"أعلمه الرماية كل يوم

فلمّا اشتدّ ساعده رماني"!

وأنا، بهذا، لا ألوم أولئك الإخوان الذين لم تلدهم أمي بل ألوم قبيلة الأدباء والشعراء الذين أعتبر نفسي ولو جدلاً، واحداً منهم. فنحن نستهين بأنفسنا أولاً فيستهين بنا الحكّام أولاً. ونحن ننهش في لحوم بعضنا البعض ثانياً، على اعتبار أن النهش في لحومنا قليل الكلفة وأسلم عاقبة ثانياً. وفي أيامي الأخيرة، في الحركة التي انتسبت إليها، أعدتُ على مسامع زملائي

حكاية المعرّي مع طبيبه الذي نصحه بأن يأكل قلب حمامة فيُشفى. فأجابه المعرّي: لماذا لم تنصحوني بقلب أسد؟!

لم ألتقِ صديق الدراسة، إحسان عبّاس، منذ حوالي ستين عاماً. فلم يبقَ ما بيننا سوى الصداقة غير الملوثة. ووجدتُ هذه الصداقة، غير الملوثة، أفضل مجهر نُبصر ماضينا الضائع من خلاله. فنحيي الذاكرة التي "سكنت ديار الآخرة" مثلما قال الشاعر الذي خانتني الذاكرة عن إسمه:

"تباً لهـــــا من ذاكـــــرة	سكنت ديار الآخـــــرة،
كانت تدور على السُّهى	دارت عليـــــهـــــا الدائرة"!

ومصيبة جيلي الفلسطيني هو في مأساته، مأساة شعبه كله، حين أريد تغييبه ـ ذاكرةً وشعباً وتاريخاً عريقاً في وطنه. كان حالنا، في ذلك الزمان، حالاً عجيباً كأنما أصبحنا، جميعاً، أشباحاً بسحر ساحر. ووجدتني أصف ذلك الحال، في روايتي عن "اخطية" بالفقرة التالية:

"ذهب الذين نحبهم وبقي الذين نحبهم. فمَن من الذين نحبهم ذهب؟ ومَن من الذين نحبهم لم يذهب؟ كانوا يصبحون عليك فترد عليهم الصبح بأحسن منه وأنت مذهول أين التقيتما من قبل؟ فيعتب عليك هذا النسيان بعد أن قضيتما خمس سنين متجاورين في مقاعد الدراسة. كان الإنقلاب بركانياً ولكنه لم يقلب الدنيا علينا أشد مما قلبها علينا في حيفا وغيرها من المدن. فهنا لم يُبق البركان منا سوى رماد وبضعة أفواه تنفخ في رماد وريح تعصف بقاع صفصف. وكانت الريح تذري الرماد أشباحاً. وكانت الأشباح تظهر فجأة ثم تختفي، كما الأشباح، فجأة. لا أذكر أن أية جنازة اخترقت أزقتنا في ذلك الزمن القصي، أو إعلان نعي ملصق بعمود. ما كنّا نموت، في ذلك الزمن، بل نذهب. فلان أخذوه وفلانة رحّلوها. عالم متكامل تداعى به المسرح وابتلعه الجوف وهو في ميعة الحركة وفرحة الإندماج في كوميديا الحياة".

إن شيخ عين غزال لم يرجع. ومن حقه ألا يرجع. بل ربما يكون هو نفسه ذلك الذي جاء عن غيابه أن "الغائب عذره معاه". فعين غزال أزيلت من الوجود وقامت، مكانها، مستوطنة باسم "عين أيالة". أي عين غزال. أما أنا، وأمثالي

فلم يصبّرنا على الضيم إلا أننا بقينا في حيفا ــ في بيوتنا أو فوق ملاعب صبانا. وحلمنا بالعودة. أكثر إخوتي الذين ولدتهم أمي، لن يعودوا بعد أن غيّبهم ثرى الغربة. ولكن إخوتي الذين لم تلدهم أمي، آخذون في العودة ولو قطرة قطرة أشبه برشح الماء من شَرْبة ماء. قد لا يكون الإنقلاب، هذه المرة، بركانياً. ولكنهم يعودون ولو من ثقب الإبرة.

ويظلّ جيلي الفلسطيني يحلم بأن يعيش حتى يلتقي كل الذين نحبُّهم، من بقي ومن ذهب فعَاد.

مقدمة

أهم ما يميز جيل الثمانينات في العراق هو اعتماده النثر وسيلة شعرية رافقت برنامجه الشعري وحددت الكثير من صفاته. في البداية، كانت قصيدة النثر مشروعاً ستينياً. حاربته المؤسسة الثقافية ووقفت منه موقف الضد. ثم جاء السبعينيون الذين خاضوا معارك شائكة مع بعضهم إثر قيام الجبهة الوطنية. أدى الصراع، نتيجةً لذلك، إلى رحيل البعض أو تهميشه وطبعاً إلى بزوغ البعض الآخر.

ذلك يعني أن انحساراً في كتابة قصيدة النثر قد حصل في السبعينات وأن الجيل نفسه لم يستثمر تجربة الستينيين حتى بعد أن فتحت له أبواب النشر ونوافذه. لكننا ـ وهذه مفارقة ـ سنراهم في الثمانينات يساهمون بشكل فاعل مع أبناء الجيل الثمانيني في كتابة شكل متطور من قصيدة النثر أسموه: النص المفتوح.

إن ما يهمنا في هذه المقدمة هو أن نقول إن شعراء جيل الثمانينات في العراق هم الذين قد استثمروا تجربة الستينات، بل ذهبوا في هذه التجربة إلى أقصى المغامرة.

لعل الحرب كانت من أهم المناخات التي ولدت، كانعكاس، الكثير من الأسئلة الوجودية لدى هذا الجيل. هذه الحرب التي ترطم رأس الشاعر يومياً بحائط الثكنة أو الموت أو المجاعة!

هل كتب هذا الجيل قصيدة حرب؟

أعتقد أن الإجابة على هذا السؤال تحتاج إلى دراسة أنموذج معين لقصيدة الجيل. لكننا لو عرفنا، مثلاً، أن ليس هناك نموذج واحد بل هو أكثر من نموذج كتبه هذا الجيل لأدركنا أن قصيدة الحرب لم تولد ولم يكتبها الجيل نفسه أبداً.

إن ما كُتب، فعلاً، هو قصيدة ضد الحرب. وهذه القصيدة بدورها اتخذت أشكالاً متعددة، مختلفة من شاعر إلى آخر.

لقد قدّر لهذا الجيل أن يجمَع إلى نواة تنخره وتفرقه عن بعضه: الحرب.

هكذا، ونتيجة لاختلاف الرؤيا السياسية والفكرية والاجتماعية، فقد وُلدت "جيوب" داخل ثوب الجيل. هذه الجيوب شكّلت أهم الملامح التي يمتاز بها المشهد الثمانيني.

فهنالك جيب أنتج شكلاً فنياً جديداً على ذائقة المتلقي ـ وأقصد به النص المفتوح ـ وهو نص مغاير لضبابية الواقع الذي دفع الشاعر إلى أتون حرب من الدمار بحيث لا يمكن وضعها إلا

بتهميشها. لكنه - برأيي - لم يصمد رغم مساندة أبرز الشعراء السبعينيين له لأن أصحابه اعتمدوا فيه منهجاً نقدياً أثبتت الأيام عدم جدواه، ولأنهم أيضاً لم ينتجوا "نصاً" مقارباً لحركة الواقع اليومي، وكما قلت فإن هذا النص سيبقى غريباً على ذائقة القارئ رغم إشراقاته التي تسطع أحياناً في هذا السطر أو ذاك.

جيب آخر، كتب قصيدة - نصاً، مفتوحاً على الحياة مُطلقاً العنان لذاكرة مليئة بالصور اليومية والإنفعالات الخارجية للفرد، داخلاً في قلب الأحداث ومنغمساً في دهاليزها ونورها.

بينما آثر جيب آخر كتابة نص يستقرئ وعي المثقف خاصة دون أن ينغلق على عامة القراء. هذا الأخير، برأيي، هو الذي يرى في أن الشعر إضافة إلى كونه عملية "مثاقفة" فهو، أيضاً، فعالية إنسانية تندرج ويجب أن يكون لها مساس بوعي ومشاعر المتلقي.

ثمة جيب كتب نصاً خارج السرب رأى فيه أن الشعر نشاط لغوي محض فأنتج نصوصاً غاية في التعقيد حتى بدت فيه الكتابة نوعاً من الأحاجي أو الألغاز وذلك لما خالطه من استخدام لغوي صرف وبذهنية منصرفة إلى نعت القارئ بالكسل والغباء.

هذا الجيب.. على رأي أحد الأصدقاء لا يختلف عن الجيب الذي كتب قصيدة تجعل من الحرب شيئاً مقدساً.

لكن جيباً آخر، هو جيل لم يختلط بالجيل، آثر أن يكتب بصمت مختطاً لنفسه منهجاً خاصاً بالكتابة مُبدياً، بصمت وهدوء، تحفظاته الكثيرة على هذا الجيب أو ذاك.

أجل، هذا هو جيل الحرب الضائع الذي لن يقبل بأن يختلط مع الأخضر أو اليابس.

مؤخراً، وبعد دخولنا في عقد التسعينات بدأت الصحف والمجلات تلتفت إليهم، لكن هذه حكاية أخرى سنعود إلى سردها وتحليلها في فرصة قادمة.

إذن

هذا الجيل الثمانيني وُلد ومعه وُلدت الحرب، وكما قسّمت الحرب الناس إلى أبطال وشهداء.. جبناء وأسرى و.. و..

إنقسم هذا الجيل وتشظى.

من مختلف الجيوب التي في ثوبه اخترنا نماذج لشعراء.. عدنان الصائغ، نصيف الناصري، دنيا ميخائيل، صلاح حسن، محمد تركي النصار، محمد مظلوم، علي الشلاه، عبد الرزاق الربيعي، فاضل الخياط، طالب عبد العزيز، فضل خلف جبر، وسام هاشم، كرم شغيدل وعلي عبد الأمير، وهم من أبرز شعراء هذا الجيل.

آخر مشهد في الشعر العراقي

رؤى ولغة تختلف...

علي عبد الأمير

ستظل حركة الشعر العراقي في نشاط لا يهدأ.. هذا ما تشير إليه النظرة البسيطة لمشهد الشعر العراقي. فكيف بالنظرة الفاحصة والمتمعنة؟ وعلى الرغم من انشطار هذه الحركة عن بؤرة محددة ـ مكانية ـ لكنها لم تزل تنتج الكثير من النصوص التي تستحق النظر إليها باعتبارها دفعاً لديناميكية تلك الحركة، وتجديداً لقدراتها التعبيرية وإثاراتها النصية. شعر عراقي يبدأ من بغداد ويتجدد ويغامر ويجرب في عواصم عربية عديدة، وشعر عراقي في عواصم المنفى، ونصوص وحوارات وملفات ونقاشات وحضور في شتى المنافذ الشعرية، حتى ليتساءل المراقب (المحايد) هل حقاً كل هذا الشعر في (العراق)؟ والسؤال الطالع من الدهشة والتعجب لا بد أن غفل حقيقة أساسية فالشعر في العراق شهد أكبر حركة تجديدية أصيلة، لا بل إن ما أنجزه السيّاب ومجايلوه فتح عنصراً جديداً للشعر العربي ككل، وظلّ هذا الهاجس يحكم الأجيال الشعرية العراقية اللاحقة، فلا هوادة كانت هناك مع الشعر الرديء الذي كان ينقرض بحكم التجديدات النصية، وكانت الحركة الثقافية العراقية عموماً تجد في الشعر نقطة ثقلها الأساسية إلى جانب النتاج العراقي المهم في المسرح والفن التشكيلي، لا بل أن الشعراء في العراق لم يغلقوا نصوصهم ولا سيرتهم الحياتية في (نخبوية) ضيقة، بل أن النصوص والسيرة الحياتية شهدت انغماساً في الحس الإجتماعي وانكباباً على إقامة إتصال معه ما جعل للشاعر قوة ذلك الحضور في الذاكرة الإجتماعية باعتباره حاضاً على الموقف الفكري في الوقائع الحياتية ومدافعاً عن قيم الجمال في عمله الفني. هذا الإرتباط مع الأزمات وحالة الإنغماس في الموقف الإجتماعي من جانب الشاعر جعل اللغة تتباين وتختلف ـ أي جعل النص الشعري مختلفاً ـ من بؤرة توليدية، من مكان يعيش فيه الشاعر العراقي إلى آخر.

فالنشاط الذي تميّزت به الثقافة المعاصرة وفي أشكالها التي تعتمد صنع المشهد أو الصورة، في العديد من البلدان العربية، والعالم، لم نجده قد حصل في العراق منذ بداية الثمانينات حيث اشتعلت الحرب مع إيران وما تلاها من تطورات وأحداث خطيرة. فأنواع الثقافة المعاصرة تحتاج عمليات نمو وتطور تدريجي يعتمد حث المرة السابقة لإنتاج فن نوعي في المرة القادمة، وهذا يعني الحاجة إلى سياقات وثوابت إجتماعية عبر بناء مستقر أو في حدود الإستقرار.. ولأن المثقف في العراق ومثلما الصورة التي أشرنا إليها

في ارتباطه بالمواقف الإجتماعية والتزامه بفكرة التعبير فنياً عنها. لم يجد تلك البنى الفكرية أو الإجتماعية المستقرة وفي محيط هادئ يمكن قراءة آفاقه المستقبلية اعتماداً على مؤشراته الواقعية. لذا توقفت أنشطة الثقافة المعاصرة عن إنتاج خطابها الإبداعي. وظلّت اللغة باعتبارها توليداً حاضراً وانفعالياً في حدوده الأولى. هي الأكثر في حضورها والأكثر في قدرتها على النفاذ من العديد من أشكال الحظر التي كانت الأسرع عطباً لأنها قد تحتاج إشارات توصيل مباشرة إلى المتلقي. إشارات (صورية) في الكثير منها. بينما اللغة ـ الشعر بالدرجة الأساس ـ هرب إلى الرمز إلى التعمية أحياناً. كي يكشف قسوة اللاعدالة في حياة خصصت بأكملها كي تنهبها الحروب. هذه القدرة في الشعر جعلت المنفذ الممكن إلى الثقافة. منفذاً شعرياً ولغته هي القادرة على كتابة تاريخ مسكوت عنه أحياناً. ومهمل في أحايين كثيرة.

من هنا قد نستطيع الدخول إلى قراءة آخر المشاهد في حركة الشعر العراقي وأقصد به الجيل الثمانيني ـ جيل الحرب وما تلاها. والذي تميّز أولاً بوفرة أصواته وتنوّع أشكاله الكتابية ثانياً وتشتته بين أكثر من مكان وبيئة ثقافية ثالثاً والأهم هو في قوة نتاجاته النصية رابعاً.. فلو اعتبرنا هذه المجموعة التي سنجد لها بعض النماذج النصية في هذا الملف. ممثلة لجيل الثمانينات في الشعر العراقي لوقعنا في خطأ قاتل. لأننا سنغفل بذلك أسماء شعرية مهمة نجدها في بغداد أو خارجها من عواصم المنفى. ولكنها للمصادفة تقدم صورة عن التعدد في النتاج الشعري ـ عن التنوع فيه وغنى ذلك التنوع بما يقدم صورة كلية حية. ففي أسماء الشعراء: عدنان الصائغ/ نصيف الناصري/ ناصر مؤنس/ طالب عبد العزيز/ فاضل الخياط/ محمد جاسم مظلوم/ صلاح حسن/ محمد تركي النصار/ عبد الزهرة زكي/ عبد الرزاق الربيعي نجد أشكالاً كتابية مختلفة ومتنوعة.. هناك طرائق في استخدام اللغة وفهم وظيفتها. هناك حدود التعامل مع الواقع وإفرازاته. هناك الإنكباب على شكل (قصيدة النثر) ـ وهو الأكثر حضوراً ـ في تجربة الجيل. وهناك نص (التفعيلة) أيضاً.

الشعر نشاط في اللغة. نعم هكذا نقرأ فنية النص الشعري. ولكن أهو اللعب المجاني في اللغة. أهو الوقوع في أسر علاقاتها وعلاماتها. أهو البقاء تحت سطوة الجرس أو الإيقاع فيها؟ أسئلة عديدة نستطيع أن نقيمها هنا. ولكننا سنأخذها باعتبارها مفاتيح لقراءة هذه النصوص التي بيننا.

فهناك لغة مأخوذة بعناصر بيتها (اللغوي). وهي إن انفتحت على غير الحفر في المفردات. تذهب إلى ذهنية وقراءة لغوية لأفكار خاصة بصاحب النص أو تتصل مع أفكار أخرى أو محايثة. فتبدو لغة صعبة الإتصال مع المتلقي العابر أو المأخوذ بعناصر إثارة في النص الشعري. وهي لا تتردد في استخدام تعابير (الفهم) أو (القول) و(الكلمات) بشكل مباشر في النص. هي لغة ـ شارحة تبدو أحياناً. أو لغة علاقتها قائمة على إتصال مع مفهوم قاموس اللغة.. من هذه النصوص نستطيع أن نحيل نصوص الشعراء محمد مظلوم. محمد تركي النصار. عبد الزهرة زكي وبعض الشيء. نص الشاعر صلاح حسن الذي ينفتح على إحالات واقعية مرموز لها من بعيد.. وحين تختار هذه النصوص لغة عالية هذا لا يعني ترفّعها عن ملامسة الحياتي والرؤيوي. بل هي تختار في التعبير عنه بلاغة مميزة ولغة تُؤوّل الحدث في مرموزات لا تحاوره عن قرب.

بينما نجد نصوصاً أخرى. تجتمع على بؤرة واحدة. فثمة الشخصي القادم من سيرة حياتية أو معايشات

محسوسة. وهذه البؤرة ـ وهي الذات وتلاقيباتها مع المشهد الخارجي ـ لا نجدها متشابهة تماماً، فهي تختلف في نسيجها الكتابي، إشتغالها على اللغة. فهناك الصيرة الذاتية تضمر مرة وتظهر واضحة مرة أخرى. هناك اللغة التوليدية التي تنشط ضمن مؤثرات المشهد لا قسراً على عناصره ولا إستعارة من خارجه. هذا ككل حددها ببؤرة وأطراف حركية تنشط في تصويريتها دوما مجانية أو ترهل. من هنا نستطيع أن نقرأ نصوص طالب عبد العزيز، فاضل الخياط وناصر مؤنس.

وهناك من النصوص ما يذهب إلى الحياة وانبعاثاتها مباشرة، ومنها تبدأ علاقة اللغة بمحيطها الإشتقاقي والقاموسي. وتنشط الصورة في تكوين علاماتها. هنا إستفادة من نشاط النص النثري الفرنسي واللبناني. هذه الإستفادة لا تعني التناص المباشر بل استخدام الفضاء في ذلك النص وإعادة تشكيله بإنتاج نصي فيه علامات الواقع العراقي ومحليته. نجد مثل هذا الإشتغال في نص الشاعر عبد العظيم فنجان الذي يزيد على ذلك بتقطيره اللغة وتنقيتها. وتأكيده على الرمز والصورة، فيما يبدو نص الشاعر نصيف الناصري أكثر من ذلك علاقة بطبيعة النص النثري، فهو "مجاني" بحق، يستخدم الأشياء الدارجة واللغة اليومية والمنظورات التي تصادفنا في الحياة ليقيم منها تقابلات شعرية.

وإذا كانت الحياة بغنى تفاصيلها، تبدو المؤئل الذي أخذت منه بعض النصوص النثرية، فهي كذلك أيضاً في نصوص (التفعيلة) التي يكتب بها الشاعران عبد الرزاق الربيعي وعدنان الصائغ. فحين يبدو الشاعر الربيعي (تسجيلياً) أحياناً، يذهب الصائغ بمهمة الإفادة من الواقع إلى رؤية الجانب الآخر منه، الجانب الخفي، الجانب الذي يتعرض في الحياة ذاتها إلى الإقتصاء. ومع هذا النص نقل الفاعلية الإنسانية في البيئة المعتادة. وهو بذلك يجعل للنص روحاً مضادة لتلك الإجابات التي تقف وراء تغييب الفاعلية الإنسانية. لغة الوصف والتكوينات الهادئة عند الربيعي والمقلقلة بالحنين والتذكر نجدها عند الصائغ تأخذ طابعاً تحريضياً يقوم على الإيقاع السريع للإنتقالات الصورية، بل هو يخلق "موتيفات" بصرية، تتدخل في أحيان كثيرة في شكل النص إذ تجعله يعتمد المقطعات القصيرة.

إن قراءة كهذه لا تعتمد التصنيف حسب القرابة من اللغة وطرق التعامل معها ـ حتى وإن بدت هكذا ـ بل هي تنشد إظهار غنى التفاصيل في عموم حركة جيل الثمانينات الشعري في العراق، وإن التمثيل النصي لأسماء عديدة يرد في أكثر من صورة، فهناك نصوص أخرى نجد لها فسحات في التعبير الشعري غير التي أشرنا إليها مع سعة ما كانت عليه.

وهذا يؤشر لحركة الجيل ونصوصه. غنى التفاصيل وقوة التنوع وما استطاع ذلك حقاً في إبعاد النصوص عن صفة التشابه والتماثل التي بدت لوهلة أولى وكأنها كذلك. إننا حتى في التقسيم الذي وضعناه لهذه النصوص التي تزيد عن العشرة، لا يعني تحديدنا لكامل مشهد حركة الجيل الثمانيني، فهي حقاً لم تزل تحتفظ بالقدرة على إستبطان أشكال كتابية جديدة تكشف لا عن وعي شكلي حسب بل في امتلاك النصوص قوة رؤيا تجعلها تختلف عن نصوص كثيرة تزامنها. وهذا يقع بالتأكيد في قوة النص الشعري العراقي وسعة ما ينتظره من آفاق

(عمان)

عدنان الصائغ

في حديقة الجندي المجهول

الجندي، الذي نسي أن يحلقَ ذقنهُ ذلك الصباحْ
فعاقبهُ العريفْ
الجندي القتيل، الذي نسوه في غبار الميدان
الجندي الحالم، بلحيته الكثة
التي أخذت تنمو، شيئاً فشيئاً
حتى أصبحتْ ـ بعد عشر سنوات ـ
غابةً متشابكة الأغصان
تصدحُ فيها البلابلْ
ويلهو في أراجيحها الصبيانْ
ويتعانق تحت أفيائها العشاقْ

الجندي..
الذي غدا متنزهاً للمدينة
ماذا لو كان قد حلق ذقنه، ذلك الصباح.

دبابيس

النجوم، التي يتوهمها المطبعي، حروفاً متناثرة
على أديم الليل.
النجوم، التي يراها المدفعي، دموع الأرامل التي سيخلفها
بعد كل قذيفة
النجوم، التي يحسوها السكيرُ، حبيبات طافية من الذكريات
المرّة
النجوم، التي يتلمسها السجين، سجائر مطفأة في جلده
النجوم، التي تمسحها العاهرة، بقايا الفحولات المنطفئة
بين فخذيها
النجوم، التي يتأملها العابد، رذاذ ماء الوضوء
على سجادة الكون
النجوم..
دموعنا المعلّقةُ
- بالدبابيس -
في ياقة السماء
ترى أين تختفي
عندما تفتحين نافذتك..
في الصباح

حبل غسيل

على قوس الصباحْ
تنشرُ المرأةُ
غسيل أيامها
تتلمسُ ثيابه المبقّعة بغبار الحرب
ونعاسَ شرشفها الفاضح
فجأةً..
تختلسُ النظرات
لسطح جارتها
وهي تنشر ثيابها السود
فتمسك قلبها، بيديها
- كليمونة معصورةٍ -
وتهبطُ مسرعةً
إلى غرفة النوم
متشبثةً بعنق زوجها
وهو يفرك عينيه مذهولاً
لمرأى زوجته..
..بالثياب السود.

أجاممنون

عائداً..
من غبار الحرب
بقلب مجرّح
وذراعين من طبول وذهب
حالماً بشفتي "كليتمنسترا" العسليتين
اللتين كانتا في تلك اللحظة
تذوبان على شفتي عشيقها ايجستوس
ليلةً ليلة
عندما فتح الباب
رأى في دبق شفتيها
آلاف الجثث التي تركها في العراء
فتذكر
أنه نسي أن يترك جثته هناك

---

* عدنان الصائغ:

ـ ولد في مدينة الكوفة في العراق عام 1955.
ـ عمل في الصحافة العراقية والعربية وكان رئيساً لتحرير مجلة "أسفار".
ـ أصدر المجموعات الشعرية التالية:
(1) إنتظريني تحت نصب الحرية ـ 1984. (2) أغنيات على جسر الكوفة ـ 1986. (3) العصافير لا تحب الرصاص ـ 1986. (4) سماء في خوذة ـ 1988. (5) مرايا لشعرها الطويل ـ 1992. (6) غيمة الصمغ ـ 1993. (7) تحت سماء غريبة ـ 1994.
* له تحت الطبع: "نشيد أوروك" ـ قصيدة طويلة.

نصيف الناصري

وجه/ أساور من ريش

ضوء في الزمن الذي بلا خيانات
ضوء العشب الذي هو خمرة وخزائن شفافيات مدفونة بعمق
تحت مرتفعات الليل.
والحديقة بين الشموع تشتعل على الأنهار.

ميثاق الظلمة التي تصالح حمرتا المنقوع بالصرخات
ميثاق بلورات تنهداتنا التي يرفعها الغراب الأخضر
ما الذي يجعلنا نترقب الخطامات في بهو الضباب؟

في الأرض غير المرئية، أرض السهرات القديمة
تتقدم مجاميع من مصابيحكِ وترفع بصيفها ثلوج أشجارنا العارية
تتقدم أقاسك المضيئة التي تتمدد مثل سماء خضراء تثقلها ثمار ذهب
تكسوه الزرقة الأسيانة.
فوق جبينك ـ جبين الأحجار الكريمة
تتكاثر أصداف الماضي.
يرحل الشجن مع غيومه المحروقة.
نسمعك تسافرين مع أشجار تخض تحت آلامها تيجان ملوك يتعذبون
الأمواج البنفسجية.
الحجارة الحبلى
كلها متشابهة وتئن تحت نار شفتيك

إفتحي ذراعيك واستقبلينا نحن عشاقك الخائبين
ستنحني عليك مثل حلم بضيء بفسحة صحراء العالم،
عمر بذخاً يا وجهاً يرفل بهالاته
عمر بذخاً يا وجهاً أشدّ لمعاناً من لمعان العقيق العتيق
بذاك النجمة
شهر وحيدة تحت ظلال الموسيقى المرفوعة فوق بيت الرماد
بيضاء تحت نهر من الشمس المتسلحة بالخضرة المستديمة
يا عظم الليل اللامع في أرض الهدنات المتكسرة والمنقلبة
ويا دفء الريش المختلط بحجارة أرض ضفافنا الوقورة
إكشفي وجهك الذي هو وجه الشعلة المتأرجحة
والمشدوهة، وجه الموسيقى المتعاقدة مع الأقمار
وجهك أساور من ريش يسفعها البرد
عندما تمشين، تمشي أمامك ظلالنا وتنفتح الظلمة المرصعة بالتوهجات
شفتاك القرمزيتان
تنيران باستمرار أرض العالم
فوق، قرب النبع الأرضي، تصعد رغباتنا مجهدة.
الصرخات تنطفئ:
لهيب المشاعل بضيء السقوف المليئة بالأقنعة المتآكلة
مشدودون إلى الماضي نرقبك في النار العشقية
ونظراتنا تقفز متموجة بين الرمل وبين الريش العاري
إصعدي بمياهك إلينا، أزيحي الإنهدامات عن نهارنا المنقلب
صوب الأيام الشبحية، الأيام التي تومض لموتنا المزدحم بنقوش
العطش والخسارات.
شمسنا ناقصة ومثلومة وليلك متلألئ ومرفرف براياته
وغاباته العظيمة.
صخور الريح تقوّض جدران رغباتنا المحمومة
وأنت، تحيطيننا بذهبك الحار وترفعين أمواجاً متنهدة.

ذراع قرنفلة وحيد
ضرع بقرة مسيحية يلمع فوق تل مزروع بالصلبان
وشجرة من النوم تثغو باتجاه الليل اللا متناهي
ضياء
وجزر عشقيات
واللوعة/ والقيثارات اللاهثة بين مشاعل الصيف
قلائد حاضر مجنون
والضحة البعيدة للسيف المجاور للوردة
طعم السهر/ حيث لا ماء ولا سنبلة.

في مدن لا ينابيع لها، تتلاشى رغباتنا تحت شمس ثقيلة
وتخفت حماساتنا لعناق الليل وخطواته المستديرة والمنسجمة
مع الشواطئ والأغصان المليئة بالجذام والظلمة.
آه، ما أقسى الليل في أعشاش المقابر
ما أقسى الفراشات السود التي تحتمي في الهاوية الموشوشة
ما أقسى الصمت المتوهج بين الحشائش النائمة.

مثل نورس يهاجر
يدخل العاشق حمّى أحزانه،
همسات العاشقة تحلق فوق مروج الماضي المطفأة
وفي الحاضر الشرس يتمرأى الميتون،
بهدوء مع ثلج الخيانة وقبر الأكاذيب الوردية
يضطجع العاشق
في حلبة جنونه.

(1994/9/10)

* نصيف الناصري. ولد في بغداد. له مخطوطات كثيرة. لم يطبع له ديوان حتى الآن.

دنيا ميخائيل

رأس السنة

أنتم تحتفلون
وأنا أضع السنة على ظهري
وأدور بها في الطرقات
أنهيقي هذا أم أجراس العيد؟
أنتم ترقصون
وأنا أتأرجحُ في بندول الساعة
وسأدق دقةً مدوية
إحتجاجاً على لعبة "الغميضة"
التي تلعبها معي السنة
(ولا أدري ماذا أفعل بوشاحها
الذي نسته على عيني)
أنتم تغنون
وأنا أظنُّ
في رأس السنة
أنتم تحتفلون
وأنا أدور في الصيدليات
فرأس السنة مصاب بالصداع
ما زلتم هناك.
وأنا مثل سؤال عابر
مررتُ برأس السنة.

خروج الأصدقاء

"لا تكن صديقاً بإفراط.. لئلا تكون في وحشة"
(من سفر الجامعة)

خرجَ البلدُ من جرّتي
خرج الأصدقاء من البلد
لم يبقَ غير التراب من البلد
أخذتُ حفنةً وسوّيتُ تمثالاً من العتمة
قرّبتُ منه الشمعدان أو أصابعي
دمعةُ من هذه؟
ما هذا الذي يذوب؟
ولماذا تعود الأشياء إلى التراب؟
أخذتُ حفنةً وسوّيتُ جرةً أخرى
حرّكتُها لأخرج من البلد
لماذا التجاويف فارغة؟
غيابُ من هذا الذي سال
وأنزلَ المطر مثل الآلهة؟
أريدُ شيئاً جديداً تحت الشمس
أضربُ المطر بعصاي
فينسابُ في يدي ترابٌ
من جرةٍ مكسورة.

ضمائر منفصلة

هو يلعبُ قطاراً
هي تلعب صفارةً
هم يرحلون
* * * * *
هو يلعبُ حبلاً
هي تلعبُ شجرة
هم يتأرجحون
* * * * *
هو يلعب حلماً
هي تلعب ريشاً
هم يطيرون
* * * * *
هو يلعب جنرالاً
هي تلعب شعباً
هم يعلنون الحرب

* دنيا ميخائيل:

ـ ولدت في بغداد في 1965/3/19.
ـ تخرجت من "كلية الآداب" ـ أدب إنكليزي ـ جامعة بغداد.
ـ صدرت لها الكتب الشعرية التالية:
1) "نزيف البحر" ـ بغداد 1986.
2) "مزامير الغياب" ـ بغداد 1993.
3) "يوميات موجة خارج البحر" ـ بغداد 1995.
4) "على وشك الموسيقى" ـ تونس 1995.

صلاح حسن

المحذوف.. ثانياً (*)

بريئاً من المادة.. أولد راكضاً نحو
نهايتي وبهذا الوعي الحالم ـ أيتها الكائنات ـ
أحيي الفراغ.. وأجعل الثمرة بحجم حبي
..لست ساخطاً ولا حزيناً، ولا دعاة
أو أنصار أرمم سبع قلاع وأجعلها بلا
باب.. والداخلون والخارجون والذاهبون
والقادمون لي الآحاد بلا آحاد. شاقاً
المسافة ابواحد مزمن! بعد أربعة بلا
قرائن.. لا يشيرون إلى جهة مؤقتة
خلفي.. حيث السلالة واحدة رغم الذي
يسرقها ذرة الكيمياء النبيلة. وتبقى بابها
شرقاً بلا تاريخ مؤبجد.. سيعدة غيري
مرة ويقول أعطني من تراب رجلك ما
يكفي لإطفاء هذا النهار.. أقول النهار
بلا هانه كان لي منذ كان.. وإذن
فليكن ما تسأل عنه الثالث الذي صار
عاشراً والمخلد في غيابه كلما صاح ديك

..لست ساخطاً ولا حزيناً.. فما معنى
االأثنينيةا في قولك: كان الأمي يرى
لآدم بين الطين والماء؟
بريء من المادة.. ووقتي يغسل الدم
والإنتظار المؤجل.. أخلع الحب ولا
أرتدي أحداً سيشي بقامتي حين يسترد
العشب عافية الإخضرار.. يوم لا يرتد
خطو الذين يسيرون خلفي.. ونحن نعبر
صامتين إحدى عشرة قنطرة.. وفي الطريق
عمود النور أراه ولا أرى أحداً يراه
فأشدّ حزام النهار على جبهة الليل
وأدخل بين قوسين يستويان خلفي..
وأدعو الإنحناءة القريبة منّي (أوليتي)
بحيث أجعل البعيدة أطول من نهر بلا
قناطر.. أو إثنين لا يختلفان عن
الثالث الذي صار عاشراً.. كمن يرمم
سبع قلاع ويجعلها بلا باب.. ثم يأتي
الذي لا يسمى ليؤمّر المعادن النبيلة
ويبيع الغبار للناجين من الكناية بما يؤهله
لترتيب الحروف على صراط يجعل من نفسه
الياءا فيه.. والحقيقة أنني لست
ساخطاً ولا حزيناً.. فلا راتب منّي ولا
سائل مني.. لكن ما معنى االأثنينيةا في
قولك كان الأمي يرى لآدم بين الطين
والماء.. وأعني مدينة بلا خرافة وقليلاً
من السكّر على الدم تصبح قاب قوسين
أو أقسى من صحن مليء بكلام لا أملك

مؤخرة مناسبة لحمله.. وإن شئت
أقول رضعت رماداً من ثدي أمي بدلاً من
الصمت الموشى بآباء يخرون مثل أرغفة الطين
في يد تجيد التلويح بألفٍ مستقيمة.

(*) مقطع من قصيدة طويلة.

محمد تركي النصار

عسل أسود

كلمات أسلاف،
كسر الأعمى سراجها وتاجها،
لينام في أوراقها ويغطّ في اللعبة.
ضع المنديل،
على دمعة التمثال،
وقرّب الأنثى من القنديل،
وحركهما لنتأكد
إن في النهر حياة تستحق العناء،
وضع هذه الأصبع في النار،
لتعثر على جذر وحيد،
يلاطف يأس الشجرة،
...
...
عسلٌ يدبُّ على ركبتيها،
أتركوها وحيدةً،
قالت أختها للصوص
يفتشون عن أعيادها

بين رمل الخزائن،
أتركوها،
قالت أختها،
فانحبست النوافذ
حشداً من الشعراء،
...
لماذا يُختصرُ الفجرُ في صياح الديكة
وتمحى الوردةُ،
بين ذهب داعر،
وكلاب مربوطةٍ للنهر،
لماذا؟
...
...
أتغنين؟
أم تمسحين سخط المهرج
عن حرير السيف
لتري في مرآة السماوات
هرير الجدار؟
بتركِ تحفرُ جبهة الشمس
والأمس بين الموجة
وشرق الكلمات
يتثاءب في المهب
فلتقل:
بقيت لديَّ كلبةٌ واحدةٌ
وها أنذا أرميها إلى النهر،
أرميها بقوة اليأس..
ثم أسألُ.

ماذا تصنعين أنتِ
بكل هذا الذهب الداعر،
وماذا تفعلين بهذا العسل الأسود
يا ملكة السراب؟

محمد مظلوم

فضاءات أخرى في حاضر غير مؤكد

أبتعدُ هذه المرة عن انهمار الحشد
أبتعدُ كذلك ـ عن فخاخ المرايا التي تحاولُ اقتناصَ وجهي في
حالة الذهول.
أبتعدُ عن محاججة النائمين عن حياتهم
عن مخاصمة الغائبين، في انتظارهم، كأسئلة صدئت في التكرار
أبتعدُ وفي طريق ابتعادي أخلفُ كلّ ما لا جدوى منه
من أصدقاء مشوهين ونساء طارئات وأماكن تغزلُ الذكرى،
وتنسى الحاضر.
أخلّفُ ورائي قراءة رسائلَ غير مكتوبة لكنها معنونة؟
مُلتبساً بكنايات توجلُ غيومي.
كل هذا لأصلَ إلى حياتي التي لم تحن بعد.
حياتي المستمرة في نومها في الخيام الصفراء أو المغيبة في السجلات.. المغبرّة.
أصلُ هذه المرة إلى أخطاء سميتها ـ مجازاً وفي لحظة ما ـ حياتي.
أصلُ ـ أعني أنني تأخرتُ عن الحاضر الأبد حتماً إلى الارتداد.
ومن أجل هذا أسمي الذكرى وصولاً إلى حاضرٍ مفقود.
ولأنني لا أمتلكُ حاضراً ـ فقط فوات أوان ـ سأهربُ من فواتٍ. مستمرٍ
أقصدُ أصلُ متأخراً

هكذا كمن يتراجعُ أمام حريقٍ مندفعٍ مُرتداً إلى رمادِ ماضيه. الغائب
هكذا أنجزُ صورة النسيان على أفقٍ يفرضُ فوقه المنتظرون!
وكالحاملِ فخاخهُ في ظلامه العميقِ أتقدمُ نحو مصائد أخرى
مصائد تستدرجُ ظلامي وفخاخهُ ليختلط الجلادُ بالضحية في
مشهدٍ يستمرُ في الإفصاح عن لحظة تصطكُ أسنانها على أبد. ممزق.
يداي تبحثان عن دميةِ المجهولِ كما أصابعُ الغريقِ الباحثةُ عن
هواء يبتعدُ بينما الحاضرُ يتجمعُ خلفي
وأن تعجز يداي عن الإمساك بحياتي المتسربة في الإنتظار
عيناي الضاجتان بغاباتٍ من الندمِ المتحفزِ للإنفجار تلوحان
لذكرياتي التي تغادرُ بحافلاتٍ بيضاء تشبهُ الإغماءة أو كأنها.. النسيان
أستريحُ هذه المرة من عاصفة المعنى وأنشغلُ بمراقبة
البنطلونات الضيقة والشعور المسفوحة كشعور المسبيات أو
الباكيات في مجالس العزاء.
أستريح أيضاً من أغطية الفكرة وأحسسُ قلبها بحماي
أهربُ هذه المرة من أظلة الفرحين وأريحُ انتظاري الحالمِ على
كرسي مهمل فوق سطح الماضي
مغمضاً عن تحشدات النسيان مصغياً إلى صورة الموتى تُثرثرُ
كالبريد الذي يأتي ولا يأتي
حالماً بي وبك ملغومين بالندم
ليس في الإنتظار وحدهُ لا أجدكِ خارج التأويل!
أيضاً أعترضُ نومك القادم من المستقبل.
لكن من يدري..؟

(*) محمد مظلوم.
أصدر المجموعات التالية:
* غير منصوص عليه ـ إرتكابات ـ 1992.
* المتأخر عابراً بين مرايا الشبهات ـ 1994.

علي الشلا

خيانةُ أن نبتديء

أوزع شكّي لكل المسافات
أركض خلف الهواجس والعنبر المرّ
والأسئلة
خيانةُ.. يا آخر امرأة أرتديها
وأحلامها.. أن تنام على ضلع
غيري
خيانةُ.. يا أصدقائي القدامى
وقد برعمَ الخوفُ فوق الرغيف
وما شابه الطفلُ يوماً أباه
ولا جارهم..!
خيانةُ.. أن يرتقيكَ الجنونُ..
إذا سقطت عمةٌ أو عباءة.
خيانةُ.. أن تنثني..
ثم تضلع من قدمٍ
لستَ تمشي عليها
خيانةُ.. أن ترتجي..
رجلاً في الجموع اللقيطة والأضرحة

خيانةٌ.. أن نشتهي..
خطأ أيضاً.. فيحاكمك الخصيةُ السودُ
في زمنٍ أرملٍ والمكان الكسوف!
خيانةٌ.. أن تستبيكَ الأوانسُ
ثم العوانسُ تأبى على حلمهنّ
فترجمك امرأةٌ دافقه
خيانةٌ.. أن لا تنام.. إذا ما الرفاقُ عووا
في الحداثة والمومياء..
وكم كيف النوارس
كم كيف الحكومة
ومائدةٌ للغبار.. كمائدة للعساكر
كل الأفاعي تنظّر للوحدة العربية
جائزةٌ للحروب.. وجائزة للهزائم
قيدْ تراثك
قيدْ تراثك
قيدْ بنيك على أمهم وانتظرني
سأبدو على جمل لا يجيءُ.. انتظرني
وإذا شاءت امرأةٌ أن تكون الإمام
فإني مصلٍّ على تلة الأفق وحدي
وهذا المساءُ اعترافي
تركتم ذئاب الخليفة تثغو بآجالكم
وتبعثر خرافي

* * * * *

وصلنا إلى الحدّ..
سنقسمُ زوادتينا على أربع
ثم نترك للخوف ربع الهلال
وللوجد ربع الصلاة

ونطعمُ تسعين عاشقةً بالقصائد
ـ كفارةً لاختلاس المشاعر والأخيله
مساءٌ صغيرٌ بحجم حبيبي
مساءٌ يغني على دربه الفقراءُ
بساطتهم
يا ليلُ.. يا ليلُ
يا ليل..
هربنا إلى آخر الكأسِ
يا ليل..
هربنا إلى آخر الكأسِ
يا ليل..
مجوسٌ بأحلامنا الخضر
كل النساء ازدحمن بواحة جامحة
سنكسر في آخر الشوط أوجاعنا
ثم نصرخ..
"فوق الرباط.. عمامة روحي"
أحبُ الظلامَ كثيفاً على صدرها
وأحبُ رنين المؤذنِ
أغفو بجلبابها..
وأضمر روائحها بالذراعين
لا شيء.. لا شيء كامرأة فاترة
صباحٌ طويلٌ كريق حبيبي
سيتعب قوس الضياء على بابها
وتغبق الفصولُ..
مساءُ الصباح على وحدتي
لن أرى في الإياب مقاماً
فمنذ الطفولة ضيعت مالي

وتاهتْ عليَّ الدروب
نتيه الوجوه ببوصلة لا ترى
وتضل القلوبْ
سأدعو تراب البلادِ لكفِّ حبيبي
وأدعو النخيل إلى شَعرهِ
وأسوق الفراتَ بلا ضفة
كَي يتوبَ!
وداعاً.. لمسقط رأسي وبيت الجروحِ
وأهلاً.. بمسقط قلبي
وأهلاً.. بمسقط روحي
مساءٌ جميل.. كروح حبيبي

(عمان ـ 1995)

---

* علي الشلا:

ـ ولد في بابل ـ الحلة، 1965.
ـ بكالوريوس لغة عربية ـ جامعة بغداد 1986.
ـ ماجستير أدب عربي، جامعة اليرموك، 1995.
ـ صدر له:
* ليت المعري كان أعمى
* شرائع معلقة
* التوقيعات
وصدرت مختارات منها في "كتاب الشين".
ـ المخطوطات:
* "عبقرية المأساة.. كربلاء في الشعر العربي الحديث"
* "كتاب الشين 2" ـ ديوان.

عبد الرزاق الربيعي

محاولة لإطفاء بحر

للوردة (مريم) رائحة البحر
ولون الماء بطاس الموج
لها تتهيدته
حين رأى فجراً مشجوعاً
وعيوناً مظلمة
تتلمس نهد البحر
لتزرع حلمته طلقة
ضحك البحر عليها في البدء
ولكن الوردة (مريم)...

* *

ـ لِمَ تبكين؟
ـ نوارس مملكة الموج تداعت
تحت سفائنك الغرقى
ـ والمطر الضوئي
المتقافز فوق الضفتين
أين؟
ـ أرض واسعة

والطلقة ضيقة الصدر
ـ الأصداف؟
ـ أقالوا لمعتها
ـ كيف؟
ـ إن الحاكيين إذا دخلوا دفتيْ زهرة
فسد البستان

خجل

قلبي الخجول
لا يستطيع أن ينطق تلك الكلمة
التي تعني الموت
إذا خدشتك الريحُ عند مرورها
والتي تعني أيضاً القمر يتمشى على حرف بحيرة
والوردة في أفضل دقيقه
في أفضل ساعه
في أفضل صباح لها في حياتها القصيرة
والتي تعني القلب عندما تكسر ضرباتُه
زجاجة الصدر
وينطلق بعنف إلى الخارج
وربما تعني الحريه
عندما ترقص على الجليد
وبدقة تعني إثنين
في مواجهة عالم واحد
وعلى أقل تقدير

تعني وضع الذراع على الكتفين
والشفة على الشـ...
يا لقلبي الخجول!
الذي لا يستطيع أن يبوح
بأكثر من هذا!!
إذا...
ـ قفْ ـ للوردة امرءا
فتشها ــ لجنديّ
مكانك ـ للبحر الراجف
قال الجنرال المتجهّم مفتتحاً تحقيق براءتها
الإسم الكامل: مرفو
المهنة: طفله
العنوان: بلا...
التهمة: ألفيناها متلبسةً
تتحاور والبحر
بلا ترخيص
الحكم الصادر: إطفاء البحر
بقلب الوردة امرءا

★ عبد الرزاق الربيعي:

ــ ولد عام 1961 ــ بغداد.

ــ عمل في الصحافة الثقافية ونشر في مجلات ثقافية متنوعة في الوطن العربي.

ــ كتب للأطفال وأصدر مجموعتين في هذا المجال، صدر له:

ــ "إلحاقاً بالموت السابق".

ــ "حداداً على ما تبقى".

ــ له تحت الطبع: "جنائز معلّقة".

فاضل الخياط

بيوت بلا أسوار

(1)

البيوت التي خرجت من البيوت فخرجنا وراءها
التي اتكأت علينا فسقطنا معاً.
هنالك
من أطلق عليها الظلام دفعة واحدة.
هنالك
من خبأها عن الظلام فأضاءت
واستدلوا عليها.

(2)

من البيوت ما يتناثر وقت الرحيل
ومن البيوت ما يقف من شدة الخوف
ومن البيوت ما يتعثر فيها الصغار.

(3)

البيوت تماثيلنا الحائرات من الوقوف
أمهاتنا اللواتي ولدنَ معنا.
حقائبنا التي لا نسافر بها
أخواتنا رددنَ إلينا بأطفالهنّ

سماءاتنا انتظرنا أمطارهنّ سنيناً
فأمطرتنا عواءً وقذائف،
امتلأن فجراً
بالنسوة الباكيات أتين من كل البيوت
واجتمعنَ على نهرٍ حقيقي والتففنَ عليه
ومسحنه بالثياب المُمزقة والطين والدموع

(4)

واقف على التلة وتحتَ ثيابي ثمانون فارساً مدججين
بالسماء والفجر، كبروا هناك في المغارات المضيئة، وحملتهم
معي، مأخوذين بالمطر ولا يدركون سوى ساعة يتبين فيها
القبر الأسود من القبر الأبيض، لا يتعبون من المطر ولا يرتعدون
في أثوابهم ينبتُ النرجس، وعلى سيوفهم وشعر النبوة وتحت
أغمادها يحملون البيوت التي غادروها.

(5)

البيوت
البيوت

(6)

أخفينا تحتها سكاكيننا وضحكاتنا.
هدمناها لنبني قبورنا بها.

(7)

ها نحن خارجين نجوب الأرض بلا قبور، منحرفين
عن البكاء عن وجعٍ أسمر وغارقينَ في لجّةٍ من الضياء
الميت في زاوية بعيدة من الظلام، نتناسل في رمادنا
القديم، لا نرى سوى ما يتساقط من الضفاف، نتهامس
لئلا تسقط البيوت، مرعوبين من السماء ومرعوبين من الأرض
ولا نجد ما يحملنا إليه.

(8)

ها هي البيوت، أخفيناها تحت أثوابنا، إرتداها الرجال
وغادروها، باكيات من التوابيت ـ امتلأن بها ـ مع النسوة
الباكيات، أتين من كل البيوت، واجتمعنَ على قبرٍ
حقيقي، غسلْنَهُ واغتسلنَ به، مائلاتٍ من السواد
ومتكآتٍ عليه

(عمان ـ 1993/12/15)

---

* فاضل الخياط ـ بكالوريوس آداب لغة عربية/ بغداد.
له مجموعة شعرية: "القافلة".

طالب عبد العزيز

أصدقاء

البكاؤون.
البكاؤون أصدقائي
الذين مرّت السيوف على أعناقهم
ولم تترك إلا بريقها في الأكتاف
البكاؤون..
الذين ساروا أمامي الى المنافي
وتحبيهم في أضلاعهم
نحيب قطارات تائهة
الذين حلّ عليهم الظلامُ قبل الأوان
الذين إذا ساروا تبكي الريح
وإذا أقاموا تصعد الأنهار
منازلها في السماء
البكاؤون
ذوو الصدور البيض
كالمصاحف المفتوحة
أزهر عليهم الرمل
واخضرت الفيافي
علقوا بثوب الأفق
وماتوا من الإختفاء.

جسد من رفيف

أحزره، فتفزعني طفولته
واهن كأنّ القصبَ لائذ به
كأنّ الغروبَ كلّمه طويلاً.
صبره أنا..
والليالي التي في قميصه أنا
يده التي في الظلام.
أنا أنا..
يكسّرني بنفسجه
فأصنع من نثاري صباحاً اليه
سربٌ من حمائمه النهار
وبابٌ من مدائحه المطر
الآن تخذله الضلوع.
ويسلمه الشجن..
كسرٌ من محبته أنا
وبهاؤه يدي
أحمله على الينابيع
وأبتّه ألاّ أقبله
ثم لا أبقي من عناقه خصراً
ألوذ به كأني بلا يدين
رفيفه في جسدي
وسيسبانه علي

توقظه المرايا..
ويوقظني الندم
كلّ اختفائه كانت الشمس
سرّ من أسرار الغياب
سرّ أن لا يقيه الدمع
ولا تعطيه الحنايا
أستبيحه كي أردّده
الجسدُ الذي ينوشه السهر
أدعوه إلى الألم
المنزل الذي تقصده الملائكة
هربا من حرائقه
أغمر جسدي في العشب
أدسّه في كلّ ما هو أخضر
ليس بالحكمة وحدها ينتوه الجسد
الألم زاد المغفرة
والصفح غاية في الورد
جسد تعرفه الشمس
جسد تقطنه النمور
ادخره كي أسأل عنه
وأظهره كي يفنى
لا أملك إلاّ حنطة عيني لشفاته
إلا قامتي لانكساره
سأذيقه النور
لطالما أوقفوه في العتمة
عندي ما يسترك من الوقت
ومن القبل ما لا ينفد
أخذٌ من شجرك النهار

آخذ من وحشتك الليل
نصفك في يدي
وكلك في السير
لا يأتمنك الضوء
لا يؤنسك الليل
أيّ ذبيح أنت
تقاتلُ تموراً..
وليبدأ الحريرُ بك
وليفنى منك ما يفنى
لقد تعلّمتَ سطراً في الخلود

• طالب عبد العزيز: ولد في البصرة ــ 1954.
صدر له ديوان شعر تحت عنوان "تأريخ الأسى".

فضل خلف جبر

يوسف الصدّيق

• كلّ صباح
توقظني أمي
لأخرج بأحلامي
إلى ضواحي النهار!

• كلّ ظهيرة
تبعثُ أمي إليَّ بأخوتي
قبلَ أن يبتلعني البئرُ
بوهمٍ واحد!

• كلّ مساء
تُبعدُ أمي عنّي
طبقَ التفاح والسكينَ
قبلَ أن أقطعَ يديَّ
وأنا أُحدقُ بنجمة الأرق!

ساعةُ اللّصِ ذهب

ساعةُ أمي: ملكةٌ!
ساعةُ النهار: شارعٌ!
ساعةُ الفقير: سنةٌ!
ساعةُ الجندي: ورقةٌ!
ساعةُ الغريب: رصيفٌ!
ساعةُ الوزير: تلفونٌ!
ساعةُ الحرب: جثةٌ!
ساعةُ اللّصِ: ذهبٌ!

علامةُ إستفهامٍ

• جاري،
الذي لا أعرفُهُ
منذُ عشرين صمتاً،
قدّمَ ضدي بلاغاً
بسببِ علامةِ الإستفهامِ
التي زرعتُها على الحدودِ
بينَ قلبي وقلبه!

• الشرطي،

الذي شهدَ إشتباكَ عواطفنا،
قالَ: إنها شجرةٌ غريبةٌ حقاً
لكن:
لا بدّ من ضبطها متلبسةً
وإلى ذلك الحين
سأتولى بنفسي مهمةَ الرقيب!

• القاضي،
الذي إطّلعَ على حيثيات الجدل
قرر:
تعميم زراعة علامات الإستفهام
في كلّ بقاع الكرة الأرضية!

أغنيةُ العاشق

• قلبي!
لا ينامُ في بيته الشرقيّ
المؤثث بالأساطير
وحكايات الجدات
حولَ مواقد الشتاء
قلبي متشردٌ!

•• غداً
حينَ تفتحُ السماءُ بقالتها
سأجلبُ سبعَ نجوم
وأوقدُها أمامَ سريره

ليتعلّمَ فقهَ الإقامة!

• قلبي!
لا يرتدي كنزةً في الشتاء
لتقيه بردَ المسافات
حين تهبّ من بوابات الأرقِ
قلبي بردان!

•• غداً
حين تفتحُ السماءُ بقالتها
سأجلبُ سبعَ غيومٍ
وأدثّرُ بها لهاثَهُ المحمومَ
ليتعلّمَ فقهَ الحنان!

• قلبي!
لا يتناولُ طعامَهُ بانتظام
ويخوضُ شجاراتٍ مع شوارعَ مجهولة
قلبي مشاكس!

•• غداً!
حين تفتح السماءُ بقالتها
سأجلبُ سبعةَ أطباق
من المنِّ والسلوى
وأعزمُهُ على رصيف خجول
ليتعلّمَ فقهَ الإقامة!

• قلبي!
لا يذاكرُ دروسَهُ جيداً
وفي كلّ عاصفة
يفشلُ في إستخدامِ جناحيه
قلبي كسولٌ!

•• غداً!
حين تفتح السماءُ بقالتها
سأجلبُ سبعةَ أقواس قُزح
تحملُهُ على أطيافها الملونة
ليتعلّمَ فقه الفضاء!

- مواليد ذي قار 1960.
- بكالوريوس آداب / ترجمة.
- أصدر: "حالماً أعبر النشيد".
- له تحت الطبع: "آناريون".
- يقيم حالياً في اليمن.

وسام هاشم

هولاكو..

(هل أقول إلى سعدي يوسف؟)

هولاكو يتفاقم
لماذا أدخل بغداد؟
فأشمُّ نبيذه
ولماذا أردد دائماً
ـ البابُ ليس بأقفاله
البابُ بالذي يطرقه ويمضي
ولماذا أرتلُ
ـ الفحمةُ ليست فحمة
كلُّ ما سوى قبة الحلاج لؤلؤة
على يدِ مَن
وقرب أي صيف ضعيف
سيُقتلُ العشبُ
لماذا لا أدخل بغداد؟
أدقُّ على أكفّ الأبواب جميعاً
مسماراً من الأسى لباب المعظم
مسمارين من ضجر رائق ورمضان يرتجف للباب الشرقي
ومسماراً من زهر السجون لباب القبلة
ثم من يدها، الإصبع الذي لا يشير،
خاتمَ الفضة لباب الحياة المغلق أبداً.

• هولاكو
أتدخلُ بيتي الذي رسمتُه للكلبةِ
وكانت تنفصهُ صورتا فيروز ورامبو، فعضتني
البيت الذي رميته إلى ضابط الجوازات في كيسٍ
فأعطاني، وهو يسخر مني، تذكرةً ووعداً بيبت.
إذا دخلتَ، بأسنانكَ الذهبية،
إتركْ لخيلكَ فرصةَ التناسل على ساحل آخر الأعواد من عمري.
السرير، الأسود مثل آثار التبغ
خذْ سنديانةً منه، وقل:
ـ هذا ولدٌ عاقلٌ يأكلُ المخترَ حين يذهب
وينهش الطريق، ويبتسم بوجه صحرائنا.

• صاحبُ الشرطة، لأنه لا ينام
سيقرأ الجريدة ويقول هذه صورته يدخل القبر
كيف إذن خرج إلى القبر،
بينما هولاكو يتقافز،
أحياناً كالزهر،
وأحياناً كالسعال؟
عالجتُ النافذةَ بالتلصص،
فكانت إمرأة
تنهش أحلامي كلما انحدرتْ إلى صدري،
عالجت، أيضاً.. السكاكينَ
برسم الطحين على الرقبة.
إشتريت متراً واحداً من الأسى
وزرعت عليه آلاف الأكداس من حنطة باردة
كدسٌ عتادٌ لنسف الوهم
كدسٌ آخر مرتْ به الطائرات ولم تأخذني معه

كدسٌ للماضي، الماضي السحيق منذ الحدود.
وأكداسٌ لقتل الحنين إلى هولاكو
الواقف تحت شمس الكرخ
يشير إلى جذع دبابة بلا سرةٍ
تأكل من الآباء ختمَ أبنائهم
لكأن هولاكو العاقد هولاكو المعقود
يجر إلى غرفة البليارد قبةَ الحلاج
وإلى الإسطبل يسحل الشوارع
يا واقفاً فوق شمس الرصافة
أعطني بيتي
وكيسَ الخبز،
والدمَ الفائرَ وأبنائي
وأقضم بأسنانكَ المرةَ
ترجمة القصر لعجلات الحروب الكسيحة.

• ستهزُّ الكلبة ذيلها
عندما يدخل هولاكو وبصحبته تتريةٌ تنجب الرمح والزعفران.
تطيل النباحَ على باب السراي،
"السرايات" أخذتها القوارب إلى الأمّ الخنازيرا
وصارت ركاماً عتيقاً من الطرابيش،
أشعلوا حرملاً ليفقأ العيون التي سهرت
تحرس الباب بالجوع والأمراض،
ها قد انجرفت "ساحة التحرير" وراء عربة النفط
صار الهواء دفيناً
يغلّف أضلاعنا وأضلاعهم
ويوصل آخر البار بأول الجامع الكبير
عبر زخرفة زرقاء أو رمادية

ـ ها أنت، واسعٌ كالصلاة
ضيق كهذا المساء يقرب حافلة الهجرة الحمراء
االلون ثانية،
يطوف بالكتابة
صارت نصوصُكَ زخرفاً علوياً،
لهجة لا يجوز على المرأة نسيانها في الفراش،
وكثيراً ما كانت سيجارتُكَ اللذيذةُ
تماماً بعد صمت شفاه الأنثى
الشتيمة، والبكاء، وخدشُ الرقبة البسيط
والنظر إلى النافذة..!
غير أن هولاكو يحدقُ
أسنانه أيضاً تحدقُ
فرسه تُحمحم ولا تحدقُ،
ترسه ثملٌ
يجوب آخرة الليل شوارع بغداد،
يلقي لحراس المدينة
رأس أرنبة
وضلع شاة
وباب أخطائه،
ولكن..
"هل أخطأ هولاكو؟"
تقول لي مُدرّسة التاريخ هذا
وهي تشعل في فمها سيجارتي اللذيذة.

(عمان ـ 1995/7/30)

• الباب المعظم، الباب الشرقي، باب القبلة، الكرخ، الرصافة، (أم الخنازير)، ساحة التحرير (فيها نصب الحرية للفنان جواد سليم)، كل هذه أماكن وأحياء عراقية معروفة.

كريم شغيدل

بريجيت باردو

تنام على شجرة، قرب بحيرة
ملفوفة بجلد نمر، على ما أظن
تتجول مع إبنتها الكلبة، أحياناً
أو مع صغارها الديناصورات
غالباً ما تشرب الحليب مع القطة
أو تلعق أغنية الخنزير
وأنا دائماً...
أفكر...
بكيف حلقت حمامة الحرب
المقطعة الأجنحة؟!
كيف تبيض حمامة الندم الوحيدة؟!
كيف انحنيت بين الأسلاك كعشبة
أنا الوحيد مثل قذيفة لم تنفجر
أهذا أنا؟
أم قذيفة نائمة؟!

بريجيت باردو

تمنح نصف ثروتها لقطتها الوحيدة
فماذا عن حصة القلبفة؟!
ماذا عن النصف الآخر من الثروة؟!
هل تنفقه في معالجة الكلاب
من القلق؟!
ماذا عن حصة الأفارقة الذين
تزوجوها مئات المرات
ماذا عن حصة القرد الذي
أسننته مهرجة السيرك؟!
ماذا عن حصة البغل الذي
مات عند منتصف الجبل؟!
الجنود عطاشى
في الربيئة التي لم تسعفها الغيمة
الغيمة ماتت عند منتصف السماء
أهذه غيمة؟!
أم بغل؟!

في عيد ميلادها الموافق
لليوم الثالث عشر
من الأسبوع الأخير
للحرب
فكرت بإهداء قذيفة لها
ولكن..
ما علاقتها بالحرب؟!
حقاً ما علاقتها؟!
ألم تؤسس جمعية
للرفق بالدموع

أتذكر..
إنني اصطحبتها مرة
إلى الملجأ
سقطت بيننا قذيفة
ولم تنفجر..
أهذه قذيفة؟!
أم طفلة سقطت من القمر؟!

علي عبد الأمير

فترة لا مكان لها..

أيها الشقي الذي انفصلت عن دمي غفلة
كنتُ أشتهي عودتنا وأيدينا في أوحال ما جنينا
كنتَ أكثر قسوة
حين جعلتني إلى غدي
أخفف من صخب الذين رحلوا
وتركوني وحيداً مع دمائهم
كنتُ أكثر تماثلاً مع مهمة النوافذ
في توثيق الغياب
قدمي تقبلني من بقايا الحكاية
فشكراً لأننا افترقنا
إنكَ في انحدار الهاوية
تخفف من خداع الذهب
ووطأة جزعك على الأرض
أنا هنا.. أحييك، ملقياً نظرة
على دمي يتعثر فيه الصباح..

★ ★

هذه فترة جميلة لا نسيج يماثلها

يتكاثف الغياب على زجاج الظلمة
على مهل
هنا أصقل ببساطة ما أقبض عليه
فأدوّن على ضباب صقيل
ما يغريني به نشيد الكلمات
هنا مثل موضعي في الظلام
يسقط مطر كثيف
يتعرّى الهدوء
على شجرتين مرسومتين
قرب نافذة أتطلع من خلالها

(نيسان 1993)

---

* **علي عبد الأمير:**

- ولادة 1955 بابل - قضاء المسيّب.
- بكالوريوس طب وجراحة بيطرية - جامعة بغداد 1979.
- نشر الشعر في العديد من الدوريات الثقافية العراقية والعربية.
- نشر الدراسات الموسيقية في العديد من صفحات الفنون في الجرائد والمجلات العراقية والعربية.
- ترجم العديد من المقالات في السينما، الموسيقى والأدب.
- صدر له كتاب فصول في الموسيقى المعاصرة - بغداد 1990.
- صدرت مجموعته الشعرية الأولى - عن "دار الأديب" البغدادية 1993 - وكانت بعنوان "يدان تشيران لفكرة الألم".
- يعمل حالياً في عمّان.

موت آسيا

خالد درويش

سماء داكنة تطغى على الفجر الذي يطلع على المخيم من جهة المقبرة. الرذاذ يبلل إسفلت الشارع الذي يشقّ البساتين إلى المدينة كثعبان خرافي. فيكثّف الإحساس بالعزلة والحنين. يوم عادي من أيام الأحياء الصغيرة التي لا زالت تغفو على قارعة الزمن منذ عام 1948. يوم عادي يبدأ بتجمع عمّال الوردية الأولى في شركة الزيوت عند المحطة.

لا شيء يبدّل شيئاً في الرتابة. ينظر أحدهم إلى ساعته. يسعل ثان. يعلق آخر فيما يسند آخرون ظهورهم إلى الجدار يطردون ما تبقى من النعاس عن أرواحهم والجميع ينتظر قدوم الباص.

فجأة ارتفع منسوب السائل في المجرى المكشوف المحاذي للطريق. طفحت القانورات. إنتبه البعض. إجتاز أحدهم الشارع بدافع الفضول. حدّق في المجرى. إرتعش جسده. جحظت عيناه وصرخ. هرول الجميع ورأوا ما رآه: جثة عارية لطفل ولد للتو. ارتطمت بحجر فسدت مدخل العبّارة وحبست الماء والقذارة في المجرى الضيق. انتشلوه. لفّوه بمعطف أحدهم ولم تمضِ لحظات حتى التمّ الناس شيوخاً وأطفالاً، نساءً ورجالاً وأخذت نظراتهم تتقاطع مذعورة مستفهمة وبدون عناء كبير استدلّوا على البطن الذي كان منتفخاً حتى أمس. إنها آسيا. آسيا إبنة أبو سعيد العدوي. بنت صبحية. ذات الأربعة عشر عاماً. بيتهم بجوار بيت أبو عماد الصيدلي التي أجبرها أبوها على ترك المدرسة رغم شطارتها وذكائها لتساعده على العناية بحقول الغرباء من سكان القرية المجاورة.. وامتثلت آسيا في الخيلات كلها: جسد رشيق. عينان عسليتان وحزينتان. وشعر كستنائي ينساب كشلال من العصافير حول وجه أبيض. عمّ الخبر أرجاء المخيم كانتشار النار في الهشيم.. وحل على بيت آسيا كالصاعقة. هاج أبو سعيد كثور جريح. صفع أم سعيد صفعة كادت تهوي من شدتها ولكنها توازنت واستمرت في غسل الصحون للمرة الثالثة. تشاغل نفسها عن مواجهة الخطب. سأذبحها. العاهرة بنت العاهرة.. خرج إلى الحديقة. كسر في طريقه آنية الزهر وزجاج النافذة. كان يعرف أن آسيا في غرفتها. لم يذهب إليها وكان يصيح.. سأذبحها العاهرة بنت العاهرة. عاد إلى الغرفة وهوى كسفرجلة كسرتها الريح على الطراحة.. أينعت مخيلته بطفولة آسيا. ببراءتها

وحلاوتها وذكائها ـ مصدر فخره أمام الناس وزينة الأماسي. أحبها أكثر شيء في حياته. تمنت أم سعيد أن تنشق الأرض وتبتلعها. كانت حزينة وخائفة. انكشف السرّ الذي تواطأت طيلة أشهر مع إبنتها وجارتها أم محمود على كتمانه. انكشف السرّ وحلّت المصيبة. كانت تعرف أن أحداً لن يستطيع أن يثني زوجها عن قراره بقتلها وأنها لا تملك سوى إختيار الطريقة الأريح لموت آسيا.

إنزوت آسيا في غرفتها. كان خوفها قد جفّ خلال أشهر الحمل وآلامها تذوب في ألم التخلص من الحمل. كانت تشعر بالوهن وهي تنتظر اللحظة التي سينطفئ فيها الكون. مئات المرات استعرضت الحكاية من أولها إلى آخرها. ولكن للحكاية الآن طعم مختلف. لم تذهب إليه في ذاك الصباح. ذهبت لتعشب المستان. كانت الشمس تطلع على الدنيا فيرتعش بدفئها كل شيء. ترى الحقول ومآذن المساجد. الطرقات الترابية وجدران البيوت الزاهية ولم يكن ثمة غير السكون وخرير الساقية وهي تغني: "حياتي تتدفق. حياتي تتدفق".

أطل من جهة الطريق المحاذية لسور المطار. كان قوياً وطويلاً كسنديانة.. صباح الخير يا آسيا.. كان لحظة في التشكيل الزاهي للأشياء كلها. أطرى على نشاطها. عبّر عن إعجابه بزركشات ثوبها ولون عينيها وتمتم بأشياء أخرى لم تعهد سماعها من قبل. أحسّت بالخوف والخجل. مدّ يده إليها بالجرّة. لم تكن عطشانة ولكنها شربت. كان الماء عذباً وكانت أصابعه دافئة.. أخذ الخوف والخجل ينموان ويتحولان إلى إحساس غريب يتغلغل في الصدر وتحت البطن. مدّ يده إلى ذراعها. كانت قوية وحانية وكانت الشمس تركض في مسارها. التفتت في الإتجاهات كلها ولم تر غير امتداد الحقول وصمتها وكانت الساقية تغنّي: "حياتي تتدفق. حياتي تتدفق". كانت تتكسر من وطأة الإحساس الغريب الذي طغى على جسدها وروحها. هوت على العشب بين أعواد الذرة اليانعة وهوى بدوره فوقها فتراءى لها أنها تتسلق هضبة السحاب. رأت في طيرانها الملائكة وهم ينظفون بستان الربّ من الخطايا وأحست بالريح وهي تجفّف مستنقعات الدم في سهول الجنة.. كانت رائحة العشب طيبة وكان تموز في لهاثه يلهو على وجهها وكانت الساقية تغني: "حياتي تتدفق. حياتي تتدفق".

سأذبحها كالنعجة. العاهرة بنت العاهرة ـ تمتم أبو سعيد وهو يلفّ سيجارة برباطة جأش وقد تحلّق حوله عدد من أصدقائه في محاولة خجولة لإقناعه بالعدول عن قراره.. وفكر أبو سعيد في ذلك. إجتاحته طفولتها. سيأخذها بعيداً إلى مدينة أخرى. إلى بلد آخر حيث الشوارع العريضة المكتظّة بالبشر والحياة حيث العمارات البيضاء العالية. سيعيدها إلى المدرسة. ستكبر في رعايته وتدخل البهجة إلى خواء المساءات. اقتربت القطة منه. ماءت بأسى واسترحام. شعر بدفئها يتسلل إلى جسده فتذكر الحشد خارج السور. الحشد الذي يطالبه بذبحها. الدم أو العار.. ركل القطة بقسوة. مسّد شاربيه. التهبت عيناه بالغضب والخجل. سأذبحها. يجب أن تموت!

أخذت الجمرة تكبر خارج الأسوار ومن الفضوليين من خصّهم الله بنعمة معرفة أهل البيت فيدخل. يقرأ الوجوم على كل من وما في الدار ويخرج بما جادت به المخيلة من روايات والحكاية تسري من الكبير إلى الصغير. من القريب إلى البعيد.. هاتفوا عمتها في مخيم برج البراجنة وآخرين من أقاربها الموزعين على المدن والمخيمات.. وها هم ينتظرون وصولهم ليلقوا عليها نظرة الوداع. عمتها عائشة هي التي ستختار

الطريقة وهي التي ستقتلها. أبوها يحبها ويعزّ عليه أن يقتلها بيديه.

يتباطأ النهار في مشيته نكاية بالجميع. ساعات ثقيلة كالوقت الذي يسبق العيد. تذهب أم تهيّئ لأولادها الغداء على عجل وتعود. تذهب أخرى. تنجز بعض واجباتها المنزلية وتعود. يغلق رجل حانوته. يتجاهل التلاميذ وظائفهم المدرسية. يدع المزارعون أشغالهم وينضمون إلى الحشد الذي لا يتأثر بحضور أو غياب أحد. حشد كبير بحجم الكارثة وانتظار ثقيل كموعد حب على طرف الساقية. الجميع هنا على ضفاف الفاجعة يعقدون كرنفالهم ليطهروا أرواحهم من طهارتها.

إشرأبّت الأعناق. هرع البعض لاستقبال موكب الأقارب المودعين. لم يشهد الشارع جمهرة أكبر من هذه منذ زيارة جمال عبد الناصر عام 1960. الزيارة التي جددت آمال الناس في تحرير فلسطين وها هم الآن، بعدما أدمنوا غياب الوطن السليب والحنين إلى منازلهم البعيدة، يفتشون عن عبث إضافي يجددون به خواء الروح. اقترب الموكب. تحوّل الهمس إلى ضجيج وتعابير التشفّي والإسترحام والإستفهام عن تفاصيل الحب والحمل والولادة تتلاشى في الهلاك المحدّق. وصل الموكب. كانت عمتها أول من ترجّل وشقّ طريقه وسط الناس. حيّتهم بابتسامة حامضة ملوّحة بالمنديل الأزرق الذي ستشنق به آسيا.

أحدث وصول العمة ضوضاء إضافية في البيت. أغلقت آسيا الباب بالمزلاج. أدارت المفتاح في الأكرة دورة أخرى. سحبت المفتاح ورمته من النافذة وأغلقتها بإحكام. سمعت العمة وهي تعيد قهوة أمّها صارخة: قهوة حلوة! الله يكسر هاليدين. إعملي لنا قهوة مرة. مرة مثل يومك. أشفقت على أمها. تذكرت أغانيها العذبة وهي تسرح لها شعرها. أغاني عن الدروب التي تحمل خطى الرجال العائدين من حروبهم الصغيرة. أغاني عن الطير الأخضر وعتبات الينابيع. أغاني نُقشت صوان الغربة في ساعات العصر. تذكرت والدها وأشفقت عليه أيضاً. إنه يحبها جداً. تذكرت لحظة كان يأخذ بيدها الصغيرة إلى المدرسة ولحظة كان يستشيط هماً إن أصابها أدنى مكروه. أشفقت على قلبه الذي سينفطر لغيابها. هو لا يريد لها الموت ولكن الناس. النيل جائع لضحيته. كم كانت تتمنى وهي تقرأ في دروس التاريخ أن تكون عروس النيل. إذ كان الفراعنة يهبون النهر أجمل فتياتهم ليكفّ عن كوارثه. أجل أجمل الفتيات. نهضت إلى الخزانة. وكان ضجيج الناس خارج الأسوار يتحول إلى جلبة خفيفة. اختارت الثوب الأصفر ـ أجمل فساتينها. ارتدته بهدوء. لفّت عنقها بشال أخضر. آلاف البشر يتزاحمون في الشارع والأزقة. على الأسطحة والمصاطب. يقتصدون في تنفسهم علّهم يسمعون شهقتها الأخيرة. ابتسمت للمرآة. تحوّل قلقها الصغير إلى إحساس بالحرية. لم تكن تشعر بغير العطش. تمددت على السرير. أحسّت بطعم الماء من جرّته وبدفء أصابعه. أخذت تنظر إلى الناس والشارع وحقول الذرة من أبراج موتها العالية وتخطو كغزالة في طرقات حريتها.

اتّخذ القرار. همّوا إلى باب غرفتها تتقدمهم عمتها والشال بيدها. طرقت الباب. كرّرت دون جدوى. كسروا الباب ولم يكن ثمة غير جسد آسيا البارد.

(رام الله ـ 1995/11/23)

رحلة

إسماعيل ناشف

ما زال رذاذ المطر يركض إلى الجهة الأخرى. يميل الرذاذ باتجاه الريح ويصطدم بواجهة الباب المانعة. خيط الزمن الرفيع سحبني بضعاً من الساعات أشرب الكأس تلو الأخرى سعيداً بما لديّ متناسياً ما قد يكون لديّ. للعصفور جناحاه وللسماء زرقتها وللمطر رذاذه المتطاير وأركضُ أنا خلف نسمة طائرة أو هابطة عند ظلّ زيتونة أبدية تلاحقني النسمات المتهادية..

ـ هل تريد كأساً أخرى؟ قالها بلطف الساقي.

ـ نعم من فضلك.

رتّب الطاولة ووضع منفضة جديدة. ابتسم وذهب إلى الطاولة الأخرى. بين الطاولات غابت الإبتسامة. أجُرّ رجلاً وراء الأخرى صاعداً في مسار سيزيفوس ولكن بدون صخرة مرئية. لو حاول سيزيفوس صعود جبل الشيخ لنجح لو حاول صعود جبال مؤاب لصخرت له نفسها. ولكنه أبى إلا ألا يصعد. أنا شارب الكأس. أمشي حيث اللامرئي وغير المسموع يدعوني للهبوط وللصعود في بقايا كأس وأبقى مع اللمس والحس المرهف وأتذوق بعد أن عطلت خلايا لساني من المكروهات المحببات إلى روحي. بعد دقائق يجب أن أغادر هذا المكان. إنه مكان بائس.

ـ أيها النادل.. صرختُ بأعلى صوتي.

يا تُرى إلى أين ستقودني قدمي. لم تبقَ حانة لم أدخلها في هذا البلد اللعين. دعك من هذا البلد. هيّا إلى بلد آخر لعلك تجد السلوى بين أفخاذ نسائه. أحواض نسائية كبيرة. مؤخرات مملوءة مستديرة. يتذمر الحزام من شدة الربط. كف عن هذه الحيوانية المريعة. أكاد أتقيأ من إفرازات لا وعي طفولي. دعك من هذا. لن أغادر الليلة.

ـ هل تطلب شيئاً آخر؟ سأله النادل ببشاشة.

ـ كأساً أخرى من فضلك.

سأبقى هنا بضعة أيام أخرى أنتظر وأنا أحمل صخرتي اللامرئية. أنتظر حورية بحر وعيوناً زمردية.

لتحنّ عليّ وتعانقني لكي أبكي. نعم أريد أن أبكي. كلا لن أبكي. سأريها مدى رجولتي. أنا فحل. فحل قوي لو وضعوا لي قروناً لأصبحت تيس غنم أستطيع مضاجعة قطيع من النساء دون توقف. أنا فحل قوي. يبدو أن الشراب فتح سدودي. ملتُ إلى اليمين وبالمفتاح الآخر أرجعتها إلى مكانها كما كانت محكمة. مقفولة بروابط الذهب الأخلاقي.

سأغادر البلد للتفرج على آثار البلد الآخر. لقد شاهدت بعض الأفلام الوثائقية عن فن بناء القبب في الآخر. سأشتري كتاب تاريخ، وآخر عن جغرافية البلد وتضاريسه. سأركب السفينة. نعم سأركب السفينة. طلقات من رصاص إلهي تعبر سفينتي في النهر وتلقيني صريعاً لتصعد روحي ووراءها جسدي لتنادي سيزيفوس علّه يوقف صعوده. ويحاول أن يغطس في البحر ليُخرج الصخرة. نعم توجد صخرة في البحر جرفها تيار ما ويمكن أن يخرجها سيزيفوس. لماذا إلى أعلى يا سيزيفوس؟ لماذا تكره القاع؟ إن للقاع لذته. التمرغ في لذات القاع شيء لم ترَ مثله في القمة التي لم تصل إليها يا سيزي يا عزيزي. مسدسات العدل الإجتماعي محشوة بطلقات ملوّنة تلائم الآخر دائماً. أما أنا فهي تزهق روحي العزيزة في الحال. إن الحمراء لذيذة. علاء الدين يركب سفينته ويشقّ بها عباب المحيط ولكنه لم يتعد خليج العرب. أنا لا أتعدى أنفي إنه دائماً معي لا يفارقني، حتى ظلّي يأتي ويروح. أما هذا الأنف فلم أتعداه أبداً. وعندما مرّ علاء الدين بمقهى الأساطير وإذا بسيزي يحتسي فنجان قهوته المعتاد. كان سيزي محط أنظار روّاد المقهى وذلك لشربه القهوة بصوت مزعج ليس إلا.

ــ السلام عليكم. هل لديك مانع أيها الزميل؟ سحب علاء كرسياً دون أن ينتظر وتربّع عليه.

ــ تفضل إجلس. هلا دعوتك لشرب القهوة؟

ــ بسرور. ولكن لن أمكث طويلاً من الوقت إذ ستبحر سفينتي خلال الساعة القادمة. قل لي يا دافع الصخرة. أما زلت تحاول رفعها إلى أعلى؟ وهل بقي من الجبل شيء يذكر بعد هذه الأعوام الطوال؟ يبدو لي أن الجبل أصبح سهلاً ولم تنتبه لذلك أيها الزميل؟

نظر إليه بعطف أبوي ــ يا عزيزي أنا أحاول إنقاذك. دوني لن تستطيع الإبحار. وإنقاذ البشر ليس بأقل من تخليص الحسناوات.

ــ أسطورة اللاجدوى أنت يا عزيزي. أما أنا فالكل ينادي ببطولاتي. عندما أصول لا تبقى حسناء حبيسة ولا يبقى ظلم إلا وهشمته إلى مركباته الجدية.

ــ تعال لا نتنافس. فشرفك يا زميلي مليء بالمآسي. معباً باليؤس اللانهائي. فمنذ عدة قرون وهو يلفظ أنفاسه ولكن دون جدوى حتى الموت أبى أن يضمه إليه فعاد يستند على حسناواتك السرابيات. دعك من هذا وتعال لنحتسي قهوتنا اللذيذة فاليوم عطلتي.

ــ أنت في عطلة؟ يا للعجب.

ــ وما العجيب في ذلك؟ بعد الآلاف المؤلفة من هذه السنين قررت أن أخرج ليوم إجازة ولا أريد أن يفسدها عليّ شرفي غيور مثلك. ولكني سعيد بلقائك.

ــ سيدي؟ يا سيد من فضلك. قالها النادل بلطف.

ــ دعني يا سيزي. أريد أن أنام قبل الإبحار. قالها من جوف النوم.

ـ يا سيدي هلا صحوت؟

نفض رأسه مرتعشاً. نفضه ثانية. وجه النادل المشوش يطلّ عليه من خلف غبش كثيف.

ـ كأس أخرى من فضلك. شعر بصوته يأتيه نخيناً من حنجرة رجل آخر في سلطان نوم عميق.

ـ ألا تفضّل القهوة الساخنة؟ بحذر شديد.

ـ شكراً أفضّل كأسي. كأس أخرى من فضلك.

ـ حالاً يا سيدي. انصرف وانصرفت إبتسامته ثانية.

يا له من خنوع. يا له من خنوع. "حالاً يا سيدي". لست بسيدك دعني وشأني. ماذا تريد مني أيها الخنوع؟ لست سيدك بالكاد نفسي. نَفَس وأنفاس. تَفَس وأنفاس. خيال يجمح بعد زوال السدود. نفَس يأخذ ويزيل السدود. حواجزي مطاطية أركض مسرعاً لأقفز من فوقها فتكبر. أهجم عليها بمعول وقنبلة فيرتدان إليّ بعنف مضاعف. هجوم وارتداد سجال. حرب. صراع. لست بسيد. لست بمحارب. إني جوهر الهزيمة. الهزيمة تخلق نفسها بأنفاسي. أتوهم أني محارب. دون كيشوت يمتطي الخيل يشهر سيفه عالياً. "إني صلاح إني صلاح". فيطيح بي الفرس ويركلني برجليه لأصبح بلا رجلين. وكآبة حادة تقص الحديد صداً.

ـ تفضل يا سيدي. أجود كأس في البلد. مبتسماً.

ـ شكراً. باقتضاب.

جرعة كبيرة. ألحقها بأخرى صغيرة. سيجارة ممتدة إلى آخر المعمورة. لا تُطفأ. أحرق القضيب الأبيض داخل فم. سأترك هذا البلد. بلى سأركله بقدمي. سآخذ حقيبتي وأركب القطار. سأغادر هذه اللعينة. حقيبة. عن أية حقيبة تتكلم؟ الملابس. لا توجد سوى التي أرتديها. أوراق ثبوتية؟ أنا لا أعرف من أنا. والدولة تعرف كل شيء. صور الإغراء؟ لا يوجد إغراء. العزة لله. الخشوع والرهبة للعبد. الجد والبقاء للعبودية. أجهزة تنظيف الجسم وإنعاش الروح؟ غير ديدان القبور لا يطهر هذا الشيء. هنيئاً لك يا ديدان. سأركب القطار عارياً. كما لم تلدني أمي. بلى لم تلدني عارياً. ولدتني مدثراً بشتى العمائم واللحى. عين زرقاء وتعويذة من شيخ ممسوح روحاً. حلوة رائحة بخوره. لذيذة السكينة التي يبعثها بقلوب العباد.

ـ أيها النادل. نعم. أيها النادل. قالها رافعاً يده.

ـ أيها النادل. لحظة من فضلك. ابتسم النادل من أقصى البار طالباً التحلي بالصبر بيديه المليئتين بكؤوس دائرية وأخرى بيضاوية فارغة. بعد امتلاء يزاد الرحلات إلى اللامكان واللازمان. حيث الأنسي الصغير واليأس يمتزج بفراغ الجانب الآخر من المتراس. ويعيشه بقيء صداع وعيون جمرية الشرايين. ثم يعود بتأن وثبات إلى المكان والزمان. كلا. إلى وهم المكان والزمان.

ـ هل تريد كأساً أخرى؟

ـ كلا. متى يغادر قطار البلد الآخر؟

ـ هل تريد السفر إلى الآخر؟

ـ بلى. أريد مغادرة البلد إلى الآخر. هل تعلم متى يغادر قطار الآخر؟

ـ أراك مصمماً على المغادرة.

حارس آخر من حراس البلد. يسأل إذا كنت مصمماً. لا قوة لي على التصميم. البلد يمتصّ الطاقة

الباقية. إرادة. تصميم. حزم. جزم. مثابرة. هدف. تجديد. إختراع. مجد وشهرة. وشمس تغيب عند الشفق كل يوم. ولكن كل يوم. لتعود وتأتي كل يوم. ولكن كل يوم. اجترار مهترئ:

ـ بلى. إذا كنت تريد هذه الصياغة.

ـ وهل توجد صيغة أخرى؟

ـ توجد آلاف الصيغ. بل عدد لا نهائي.

ـ لكن صيغتي أهم وأجدى وأنفع للإنسانية.

ـ كف عن هذا الهراء. هراء. خراء. وأنزل قبضة يده على الطاولة بعنف حقيقي.

ـ أسف. لم أقصد أن أزعجك. أسف. آسف. استدار مع إبتسامته الزائلة. فنز غليانه مع الإستدارة. طعنته في كبده بل شريان قلبه. لا.. لا تذهب عد. عد. قل لي متى سيغادر القطار إلى الأخر. أرجوك قل لي. إبتعد النادل ودخل إلى مكان كتب على لافتته "المطبخ ـ للعاملين فقط". سحب الخنجر. لا تعد. لا تعد أيها الأنسي الصغير البائس

أيها الجبان. ارتجفت يده وأرخى من شدة القبضة. ولكنه ما زال قابضاً يده. رفع كأسه

ـ أيها النادل. أنت. أيها النادل ـ صاح بفجور.

ـ أيها النادل المتأسف. أنت يا نادل.

هرول النادل. بدا مضطرباً. لا يدري أي تعبير يضع على وجهه.

ـ نعم. أي طلب أيها السيد؟

ـ طلبي الأول ألا تلقبني بالسيد.

ـ هذا من باب المجاملة أيها السيد.

ـ هذا من باب التزييف أيها النادل. قل لي ما اسمك؟

ـ تعليمات صاحب البار تمنع تطوير محادثات شخصية مع الزبائن. الخدمة. الخدمة الممتازة واحترام كل من يدخل ليفرح قلبه في هذا المكان الهادئ.

ـ ما اسمك؟ قالها بلهجة آمرة وذات معنى واحد.

ـ ...

ـ دعنا من اسمك. ما هو عمرك؟

ـ ...

ـ هل أنت متزوج.. أم أعزب؟

ـ ...

ـ لماذا تعمل نادلاً؟

ـ ...

ـ دعنا منك وتعال نتنزه في معالمي.

ـ هكذا أفضل أيها السيد. كان قد احمرّ وجه النادل ثم بدّل عدة ألوان لا أسماء لها في اللغة.

ـ معالمي ليست بمعالم. إنها أطلال. حتى ليست خرابة بقايا. حتى الريح تأبى حملها على أجنحتها.

تمتد من السواد إلى السواد. حلكة. لا أرى إصبعي الكبير. صمت ونظر إلى النادل. كان الأخير منتصباً طابور عسكر. يضع صينية دائرية على يده اليمنى ومن تحتها فوطة بياضها يحاور أصفرها. يده اليسرى مرخية على جانبه. استعداد لتلبية الطلبات. طلبات. أوامر. خدمة. خدم. تخبط في بدلة مع فراشة. تأوهات آخر الليل. شريط من الإبتسامات الواهنة. من طاولة إلى أخرى. زبون امر إلى زبون نفاقه لطيف. لطافة النفاق. نفاقه اللطافة. ويسكي. فودكا. جعة. نبيذ أحمر. أبيض. جين تونيك. كأس أخرى. كأس أولى. قهوة. شاي. قطع من الجبن. علب سجائر. هافانا. منفضة. دخان أبيض. زبون يتعثر. آخر يتهاوى في المراحيض. يهوي مع سائليه. طرب. موسيقى. عصير البرتقال للآنسة. عصير العنب للرجل. الرجل نظر إليه بإمعان. دقّق. أين خيط الحياة؟ أين هو؟ تكلم. أنطق.

– هل أنت مرتاح في هذه البدلة؟

– بلى. ألا تبدو أنيقة؟ إنها آخر زي في عالم السفرجية. قد تبدو لك ضيقة من الخارج. ولكنها من الداخل واسعة. أتحرّك بحرية. أنظر. رفع الصينية في الهواء. أفلتها وتلقاها بيده اليسرى

– رأيت. إني أتحرك بحرية كبيرة في هذه البدلة. ثم أنظر إلى الفراشة. إنها تعطي إنطباعاً بالأناقة التامة. لا تنسَ. هذا بار على مستوى. يأتي إليه كبار الرجال. عاودت الإبتسامة. اقترب منه وهمس في أذنه.

– تأتي فتيات البلد مع كبار الرجال. ترى الشقراوات والبنيات. اللون الأسود ليس مفضلاً. إنه يذكّر الناس بالسخام.

كانت عضلات جفنيه تقاوم الإرتخاء. حاول أن يصغي للنادل. حاول ثانية. ستار يتسدل على عينيه. ظلمة. بوق يصيح معلناً بدء المشهد الثاني. مقهى الأسفلتي. كان علاء يجلس على كرسيه متربعاً. سرواله من الحرير الأزرق. عمامته تذكر بمهراجا هندي يبحث عن فيله الضائع. عمامته حمراء. عليها ريشة سوداء وخرزة بحجم بيضة حمام وبلونها أيضاً. كان يبدو عليه الإرتياح. يحتسي القهوة فارجاً أساريره. على الجهة الأخرى من الطاولة يجلس سيزي الكبير وقد شمّر عن ساعديه وبدت قرزات عضلاته واضحة. نحت ميخائيل أنجلو العظيم. من خلفهما بدت طاولات أخرى. جلس عليها العظماء. من يحتسي ومن يشرب. ولكن الكل يلبس العظمة على وجهه. حركات يده. هزات رأس ثقيل. حَوار. تهود وعجائز تلف على الطاولات. حَوار تلبس جلدها. جميلات فاتنات. حور عين. عيون تنهش بسوق اللّحم الطازج المعروض في مسالخ رجال المال والأعمال. الهيبة والوقار. النهش جزء. السماحة والطيبة جزء. عظماء العظم. نور فوق بنفسجي يملأ المكان.

– علاء. إلى أين ستبحر سفينتك هذه المرة؟

– رحلتنا هذه المرة رحلة خاصة. ستعبر بها جدار الزمان. بالإضافة إلى المكان الذي نعبره دائماً. كان الزهو يملئ فيه حتى بدا سيزي أنه يتقيأ زهواً.

– أيها الأنسي اليائس. لم ولن تعبر الحاجز. ولنفرض أنك عبرته فإن سفينة كالتي تملكها.

– إسمع يا سيزي. أنت وحضارتك لا تفقهون هذه الأمور. فهلا تركتها لأسياد الزمان والمكان. لأولئك الذين بنوا ورصوا صرحاً. ما زلت أنت وبنو ملتك تخترون منافعه إلى يومنا هذا.

– على كل. دعنا من هذا العقم. كل من يدعي عليه الإثبات. فأين إثباتك يا علاء اللطيف؟!

ـ أيها الوضعي صاحب الصخرة وعدو الجبال. رحلة كهذه في سفينتي ستنسيك الصخرة والجبل وحتى لون إفرازات ثدي أمك وجدّتك ذات الضفيرة الشقراء.. فما رأيك؟

ـ رحلة معك. في السفينة. رحلة في السفينة. أنغام الخوف والشوق. عدل سيزي جلسته ووضع يده اليمنى على ذقنه.

ـ ما هذا الجبن أيها العزيز.

ـ لكن قل لي ما دعاك إلى هذه الدعوة الجريئة؟ ما تغير فيك لتدخلني إلى المعقل الحصين؟ الكل يبني في مخيلته هذا المعقل دون أن يكون فيه. دون أن يراه.. لحظة أيها المحتال. انتصب واقف كنصف جبل.

ـ هدئ من روعك أيها الصديق. دعنا من سفينتي وتعال نصعد جبلك المهترئ: هل تحسبني أؤمن بوجوده. من رأى جبلك. من صعده. من زرع شجره؟ ثم ماذا عن الصخرة أيها اللطيف؟

التفت بعض الجالسين إلى الحوار وعلت أمارات الدهشة والتعجّب على بعضهم ثم عادوا إلى روتين الأشياء الأول. العظماء. العظم وما زال النور فوق بنفسجي.

ـ أيها النادل.. أيها النادل.

ـ نعم. لحظة من فضلك.

ـ لماذا تركتني أنام؟ لماذا؟ هل هذه هي الخدمة الممتازة؟ أطلب منك الصحو. زجاجة من الصحو. ومرة إنتعاش.

ـ حاضر يا سيدي.

ـ كفى. لا تقلها.. زجاجة من الصحو ومرة إنتعاش. هلا فهمت؟

ـ بلى. أيها الزبون اللطيف.

ـ عجّل. فإني أصارع النوم. عجّل.

النوم سلطان. السلطان نوم. انتعش سلطان النوم. نعش السلطان. انتعاش النعش. أخشاب. مسامير. قفل بلون ذهبي. رجال يحملون النعش. خلفهم نساء تنوح. نعش بلا قفل ذهبي. نعش بكفن أبيض. كفن أحمر. تابوت بلا غطاء. بلا كفن. جثة. جيفة. الحانوتي يعتاش من الموت. حانوتي الحياة. حياة الموت. موت الحياة. تمهل. تمهل. أين الآخر؟ أين الموت؟ سؤال. تركض الأفكار. تحاول الخواطر لمسها. تنبثق أحاسيس. تتولد. خوف: "لا. لا. لا أريد. دعني. أرجوك.." يمسك الستار المنسدل بيديه ويشدّه بأقصى ما يملك من عنفوان ويزيحه.

دفع الكرسي إلى الخلف وهرول باتجاه المراحيض. وضع رأسه تحت الحنفية وفتح الماء. سكَنَتْ. فرك وجهه. هرش رأسه. مسح رقبته. عدّل هندامه.

ـ تفضل.

ـ شكراً لك أيها النادل العزيز.. حقاً إنها خدمة ممتازة. الزجاجة كما يجب. المزة كما يجب وصحوتي ستكون بالمثل. هل تعرف إنني قررت. بعد أن تستتب صحوتي ويتجدد نشاطي سأحمل متاعي. أركب القطار إلى المدينة الثانية. أنا لم أغادر هذه المدينة أبداً. ولكن خيالي جال وصال في شتى أنحاء العالم وبالذات في المدينة الأخرى. يجوز أن تضحك.. ولكن هل لهم عيون مثلنا نحن. واسعة. بنية. عسلية. وطفرة

زرقاء وخضراء.. هل لهم أنوف مثلنا.. منها الدقيقة ومنها المسطح والحدوب الأملس والخشن. قل لي هل لهم هذه الأصابع الطويلة السمراء الترابية.. قل لي هل ينامون في الليل أم في النهار، أم هذه الأوقات تخصنا نحن وحدنا ويوجد لهم زمن آخر.. دعنا من الزمن.. أنا معني بالجسم.. بالجسد.. بالتكوين.. الشكل والجمال. نساؤنا الممتلئات، المكتنزات، السمراوات. ورجالنا الأقوياء السمر الأسود السود. رجال نساء أطفال شيوخ.. هل لديهم رجال ونساء وأطفال وشيوخ؟ هل يشيبون مع الكبر وتغزو التجاعيد والإلتواءات أطراف الجلد.. أراك صامتاً أيها النادل؟

– نعم أنا نادل أيها الزبون.. هل أعجبك المشروب؟

– ألا ترى الصحو يغزوني ويحرر لساني من عثرات تربعت عليه وأبت إلا أن تكون. نادلي العزيز.. من الآن فصاعداً سأدعوك نادلي العزيز.. هيّا بنا نبحر في العوالم الأخرى ونستكشف كنوزها وحطامها. أخضرها ويابسها.. كبيرها وصغيرها. ملكها وعبيدها وعذراءها وغانيتها.. كل هذه إنا وُجدت.. أو أشياء لم توجد ونعود نعود إلى كؤوسنا.. أو لا نعود نادلي العزيز.. من الأفضل ألا نعود. هل توجد عودة إلى الأجساد؟ أنظر إليّ. إلى جسدي. جسم. أنسجة مربوطة وغير متصلة. خدودي تحمر تصفر وتتورد أحياناً. يقولون ستزرق لابد. لا بد. هنا. أي لا بد يوجد؟ ترى جسدي، يُرى جسدي. كل يوم جسدي جسد آخر، وأنا أنا. يوماً كان صغيراً. ثم صار كبيراً.. والكبر أنواع. وأنا أنا هل كنت صغيراً؟ هل كان جسدك صغيراً.. يا نادلي العزيز؟ قف لا تجب. أنا أعرف. ولكن أنت هل تعرف؟ قبل يومين ضاجعت امرأة إجتاحني الشبق في البداية ثم خمد. حاولت ولكنه أبى. لم أعد أسيطر على جسدي. يبدو أنه آخر ما يسيطر عليه. ثم لماذا أسيطر عليه. إنه أنا.. إنه أنا.. والمرأة كانت جميلة.. جذابة تجيد الكلام والعلك الحديث الممتع. العلك أردتها وأرادتني. لا تكفي الإرادة نادلي العزيز. يوجد جسد. ملكة أخرى. هناك توجد مالك؟ إرادة؟.. لا شيء يقف أمام الإرادة. أنظر.. كل شيء يقف أمام الإرادة. أولهم الجسد. أنت تريد وهو لا يريد. لا يريد وهكذا لا يكون ما تريد.. تصارعه. تحاول ترويضه. يبقى هو وأنت تتقلب على جمرات الإرادة. لا يجوز قتله. إذا ذهب ذهبت أنت. والقتل يا نادلي هناك. كقتلنا؟ أشد أم أضعف وقعه على الأذن؟ هل ترى أذني اليمنى هذه؟ ما أذن الآخر نادلي؟.. يبدو أن حديثي ممل.

– أنا أصغي أيها الزبون.. بلى.. كلي آذان صاغية.

– لكن لماذا تصغي؟ لماذا تصغي وتسمع أذنك أصفقات زبون سكير يرى الزجاجة.. يشربها ويشطح في اللاشيء العدم.. فراغ سرمدي.

– أيها الزبون إن حديثك ممتع. أكمل. لا تتوقف.

– هذا جزء من الخدمة الممتازة. أغرب عن وجهي. إنصرف أيها المنافق البائس دعني.. إنصرف.

– لا تغضب أيها الزبون العزيز. آسف. المحترم. أنا جد مستمتع بالحديث معك.

صمت.. صفعته الكلمات. "أنا جد مستمتع بالحديث معك". ولكنه لا يتكلم إنه يصغي أنا مللت الحديث.. أشعر أني أتكلم. أتكلم لوحدي لي لنفسي لكياني لوجودي. ولكن هذا صدى لهذه وهذه إنعكاس لهذا. أين البداية؟

يا ترى في كل مكان وزمان توجد بدايات؟ دعنا من الزمن. دعنا منه. ثم ما علاقة المكان. لا مكان، ولا زمان. لا بداية. لا نهاية. لا وسط. لا قمة. لا سفح. لا حركة. لا سكون. لا شقاء لا بؤس. لا سعادة. لا حزن. لا أنا. لا آخر.

لا مجتمع. لا دولة. لا أمة. لا شعب. لا سيد لا عبد لا كآبة. لا طبقية. لا إسلام لا مسيحية. لا يهودية. لا أم. لا أخ لا أخت. لا جد لا جدّة لا سلالة. لا فكر. لا غريزة. لا حيوان. لا إنسان. لا الله. والآن عودة إلى البداية.

ـ نادلي العزيز. دعك. لا تكن منافقاً. يكفيني نفاقي مع نفسي فلا تزد.

ـ أيها الزبون. أنا أتكلم كما أشعر. أنا لا أنافق. حديثك ممتع.

ـ قف. أعد الكلمات.

ـ أنا أتكلم عمّا أشعر به. أنا لا أنافق.

ـ ماذا جرى لي نادلي العزيز؟ أين بدلتك؟ أين النادل؟ أين الخدمة الممتازة؟

ـ لم أقصد. أنا لا أتخلى عن النادل. أنا نادل. لكن تلعثم. سكنت عضلات اللسان. أعلى سقف الحلق يلتصق بأسفله. سعال. ثم آخر. ثالث. سعال. إشارة يد. ركض. هرول. كوب ماء. كوب عصير. ويسكي. الأسفل والأعلى. ملتصقان. عمل البذلة. سوى فراشة العنق. أنفك الأعلى من الأسفل

ـ تفضل أيها الزبون. ماذا تريد أن أحضر لك؟

ـ أتدري أيها النادل العزيز. لماذا الشجرة شجرة؟ لها ساق أفرع وجذور وأوراق وثمار. لون أخضر. لون بني. حتى أحمر. ظل. عالية قصيرة. يملكها شخص. قائمة في أرض. تحب الصحراء. تحب الجبل. السهل. للزينة. للثمر. عريانة في الخريف. متدثرة بالأوراق ربيعاً. تين. زيتون. نخيل. صفصاف. برتقال. برقوق. أرز. صنوبر. سرو.

ـ نعم. ولكن بماذا تريد أن أخدمك؟

ـ أنا لا أريد شيئاً. أنت لم تعد نادلاً.

ـ إذا أردت شيئاً ما. فلا تتردد وناداني. عفواً. وغاص بين أطياف الزبائن والدخان ورائحة الويسكي. رائحة عبير. مسك. "رائحة شَعرك تثيرني. تهب اللهب الشبقية. فتحرقني. إني أمرق. وأنت تتعطرين بالشهوة. ألديك شهوة؟ عطر امرأة. عرق امرأة. حديث امرأة. رجل. امرأة أخرى. رجل يحب رجلاً. يشتهيه. يموت. يُصلي. يحترق. إمرأة تحب امرأة. تشتهيها. تغازلها. تمارس معها أمتع لحظات الوجود. "نتشرف بدعوتكم لحضور زفاف الآنسة فاطمة على الآنسة زينب". فرّ هارباً إلى قلعته الحصينة. الحصان جامح. ثورة غرائز سخيفة. تكبيل الغرائز هو الحرية. الحرية. حياة الحرية. حرية الحياة. التحرر من عبودية النفس. تحرر النفس من الحرية. وهم التحرر من الأوهام. ركع صلى صام حج زكّى. أعمدة الأوهام. إيمان. أما إيمان فقد كبرت على المحبة وحب العطاء. أحبّت جسدها. عشقت ثناياه. ولعت بتكوراته. بجلده الرخامي. لعنته الخمرية. أحبت الناس وأحبوها. فأعطتهم جسدها لتستقي اللذة وتسقيها. زانية. أما الرجل فهو. إبن زانية. أمي زانية. لا. بلى لا. جدتي زانية. أختي زانية. إبنتي. حبيبتي. الأميرة. العذراء. الملكة. خديجة. آمنة. فاطمة. عائشة. مريم. سارة. ذبت فذابت. صمت فصاغت. وقفت فوقفت. نمت فصمتت. خرجت فجلست تنتظرني عند الباب. عدت. وما زالت تنتظرني عند الشباك. خلعت ملابسي. دخلت الحمام. أزلت بواقي إفرازات الساعات الماضية. اتجهت إلى السرير رفعتْ رجليها. رفعتْ رجليها إلى أعلى. أمكست بيدها. عضعضتْ شفتيها. أكلت لسانها. اغتصبتها. أدرت ظهري لها. حلمت حلماً جميلاً. ضاجعت فتاة في السابعة عشرة لم يلمسها

رجل. وفضلتني على كل الرجال. صباحاً أفقت. رفعت رجليها ثانية. ألصقتها بالفرشة. غاصت بالملاءة وغاصت أداتي في أحشائها. لمست مصرانها الغليظ. أفرغت حمولتي. قمتُ. فركت أسناني. خرجت أبحث عن بنت السابعة عشرة. الشمس ساطعة في ملكوتها. ترسل رماحها السنية. تمرغ الأرض وتنعشها. يطير العصفور من وكره. لا يجوز من عشه. يعود وبمنقاره دودة لطيفة يأكلها الصغار. صغار الدودة. أين هم؟

ـ لقد كان حلمي رمادياً هذه المرة. حتى زجاجتك لم تنفعني.

ـ رمادياً؟ لا أدري ما الرمادي أيها الزبون. زجاجاتنا ليست رمادية. إنها حمراء تميل إلى البني والأصفر. وبعضها أبيض. لا يوجد رمادي. لكن ألا تريد أن تقص لي قصة حلمك أم أنك يوسف وأنا لست أباك؟

ـ أرى أيها النادل أنك. للمرة الثانية. تخرج عن طورك لتعرف ولتشعر في فراغ ما بعد الزجاجة والكأس وخدمة الفراشة.. كلا. لست بحاجة لتعطيني التفسيرات. دعك.. حلمت أني مدعو إلى حفل زفاف فتاتين. فاطمة وزينب.

ـ وما الرمادي هنا؟ ما إسم العريسين؟

ـ هذا الرمادي.. أن لا عريسان هناك. فاطمة وزينب العريس والعروس.

ـ آه فهمت.

ـ ماذا فهمت؟

ـ مات العريسان. كان يجب أن يكون حفل زفاف ولكن لسبب ما مات العريسان. وأنت شعرت بكآبة وكان الحلم رمادياً.

ـ حلم رمادي. أي خليط من الأبيض والأسود. لم تكن هناك. في الحلم. ألوان الحياة. فاطمة تزوّجت من زينب. أنا كنت مدعوّاً إلى الحفل. لم أحضر الحفل. كنت مدعوّاً فقط. أصلاً لم يكن حفل.

ـ لا أفهم ما تقول.. يبدو لي.. لا أدري يتزوج رجل وامرأة ويكوّنان عائلة. العائلة عدا الزوج والزوجة مكوّنة من أولاد وبنات. أنت تقول أن امرأتين تزوجتا؛ فاطمة وزينب أم أن أحدهما رجل بإسم امرأة. كلا إمرأتان. أنثى وأنثى. أنا نادل. ذكر. صمت. هدوء. تراجع إلى وراء. لم يبتسم. دخل الرمادي إلى وجنتيه. تحسّس خديه. حاول أن يرجعهما إلى مكانتهما الأولى. لكن الرمادي طغى عليهما. خلع الفراشة وفك أزرار قميصه. أنزل جاكتته. أدار ظهره وعاد إلى البار بخطوات ليس لها إيقاع. تناول كأساً وبدأ بتلميعها ناظراً إلى الزبون السيد تارة برجاء. وأخرى بغضب على شفا بركان.

ـ أيها النادل. أيها النادل. صرخ بأعلى صوت.

تسمّر النادل في مكانه خلف البار ولم يخرج لتلبية النداء.

ـ أنت يا نادل.. أنت يا نادل.. تعال أريد كأساً أخرى للصحو.. لا حياة لمن تنادي. لا نداء للحياة. ألصق النادل قدميه بالأرض وأغلق حواسه. أو آغلقت حواسه. أو هي أغلقت نفسها وتمرّدت عليه. تناول كأساً أخرى. كانت يداه تشدّان أطراف الكأس أكثر وأكثر. كان التلميع يأتي من الشدّة. وكان التلميع يبعث على الشدة. في موجة غضب أغلق عينيه وانزلق إلى مملكة لا يعرفها. لم يكن بها من قبل. أخذت حواسه تتفتح وتستقبل بلهفة حيث يعث مرة أخرى لحياته الأولى. على يمينه رأى جدول ماء عذب يجري مهرولاً يريد

اللحاق بأمه. كانت الورود مائلة على جنبيها كأنها شبعت رغباتها واتكأت تتذوق متعة اللحظة الأبدية. الأشجار منحنية. خضراء مزركشة بشتى الألوان. عليها الأحجار الكريمة والماس. تجلس متربعة بنشوة. تغازل الأوراق وتقبل الأفرع مستميلة إلى الجذع. خطا إلى الأمام. رجلاً في الفضاء لا شيء تحتها. شدّ قدميه. ضرب هواء قدمه لم تتعدَّ مداها. لم يبال. مدّ يده يلمس الماس. فخرجت الشجرة من مكانها. كلما تقدمت إليه تبينت له معالمها البشرية. هذه يد. هذه ساق. تلك عين. لم يتقدم أكثر. ولكن أحنى جسمه إلى الأمام وتحسس الجذع. فإذا بجيد إمرأة يتكوّن بين يديه. جفل وارتدّ إلى الخلف. جسده يتثاقل. أحس برباط قوي يعصر أمعاءه. تحسس وسطه وإذا وسطه جذع. لمح الإخضرار يتقدّم من أصابعه إلى يديه وذراعه. استدار إلى الخلف. يريد أن يركض إلى الجدول. ولكن جذوره لم تقبل أن تنخلع. الماء أصبح قطعة زجاج تعكس النور. أحنى نصفه العلوي جاهداً أن يرى الماء. شجرة تتمايل مع النسيم يصورها الجدول الزجاجي. أصبح شجرة. التفت إلى الشجرة فإذا بها امرأة في مقتبل العمر تغدو واردة الجدول. خيّل إليه إنه يعرفها جيداً. رائحتها ليست غريبة. ملابسها تذكره بأشلاء من الذكريات. تمرّ بمخيلته دون أن تقف. يحاول أن يمسكها ولكن تهرب كالماء من بين الأصابع. دخل حفر الماضي. راكضاً بين جُحر وآخر. في أحدها وجد بلقيس ملكة سبأ. تجلس على عرشها. وكان اليمن سعيداً بسد سبأ. أخذ يقاوم نفسه يريد أن يخرج من الشجرة. حاول. ناضل. سدى. مرة أخرى. وكرّة ثالثة. يشد. يضغط. ضربات تنزل على وجهه وماء بارد يرطب رأسه.

ــ أيها النادل. أيها النادل.

ضغط بكل قوته وإذا بسائل أحمر يفور من بين يديه. لكمة حطّت على أنفه. فصاح متأوهاً. نظر إلى يديه فإذا الكأس قد كسرت ودخلت شظاياها أصابعه.

ــ ماذا جرى لك؟ سأله الزبون. ثم سحبه من يده المصابة إلى داخل المطبخ غسلها ولفها.

ــ إسمع. لا أظن أنك تستطيع الإستمرار بالعمل هذه الليلة. يجب أن تستريح وإلا.. إسمع. سأبدلك. سأكون أنا النادل وتجلس على طاولتي زبوناً. ما رأيك؟

لم يجب. تغلبت أو ما زالت الشجرية إحساسه الأساسي والأخير. أخذ الزبون الفراشة والجاكيت ولبسهما. ثم قاد النادل الزبون الجديد إلى الطاولة. أجلسه وصبّ له كأساً من النبيذ الأحمر.

ــ أيها النادل

ــ لحظة من فضلك. تفضل أيها السيد؟ ماذا تطلب؟

ــ كأساً أخرى من هذا الصنف الجيد. ثم دعك من هذا النفاق. لا تناديني بكلمة سيد.

ــ حاضر أيها السيد. واستدار النادل مع ابتسامته.

(الطيبة)

المقامة البرذونيّة

(مهداة إلى الأدباء الفلسطينيّين العائدين إلى الوطن.)

سلمان مصالحة

حدّثني أبو هلال المغاري عن بعض النّفر من السّلف الصّالح حينما دارت بنا الحال بعد مرور هذه السّنين الطّوال فاستهلّ حديثَهُ بالسّؤال، معلّلاً ذلك بحُسْنِ الاستهلال. قال:

أتدري ما الّذي جرى لصاحب الحمار حينما ضاع؟ ولم أفهم ما يرمي إليه ولا ما صدرَ من بين شفتيه. فدعوت اللّه أن يبسط رحمته عليّ وعليه. وقلت له يا رفيقَ دربي ويا مهجة نفسي وكبدي ويا ساكنَ قلبي: مَنْ منهما الّذي ضاع، أهو الحمار أم الصّاحب؟ فما بَدَرَتْ من رفيقي غير بسمة صفراويّة ونظر إليّ نظرة المُستغرب النّادب. ثمّ أضاف بصوت متهدّج ثاقب: أراجلٌ أنت أم راكب؟ ولم يكن هذا السّؤال إلاّ ليزيد الطّين بلّة، ويضع في نفسي علّة فَوق علّة. فكدتُ أفرَغُ من هذه الفصاحة وهممتُ بالخروج من مجلسه توًّا مُخليًا له السّاحة.

فما كان من أبي هلال إلاّ أن أمسك بطرف ثوبي، وربّت على كتفي وهدّأ من روعي وكربي. ثمّ اقتادني بلطف الأديب في زمن لم يبقَ فيه من هؤلاء في البلاد من عريب، إلى أن أوصلني إلى أريكة وثيرة، ليست بالكبيرة ولا بالصّغيرة. وقال لي: إجلس ولا تضع رجلاً على رجل . ثمّ إعقل وتوكّل. فما أن لفظ هذا الكلام حتّى انتابني القلق وتصبّب من صدغيّ العرق فكدتُ أرى النّجمَ يجري بالظّهر مع أنّ الوقتَ مساء. ولكن سرعان ما ركنت إلى السّكينة لأنّ الأصدقاء شركاء، ولا أشكّ في النّوايا الطّيّبات ولا بما تُمليه علينا الصّداقات. ولكنّي تعلّمت بعد هذه السّنين، وبعد أن رافقتُ المُسنّين، أنّ وراء الأكمة ما وراءها. فانتظرت قليلاً حتّى ذهب وغاب، واختفى وراء الباب وعاد محمّلاً بكلّ ما لذّ وطاب من الزّاد والشّراب.

قعدتُ في مجلسي وكتمتُ أنفسي إلى أن وضع على الطّاولة المُكسّرات والمُقشّرات، وأرفقها بالقناني المُكشّرات. بعضها قناني بيرة، وأخرى تنضحُ بالويسكي. وقد أسميتها مُكشّرات لأنّ الحاسي لها . وعلى الأقلّ للويسكي يكادُ من تذوّقها يبكي. فما يكاد يلمسها بنانه أو تذوقها شفتاه ولسانه حتّى يتبيّن بيانُه. أو يضمّ شفتيه بشدّة ويكتسي وجهه بالعبوس. وعلى رغم هذا وذاك يطيب معها الجلوس. ويلذّ في أكنافها السّمر. ولولا ذاك لما اختصرها نفر ولما اجتنبها بنو البشر. والاختصار من الخاصرة والاجتناب من الجانب. وهذا ما يفهمه كلّ أديب وكاتب.

وبعدَ أنْ جلسنا قطعةً منْ زمن، وتجاذبنا أحاديثَ ما أصاب هذه الأمّة من وهن. حدّثني أبو هلال عن الفرق بين الحياة في الغربة وبينها في الوطن. وكانَ يأتي بالحجج والبيّنات فتارةً يكونُ مع الحياة في ربوع البلاد وتارةً، أو قُلْ تارات، يُثني على العيش في غياهب الشتات ووراء بحارٍ من الظّلمات.

ولمّا أن بلغَ منّي الشّرابُ مَبلَغًا بعيدًا، وبعد أن أطفأت، بما قدّم لي، ألسنةَ من لهيب الجوع، وجدتُني في وضع لا أستطيعُ معه ولا أملك معه قيادةَ السيّارة في طريق الرّجوع إلى بيتي الواقع في أقاصي الحارة. فاستأذنتُه مُقتّرًا بالكلام، ودونَ أن أنبس ببنت شفة ولا ابن لسان. بل بالإيماء والإشارة. وهو كاللّبيب يفهم سرّ الكلام والقيافة، ويُدرك ما تمليه عليه الضّيافة . فقال بعد نظرةٍ من حنان: إبقَ هنا، ونم بين ظهرانينا، فلا شكّ أنّك منّا وفينا. وهكذا كان.

ولكن وقبلَ أنْ تنسلَّ من أطراف الحديث ذي الشّجون، وقبلَ أنْ تأخذ الرّموش بمصارعة العيون، أصررتُ عليه وألححتُ أن يُخبرني بما لديه من كنز مكنون. فلمّا رأى أن لا مخرجَ له من يديّ ولا انفلات، أخرجَ سيجارةً أخيرةً من علبة من العلبات المُزركشات، وقصّ عليّ ما هو آت:

حدّثني أبي، عن أبيه الّذي هو جدّي، عن شيخ ثقة يُعتدّ بكلامه في الدّيوان، قال: كان يا ما كان في سالف الدّهر والزّمان أنْ أفلتَ حمارٌ لأعرابيّ من الأعْراب من رباطه الّذي طالما شدّ عليه الوثاق. ولمّا استيقظ الأعرابيّ من نومه وأفاق، أدار بنظره ناحية اليمين وناحية الشّمال فلم يجد رفيق عُمره، ولا معينه على نوائب دهره. فما كانَ منه إلاّ أن أطلقَ للسّباب العنان، ولم يسلمْ من لسانه إنسٌ ولا جان. وبعد أن أفرغ ما في جعبته من سباب، دفعَ بعنفٍ من ورائه الباب وغاب في الصّحراء حتّى اختفى، أو قل اكتنفه بين ثناياه السّراب.

وبينا هو سائر هائمٌ على وجهه في الصّحراء يصلُ اللّيل بالنّهار بحثًا عن ذلك الحمار، إذ وقعَ نظره على أعرابيّة تضربُ رجليها في الرّمال، لا تلوي على شيء ولا تركنُ إلى فيء. فما كان من

صاحب الحمار إلاّ أن وقع بحبّها من النّظرة الأولى. والأعرابُ لهم في تلك الأحاديث والأقاصيص اليدُ الطّولى. ألم تسمع بقول الشّاعر:

نظرة فابتسامة فسلام فكلامٌ فموعدٌ فلقاء؟

ومنذ ذلك الأوان سار الأعراب على الطّريق، ولم يحيدوا. فطوتهمُ الصّحراء ولفّتهمُ البيدُ. حتّى بعدَ أن تغيّرت الأحوال وحُرّرت العبيدُ.

لكن، والكلامُ بالكلام يُذكَر، مضى صاحبنا في حالِ سبيله. واقتفى أثر الأعرابيّة ناسيًا متناسيًا الحمار. حتّى زالت الشّمسُ وقاربَ أن ينتهي النّهار. وبينا هو يغذّ السّير ويتفكّر في السّوانح والبوارح من الطّير، إذ شاهدَ من بعيد أنّه على وشكَ اللّحاق بها في روضة في البيد. تقدّمَ الأعرابي نحو الواحة، وألقى عليها السّلام والتّحيّة. ولم تُسعفه في ذلك الصّراحة. فعمد صاحبنا بعد هذا إلى الوقاحة حتّى مالت نفسها إليه وركنتْ، وتغيّرت نبرتها الّتي بها رطنتْ.

ولا يعرفُ القرّاء بعدُ أنّ الأعرابيّة كانت متنقبة بالنّقاب. ولا أنّها تعوّدت السّير في الشّعاب. والشّمسَ في الصّحراء كما ورد في المأثور، تحرقُ ذنبَ العصفور. لكنّ الأعرابيّة لم تلتفت إلى هذا اليباب والحرّ بل كلّ ما جال لديها في البال، كان أن تبعد ما تلعب به الفئران من شرٍّ مكنونٍ في عبّ الرّجال.

وبعدَ أخذ وعطاء واستلطاف ورجاء، وافقت الصبيّة أن تسفر عن وجهها. فأنزلت النّقاب، لكي تتجرّد أمام الأحباب. غير أنّ المنظرَ الّذي انجلى للأعرابيّ لم تقع عليه عين لا في شاشة ولا في كتاب. فكانت، سبحان الخالق، صبيّة شمطاء لم يُخلق مثلها في الأرض ولا في السّماء. أسنانُها مشتّكة، وأحناكها مُفكّكة. لها شلاطيفُ كالجمال، وشواربُ كالرّجال. فما أن رأى صاحبنا الّذي وقع فيه حتّى صاح من قحف رأسه، يا ويلي. وفي لحظة كالبرق، أو كرمش العين تذكّر أهله وذويه، وما عليه من دَيْن. فأطلقَ قوله الّذي سار في أنحاء المعمورة: ذكّرني فوك حمار أهلي. وقفلَ راجعًا يبحثُ عن حماره الّذي ضاع في الفيافي.

فهل يعتبر أصحابنا اليومَ بما جلبته وتجلبه عليهم المنافي

(القدس)

حفريات داخل البيت

عبد القادر الجنابي

"البيت هـــو المقرّ الدائم. تعيش فيه الحقيقة وتحيا.
فامكث إذن حيث أنت. تأتك جميع الأشياء في أوقاتها"
(طاغور)

إستطلاعات

من شرفة الطابق الخامس أجيلُ النظر في تقاطيع الشارع: عوام يستخرجون دفائنَ ما مضى. يطلّون بمخيلتهم إلى باحة المستقبل. سلالاً من الفاكهة المحرمة يبتغون.

من شرفة الطابق الخامس رؤوس العوام. بأفكار انقباضيّة الوقع مخضّبة. مزيجٌ من الخشية والرغبة يطوف فيها. العوام ها هم يصأصئون. أسمع صمتاً يفض مضاجعهم. من ثقب المفتاح. يسترقون النظر إلى سيدهم الذي تختمر به آمالهم.

الليل. هذا الفارس الأشقر. من شرفة الطابق الخامس. يزحف إلى الديار بعسكر من الظلمات. كفنٌ أسود يسقط على أرض العوام. فيموج بهم حيث تخلد بنات الليل إلى النوم.

العوام. من شرفة الطابق الخامس. أغنابتهم الحضارة.

83 Rue Nollet, 75017 Paris

افتُتحَ هذا الشارع الواقع في الدائرة 17 سنة 1824 تحت إسم سان لويز. استأجر الشاعر ألفريد دو فيني. في الرقم واحد. مُحترفا يواعد فيه سراً بنت عمّ زوجته ونساء أخريات. يعتبر نوليه من أول الشوارع التي لعبت دور الوسيط في الحملة الحكومية لضمّ القرى بمدينة باريس سنة 1860. وأطلق عليه هذا الإسم سنة 1864 نسبة إلى الفيزيائي الأب جان نوليه الذي كان معروفاً بتجاربه في تفريغ الأجسام المكهربة برؤوس المسامير. أقرب مترو إليه محطّة Brochant. يُظن أن الشاعر الافرو أمريكي لانغستون هيوز قد عاش فترة في رقم فردي لا أحد يعرف أياً. وأن ماكس جاكوب نزل في فندق غريب لم يعد له أثر. ما إن يقضي فيه وطره مع غلام. حتى يمضي أول الصباح إلى كنيسة مونمارتر ليكفّر عن ذنبه. أما بول فيرلين. فكان يعيش مع أمه. في الرقم عشرة. قبل أن ينتقل إلى

شارع ليكلوز المجاور رقم 28، عام 1865، ثم مع زوجته إلى شارع نيكوليت في مونمارتر حيث زاره رامبو. ومالارميه الذي كان ملتزقاً ببيته في فونتينيلو على ضفاف نهر السين، عاش من 1875 حتى وافاه الأجل، في شقته الباريسية الواقعة في الرقم 89 من شارع روما الذي هو ليس بعيداً بتاتاً. وأندريه بروتون الذي كان يمرّ ببيت مالارميه وهو ذاهب إلى مدرسة شابستال، عاش معظم حياته في الرقم 42 من شارع فونتين ليس بذلك البعد عن شارع نوليه، ولا هي مقبرة باتنيول التي يسكن ظلمتها الباردة إلى الأبد: فيرلين، ساندراس، بروتون وأنقى السورياليين: بنجاما بيريه.

هكذا في السابعة صباحاً من هذا النهار، قررت أن أتأمّل ـ من شرفة الطابق الخامس الذي أسكن منذ 1980 ـ العالم يميناً وشمالاً: ليس ثمّة شيء سوى نوافذ مغلقة وعدد ضئيل من العوام ينبثق من أسفل الشارع، وكأنّ عين بقرة فُقئت في مآخير الليل بمسامير ليس لها تدبيب.

I

الرواق ممر ضيّق، لسان طويل لم يعد دارجاً، يتوسطه ضوءٌ باهت، سجادة على الأرض، تتيه الأفكار فيه بكل سهولة.

II

المطبخ متران مربعان من صحون، ملاعق، سكاكين، توابل، وحساء مصنوع من لحم الأحلام. متران مربعان تقطعهما ثلاجة وفرن طبخ ما إن أفكر بكتابة قصيدة ضد الثياب المدبّجة، حتى يتلاطمه ماء المغسلة.

III

في غرفة النوم لوحة لفنان مجهول معلّقة في ناصفة الحائط غالباً ما ينكسر إطارُها المصنوع من قضبان الشجر، فيتململ الفراش في قلب السحائب ويتجدد كل شيء.

IV

هذا الصباح
استيقظت فعلاً في ساعة مبكرة:
شاعرة شمطاء تطفّلت،
ارتطامها بي أحدث جلبة
أفزعتني إلى السطوح السحيقة
حيث القمر ثقب مسيّج

في عين الأطفال
بزغب الذكرى ولجج الإفتضاض

V

باب الشقّة طلاؤه نبيذيّ اللون. أتفقده صباحاً إستفاء رسائلَ يُبردها المجهول. تحمل مفاتيح أستشفر بها نشاطي اليومي. سأضطر مثلاً للذهاب، بعد يومين، إلى محطة الشمال لاستقبال سورياليّة إنجليزيّة تريد قضاء عطلتها معنا. تحضّر مجموعة شعرية في وصف أشكال الرجال الذين تلتقيهم وتقارنها بأشكال المدن التي يسكنونها. لها عينان تعرّيان الصائل بحوزتها عُرياً ينتصب معه الجسد كما لو أنه برج سان جاك الذي كتب أندريه بروتون قصيدة بصدده مهداة إلى بيير ريفيردي. كانت محطّ مخاليل من شتّى الأشكال تحمل هذا العنوان: "عبّاد الشمس".

VI

أنا لا شكل لي. شكلي له ضرب من كل هذه الأشكال الطائشة في الأعماق. وهكذا هي الشيخوخة تختلس لحماً من التسيّب في الطرقات المأهولة بالزغب والمواد البيضاء.

VII

صالة الإستقبال فسحة للثقلثة مع الأصدقاء. يُوشوش فيها صف الكتب من رف إلى رف. أسفل المنضدة. على الكراسي. بين الوسائد. الأوراق. كتبٌ في كل مكان يفحش أمرها الغبار. تنتهرُ مكتوماتها موسيقى صاخبة بسائر الأشياء التي تخشع لها ولا نعرف لماذا. أشياء ترينا العدم حاملاً وسم الأولين. تنبّه في الروح توقاً إلى اللامتناه. تغيّرنا ولا ندري. نعثر بها ولا نراها. نناجيها ولا تسمعنا. لا تني أبداً تأخذنا إلى القاع. أشياء دقاق تدّفعنا إلى الفسق الفضيلة. تنخرُ فينا العظم وحجر مثوانا الأخير. حتى كأنّ الأرض حلقة خاتم فصّها مجرد أشياء!

VIII

لكن ثمّت. في القاموس. في قعر المكتوب. كانت ألفاظ تليدة. أوابد مقتطعة من جسد اللسان. تسبح عريانة بين كتل الطمي. رأيتها. في ليلة ذات ظلمة. تلتمع وكأنها حباحب في سحيق الهاوية. ألتمست غرّة منها. فصعدتُ ببعضها إلى الزورق. طفقت أنفض عنها غبار الإستعمال واضعاً إياها في قنان خاصة. وأنا أهجس في قراري: "سيكون لي نثر وكأنه مستمد من اليومي المألوف: نثر تحمل مفرداته أعهدَ المعاني". وما إن أطفأت النور. حتّى تذكّرت أن إبن جنّي كان ينتظرني في منعطف الطيف لتفسير إهمال ما أُهمل من تراكيب.

IX

النّور لونُه ناصل. يتغيّر وفقاً لأعصاب العين، حاسة الذوق أو لخيانة زوجيّة من أجل تحقيق رغبة ضالّة. فمثلاً عندما تذهب زوجتي إلى جنوب فرنسا، ويأتي دور بنت الجيران تلك، أنير الأحمر الملتهب وأطلي الحائط بدهان أزرق، فنعوم في أعماق أرجوانيّة حيث يُنفَق الأب. وعندما تعود زوجتي أضع المصابيح الصفراء، فيسود لون أخضر. "إنه رمز الإتزان الأخلاقي والشعراء الأذكياء". أهمس في أذنها مبرراً لها الدهان الأزرق الجديد، تاركاً الأسرار في سويداء النّور تغور.

X

ذا هو بيتي إذاً، حياة لها شرفة طويلة تنفذ منها العين نحو ما يمليه هذا الفضاء الفسيح الذي تسبح بضوئه سطوح الرصاص. من استنارات يحلّق بها النظر إزائي.

(باريس)

هوامش:

- المؤلف كاتب عراقي مغترب، يعيش في باريس، ومحرر مجلة "فراديس" المتميّزة.
- هذا النص مأخوذ من كتاب للمؤلف بعنوان "حياة ما بعد الياء" سيصدر قريباً مع مقدمة بقلم أنسي الحاج.

سبع سنوات في حيفا
إحسان عبّاس يتذكّر..

حاوره: **غسان اسماعيل عبد الخالق**



حينما كلّفني الزملاء في "مشارف" أن أعود بذاكرة الدكتور إحسان عبّاس إلى حيفا، حاولت التملص من هذه الصيغة واقترحت بدلاً من ذلك شكلاً من أشكال الكتابة، هو مزيج من الحوار والإنطباعات الشخصية والتعليق على أحد المؤلّفات. وذلك لأكثر من سبب؛ فقد سبق أن كُلفت بمحاورة الدكتور إحسان عبّاس والكتابة عنه غير مرّة، وكان يميل في الحوار إلى الإقتضاب بوجه عام، أما الطفولة فقد كان يقفز عنها مكتفياً بكلمات قليلة، لا تنقع غلّة ولا تشفي غليلاً ..وهكذا فقد وطّنت النفس على أن أكتب نصاً يتكون من حوار توقعته قصيراً وانطباعات شخصية جديدة بالإضافة إلى قراءة في كتابه (فصول حول الحياة الثقافية والعمرانية في فلسطين)، لولا أن تدفقاً مفاجئاً لم يكن في الحسبان، جعلني أضرب صفحاً عمّا كنت قد عزمت عليه. فاكتفيت بتسجيل سيال الذاكرة الذي لم أشأ أن أقطعه بسؤال أو تعليق، ثم لملمته وعرضته على الدكتور إحسان عبّاس فأقرّه. آملاً أن تتاح لي الفرصة للإفادة من هذه السيرة في عمل إبداعي يستلهمها.

الفلاّح والمدينة

يقول إحسان عبّاس:

..حينما بلغت التاسعة تقريباً، أقنع الأستاذ عبد الرحيم الكرمي، مدير مدرسة "عين غزال" الإبتدائية، والدي بإرسالي إلى (حيفا) لمتابعة دراستي.

وقد توجهت بصحبة والدي إلى (المدرسة الإسلامية التابعة للجمعية الإسلامية) حيث تمّ قبولي في الصف الثالث الإبتدائي، ومع أنني كنت قد اجتزت هذا الصف في مدرسة (عين غزال) إلاّ أن والدي ـ ومن ثمّ أنا ـ تقبّلنا الأمر ببساطة الفلاح الذي لا يجرؤ على المناقشة أو الاعتراض.

كان ذلك في عام 1930، قبل أن تشهد حيفا تلك الجموع البشرية التي تدفقت عليها قادمة من سهول حوران في جنوب سوريا وشمال الأردن، بالإضافة إلى أبناء القرى الفلسطينية، فور الشروع في بناء الميناء ثم مصفاة البترول. لاحقاً، أصبحت المدينة كبيرة جداً، والأسعار في غاية الارتفاع، حتى أن إيجار الغرفة الواحدة ـ ولا أقول الشقّة ـ بلغ خمسة عشر جنيهاً شهرياً، وبطبيعة الحال فأنا لم أكن أملك مليماً واحداً. ما وضعني في مأزق سيظل يطاردني طيلة السنوات السبع التي قضيتها في حيفا، ألا وهو العثور على مكان أوي إليه، خاصة أن المدارس الداخلية (مثل "المطران" و"السالبزيان") لم تكن في متناول أمثالي من الطلاب الفقراء.

لا أدري كيف أن والدي أقدم على إلحاقي بالمدرسة الإسلامية في حيفا دون أن يفكر في هذا الأمر؟! وعلى أية حال فقد بادر الأستاذ عبد الرحيم الكرمي إلى حل هذه المعضلة على نحو سحري، إذ أقنع أحد أقاربه الأثرياء ـ ويدعى أبا كمال ـ بإيوائي. وللحق فقد كانت السنة الأولى التي قضيتها في كنف هذه العائلة أشبه بحلم وردي جميل.

كان أبو كمال تاجراً كبيراً من تجار الأقمشة، وكان وزوجته على مستوى عالٍ من الرقيّ والتمدّن، وعاملاني كما لو كنت إبناً لهما، ولم تكن عواطف إبنيهما (كمال وحسن) بأقل من ذلك. صرت أتناول وجبات شهية ومغذية، واصطحب (صفرطاساً) خاصاً بالطعام إلى المدرسة، واستحمّ مرتين في الأسبوع. وحيث أن جسمي كان من الضآلة والنحافة والاصفرار بمكان، فقد كانت "أم كمال" تشجعني على تناول شراب زيت السمك، حتى تتحسّن صحتي ويزداد وزني قليلاً.

لم تمهلني الأقدار كثيراً، فقد فجعت عائلة أبي كمال بموت الإبن الأصغر (حسين) قبل نهاية العام الدراسي الأول، ولم تكن فجيعتي بأقل من هذه العائلة النبيلة. وعلى الرغم من أن أم كمال قد استمرت في الحنو عليّ إلاّ انني لم أحتمل فكرة حلولي مكان إبنها، وكونها ترى فيّ إبنها الصغير الراحل، فقررت الإبتعاد، وليتني لم أقرر ذلك.

لقد عدت بمحض إرادتي إلى الشارع، وأصبحت طفلاً قروياً هائماً على وجهه، لا مال ولا أهل. ولشدّ ما كنت أخاف من أن أمرض وأنا على تلك الحال. لم أعد أذكر عدد العائلات التي تقاذفتني

شهوراً أو أسابيع، وأحياناً، بضعة أيام. لقد صار تأمين المأوى شغلي الشاغل. فما أن أظفر بعائلة تؤويني حتى آفاجأ بتراجعها لأسباب معيشية أو تنصلاً من المسؤولية. كما صار "جامع الإستقلال" كعبتي التي أطوف حولها كل يوم، مفكراً في حالي، ومتطلعاً في وجوه الناس.

ظللت على هذه الحال إلى أن شملني الشيخ أحمد السعدي برعايته التي امتدت أربع سنوات (1934 ـ 1937). كان الشيخ أحمد السعدي يقطن حياً فقيراً (وادي الصليب) ويمتلك شخصية عجيبة وطريفة ما زالت محفورة في ذهني حتى الآن. ضعيف النظر أمياً ساذجاً. ومع ذلك فقد كان الناس يقصدونه لكي يكتب لهم (الحُجُب) ويصنع لهم الأدوية. وصار يكلّفني فيما بعد، بكتابة السور القرآنية القصيرة بأحرف متقطعة، حتى لا يتمكن مريدوه من قراءتها. فصرت أربأ بسور القرآن الكريم عن هذا الإمتهان، وأكتب بدلاً منها أغاني "الدلعونا والعتابا" مقطّعة، إضافة إلى الحروف الإنجليزية.

لقد مشّعَت هذه الشخصية، في سن مبكرة، سلطة الخرافة والشعوذة من عقلي، وجعلتني كثير الشك، مما أفادني على صعيد البحث العلمي، في مراحل تالية من حياتي.

سنة أولى

ويضيف إحسان عبّاس

كانت غالبية معلّمي المدرسة الإسلامية من الشام أذكر منهم الشيخ كامل القصّاب، الذي قدم من سوريا هرباً من الفرنسيين، كما أذكر ابنه الشيخ أبا الحسن، الذي كان يدرّس القرآن الكريم والشيخ رضا، المسؤول عن (الفلقة) والشيخ منذر الذي كان يدرس الجبر للصف الثالث إبتدائي على أنه حساب، والأستاذ حسين حماد الذي كان يدرّس العربية والجغرافيا.

وإن كنت أنسى، فلن أنسى الأستاذ جميل عبد النور الذي لم يكن يدرّستي، فقد ابتاع هذا المعلم كتاب "أساس الإقتباس" على نفقته الخاصة (بقرش) ليقدّمه جائزة إلى الطالب الذي يقع عليه اختيار المدرسة، فقدّم لي كأول جائزة أنالها في حياتي وقد هالني أن ألتقيه بعد سنوات هائماً على وجهه في طرقات حيفا، يحمل حجرين ويطرق كل منهما بالآخر والأطفال يطاردونه. وما زلت أذكر احمرار بشرته ونحوله وأذكر أيضاً ذلك الخوف والقلق الذي لفّني وأنا أرى بأم عيني المصير الفاجع الذي آل إليه شخص أحلم بأن أكون مثله في يوم من الأيام.

وربّما توجّب عليّ القول ـ إنصافاً لمدارس الزمن الماضي ـ إنني طيلة السنوات السبع التي قضيتها في حيفا لم أشهد في المدارس الثلاث (الإسلامية وحيفا وعكا) لم أشهد إلا عقوبتين كنت ضحية إحداهما.

فقد صفعني أحد الأساتذة في أثناء الطابور الدراسي في الصف السابع، ظنّاً منه بأنني كنت أثرثر، ولم أبادر للدفاع عن نفسي، لأنني كنت متيقناً من أن السكوت في مثل هذه المواقف هو من

ذهب.

وقد صفع الأستاذ إميل الخوري، معلم الجغرافيا العتيد، زميلاً لي، صفعة دحرجته من أقصى الحجرة إلى أقصاها، بناءً على شكوى مني مفادها: أن هذا الزميل حمّلني رسالة إلى الشيخ السعدي ـ ولم يكن يعلم أنه أميّ ـ فدفعت بها إلى الشيخ السعدي الذي كلّفني بقراءتها. فلما أخذت بقراءتها، فوجئت بأن الزميل كتبها كي يحرّض الشيخ السعدي عليّ، وقد كاد الشيخ السعدي يصدّق ما جاء في الرسالة، لولا أنني طلبت منه أن يستفسر عن أوضاعي في المدرسة بنفسه كي يتأكد. ثم أنني رددت على الزميل برسالة شحنتها بكل ما أحفظ من شعر في الهجاء والتعريض وأعطيت الرسالة للأستاذ إميل الخوري، الذي اكتفى بنهري ولكنه أصرّ على معاقبة الزميل بشدّة. والطريف في الأمر أن هذا الزميل فعل ما فعل لأنني لم أحسن الاستماع لقصصه واختلاقاته العجيبة. فقد حدّثنا يوماً بأنه وضع صبياً في كيس وحمله على ظهره وقصد السوق، فراح يشاغل البائعين بالكلام، بينما كان الصبي يختطف الحلوى ويضعها في الكيس، حتى امتلأ!!

دراسة وسياسة

في أثناء دراستي في مدرسة حيفا الحكومية خرجت في مظاهرات بمناسبة وعد بلفور، حيث كانت المدارس تعطل وكنّا نهتف:

يعيش/ سيف الدين/ الحاج أمين/ ـ

وسرنا مرة حتى وصلنا إلى منزل رشيد الحاج ابراهيم، أحد زعماء حيفا، فخرج وباركنا قائلاً: "سيروا علي.. ما قدّر الله"..

سنتي الأولى في حيفا، لم تخلُ من احتكاك باليهود لأول مرة، فقد اجتمع حولي وزميل آخر يدعى فائق طه ثلّة من الأولاد اليهود يتراوح عددهم بين (9 ـ 11) ولداً، وراحوا يتحرشون بنا، فناولني فائق كتبه ـ وكان أكبر منّي عمراً وذا حجم ضخم ـ وراح يطاردهم حتى ولّوا الأدبار، بعد ذلك. وحينما انتقلت إلى مدرسة حيفا الحكومية، صرت أرى اليهود باستمرار، وفي إحدى المرات سألني أحدهم ـ وكان رئيس العمّال ـ عمّا إذا كنت (يُعْرِفْ عَرَبي) فلمّا أجبته بالإيجاب، طلب منّي أن أكتب على يافطة كانت معه الكلمتين التاليتين: (الطَريق مسَكَّرْ) وقد كتبتهما حرفياً كما طلب. كما صرت أقرأ من آن لآخر عن (الهجرة اليهودية غير المشروعة) في صحيفة "الدفاع" (وكان رئيسها ابراهيم الشنطي) و"فلسطين" (وكان رئيسها عيسى العيسى). ولن أنسى ما حييت ذلك الذهول الذي حطّ عليّ حينما رأيت صورة الشيخ عز الدين القسّام في أثناء الثورة، وقد نشرت على أنه الشهيد قائد الثوار، إذ إنني كنت أصلي في "جامع الإستقلال" وأستمع إلى خطبه التقليدية المكرورة!! ويبدو لي أنه كان يتعمد ذلك حتى لا يسترعي الإنتباه لنفسه.

صورة لحيفا

كانت حيفا ـ كما سبق أن قلت ـ مدينة كبيرة، مترامية، حيّة، كلها أدراج، تبدأ بـ "الهدار" ثم تأخذ في الانحدار مروراً بوادي النسناس حيث كان يسكن العرب، فحيفا الشرقية التي كانت تشمل وادي الصليب وأحياءً أخرى يقطنها مزيج من القرويين، فحيفا القديمة، ذات البيوت الراقية القديمة. ورغم هذا الترامي بين أطرافها فقد كنت أقطع المدينة من أقصاها إلى أقصاها، سيراً على الأقدام، صعوداً أو نزولاً، ولا أذكر أنني ركبت حافلة أو سيارة.

ولطالما استهوتني منطقة "جامع الإستقلال"، المَعْلَم الأكبر في مدينة حيفا الشرقية، حيث مقابر المسلمين، وبسطات الكتب المعروفة للبيع. كنت أتصفح بعينيّ أغلفة هذه الكتب التي لم أكن أملك ثمن أي منها، وأذكر أنني دفعت لاحقاً مبلغ قرشين ثمناً لطبعة بيروتية لديوان ذي الرمّة الذي ظللت أقرأ فيه مدة ولا أفهم ما أقرأ.

أمر آخر جعلني أحب هذه المنطقة أكثر من غيرها، إنه الإحتفال بذكرى المولد النبوي، حيث كانت كل قرية تمثّل بحلقة دبكة، وقد سعدت كثيراً في سنتي الدراسية الأولى، لأن قريتي (عين غزال) كانت ممثلة بحلقة دبكة، فوقفت طويلاً أتفرج.

لم يكن ثمة زي مميز لسكان حيفا في الفترة التي سكنتها فيها (1930 ـ 1937) بل كان كل يلبس على هواه، وأذكر أنني ارتديت مرة القمباز وتوجهت إلى المدرسة، فصادفني في المدرسة الشيخ تقي الدين النبهاني، مؤسس "حزب التحرير" فيما بعد، فلم يحبذ ذلك، لأنه يجعلني مختلفاً بين جموع الطلاب الذين كانوا يرتدون البنطال القصير. أما المرأة فقد كانت منقّبة على العموم.

وربما لأنني كنت صغير السن وقروياً خجولاً، فإنني لم أعر اهتماماً للفتيات، ولم أخض تجربة عاطفية تذكر، على الرغم من أن مدرسة البنات الإنجليزية، كانت قريبة من مدرسة حيفا الحكومية، ما أسمعه يدور بين الطلاب الأكبر سناً وأشك في صحته، بخصوص بعض الفتيات.

لم يكن ثمة مسارح في حيفا أو دور سينما (كان ثمة سينما تدعى "عين دور" لليهود) ولم يكن ثمة قاعات للمحاضرات أيضاً. المكان الوحيد الذي كان يصلح للتنزه هو ضريح "عباس أفندي"، أحد أقطاب البهائيين، فقد كانت أزهاره مشذبة بطريقة هندسية صارمة، وكنت أقضي الكثير من الوقت في هذا المكان وأنا أدرس!! ومن آن لآخر كان ثمّة بعض المباريات التي تقام بين فريقين عربيين أو بين فريق عربي وآخر يهودي، حيث كان بوسعك أن تسمع هتافات مثل (كاديما هبوعيل: أي تقدّموا).

وعلى ذكر المسرح فقد قمت بإعادة تمثيل المسرحية التي عرضت في المدرسة الإسلامية (في أثناء السنة الأولى) في قريتي، حيث وزّعت الأدوار على شباب القرية بدقة، ومن الطريف أن المسرحية كانت تتناول على نحو ساخر حياة الطلاب في ظلّ الطريقة التقليدية في التعليم ـ الكتاتيب.

وربما كان من المفيد الإشارة إلى أن والدي غامر بافتتاح دكان في حيفا لمدة ستة أشهر فقط، وفرّت لي فرصة ذهبية للجلوس في الدكان وتأمل الأمواج البشرية التي كانت تكتظ بها حيفا، ولطالما شدّتني رؤية بعض النماذج مثل الصوفي الأنيق، أو العجوز التي لم تكن تتوقف عن ترداد: إسْتَقْلت القدس، ثم تروح تردد أغاني نوح إبراهيم مثل:

دبّرها يا مستر دلْ
يمكن على يدّك بِتْحِلْ

إميل حبيبي.. وأنا

في سنة 1936 ، في أثناء الثورة والإضراب، توثقت علاقتي بإميل حبيبي، الذي زاملته منذ عام 1930، وقد زرته مرة في بيته وأنا أرتدي قمبازاً. كان إميل ينتمي إلى عائلة موسرة، ويقطن فيلا فخمة تقع على طريق الكرمل وقريبة من المدرسة الثانوية في حيفا. وقد اعتدنا في السنة الأخيرة (1937) أن نستقل القطار من حيفا إلى عكا، ذهاباً وإياباً، حيث كنّا نواصل دراستنا في مدرسة عكا الثانوية. كان إميل يسعفنا كثيراً بحل المسائل الهندسية والحسابية، وكنت أنا ألقي بعض الخطب. وفي الواقع، كنت قد أصبحت معروفاً في مدرسة عكا، لأنني قمت بترجمة مقطوعة إنجليزية، ترجمة سكبت فيها المعنى الحرفي في قوالب إيقاعية فطار مدير المدرسة ومعلم الإنجليزية في آن (شريف النشاشيبي) فرحاً بي وسروراً مني، مما أكسبني إمتيازاً أسهم في إنقاذي من سوء فهم بالغ ملخصه: أن فتاة في مثل سننا كانت تستقل القطار يومياً وتجلس وحيدة في حجرة بجانبنا. وقد فوجئت في أحد الأيام برسالة وصلتني عن طريق المدرسة، تمتلئ بالتهديد والوعيد ومذيّلة برسوم مسدسات وخناجر، وموقعة بإسم علي يوسف الذي تبيّن أنه يطمح إلى استرعاء إنتباه الفتاة ـ التي لا أعرف حتى إسمها ـ ويعتقد أنني أحبها، فظللت مكدّر البال مهموماً. ويبدو أنه أرسل رسالة إلى مدرسة الفتاة يُخبر المديرة فيها بأنني أحب الفتاة، فما كان من المديرة إلاّ أنها هاتفت المدير الذي استدعاني إلى حجرته، فدخلت على وجل وقد أبصرت رجلين: واحد كبير في السن ربعة وقور، وآخر شاب ضخم متحفز، فبادر الأستاذ شريف النشاشيبي إلى القول: ها.. ا.. ا.. ذ.. ا هو إحسان عبّاس (ففهمت من نبرة صوته أنهما كانا يتوقعان شخصاً آخر ضخماً تبدو الشقاوة على سيماه) ففوجئا بفتى نحيل خجول. فسارع الرجل الكبير في السن إلى محادثتي بلطف، ثم صرفني المدير دون أن يعلّق بكلمة. وقد لحق بي بعد ذلك علي يوسف، مرّة، لكي يعتذر عمّا بدر منه، فقلت له: عليك أن تعتذر للفتاة التي تسببت في انقطاعها عن الدراسة لأنها لم تستقل القطار بعد ذلك!!

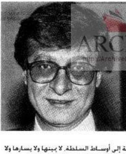
وقد ضمّن إميل حبيبي هذه الحكاية ـ فيما بعد ـ روايته "المتشائل".

(عمان/ الأردن)

محمود درويش، أن تكون شاعراً ليس بالشيء الكبير

داليه رابيكوفيتش (*)

(هذا المقال نُشر في "شيشي" ـ ملحق ثقافي تصدره صحيفة "غلوبس" الإقتصادية الإسرائيلية ـ (العدد 96، 1995/11/3)



في شتاء ما قبل ثماني سنوات، دُعيت سوية مع عشرين كاتباً إلى لقاء مع رئيس الحكومة آنذاك، يتسحاق شمير في منزله. وإن كانت ثمة حاجة للتذكير فقد كان يتسحاق شمير منبوذاً بنظر جزء من أهل الإبداع، لا يتحدثون معه، يرفضون الحصول على جوائز ومنح من الحكومة. غرباء في بلادنا.

لم تكن لي شخصياً، أية تخبطات قبل اللقاء، وذلك لأسباب ثلاثة: الأول، دعوة رئيس حكومة إسرائيل لا يمكن رفضها. الثاني، إن من يعارض رئيس الحكومة بشدّة، يفضّل أن يتعرف على خصمه. والثالث، كان لي طلب خاص لم أستطع توجيهه من قبل، لأنني غير مقرّبة إلى أوساط السلطة، لا يمينها ولا يسارها ولا وسطها. أردت أن أطلب تصريحاً لمحمود درويش لزيارة البلاد، زيارة قصيرة وخاصة بعيداً عن الإعلام.

شولميت ويتسحاق شمير كانا مضيفين دافئين وسخيين. وبعد أن فرغت السيدة شمير من إطعامنا وإسقائنا، بكل سخاء، اعتزلت المجلس. يتسحاق شمير قال لنا بصراحة أنه لا يقرأ الأدب لضيق الوقت. ومع ذلك، فقد أصغى بأناة وسماحة لكل المتحدثين الذين بلغ عددهم كعدد المدعوين (وكان العدد كبيراً).

في نهاية اللقاء، وعند ارتداء المعاطف، طلبت من "ياكيم روبنشطاين، سكرتير الحكومة آنذاك، ممارسة تأثيره لإصدار تصريح بالزيارة لمحمود درويش.

كل هذا حدث قبل نشر قصيدة محمود درويش، التي جرى تفسيرها وكأنها "عملية تخريبية معادية" والتي جرى إقتباسها وإستغلالها في الكنيست دليلاً قاطعاً على أن العرب يريدون رمينا في البحر، حقاً.[1] واتضح أنه حين تكون هنالك إمكانية لتحقيق مكسب سياسي، فإن رئيس الحكومة يقرأ الشعر، ويتمعن!

حقاً، لقد مُنع محمود درويش من زيارة عائلته في إسرائيل، حتى قبل الطوفان وقبل الإعلان عنه عدواً ومخرباً، وكان مجرد بحث إمكانية السماح له بذلك مشروطاً بأن يخرج من "فتح" وأن يشجب الإرهاب.

محمود درويش لم يكن عضواً في "فتح" وقد أعلن أنه يعارض الإرهاب، لكن لم يُسمح له أيضاً بالحضور، في وقت لاحق، للمشاركة في تشييع جثمان والده. لماذا؟ لا أريد التفكير بأن طرفاً سرياً وحاذقاً قد صدّق بأنه إذا ما ضغط على درويش كفاية، فسيكون بالإمكان مخاطبته، مثلما يُخاطَب عامل مُكابد في حاجز "إيرز": "إن كنت تريد أن نساعدك، فعليك أن تساعدنا". الطغيان يكون، أحياناً، غير محتّك مثل مخلوق أحادي الخلية.

للتدليل على سيرورة الأحداث، يجدر التذكير بأن محمود درويش قد استقرّ في باريس بعد أن رميناه نحن في البحر من مكان سكناه في بيروت الغربية، إبان حرب لبنان، سويةً مع عرفات وقيادة م.ت.ف. شعب إسرائيل لا يزال، حتى الآن، يعيش بأمان نسبي في دولته، يشتري السيارات الفاخرة ويشيد العمارات الشاهقة التي تطاول رؤوسها السماء.

ومن يبتغي معرفة نزر يسير عمّا حدث في بيروت الغربية، خلال محاصرة الجيش الإسرائيلي للمدنية، يستطيع العثور على ذلك في كتاب محمود درويش الذي تُرجم إلى العبرية: "ذاكرة للنسيان". فمن لم يقرأ الكتاب، أو من نسي تلك الفترة، يكفي تذكيره بأن تل أبيب في أيام صواريخ "سكاد"[2] كانت أشبه بقرية سويسرية وادعة بالمقارنة مع بيروت في الفترة المُشار إليها آنفاً.

محمود درويش لا يزال يسكن في باريس ومجموعته الأخيرة صدرت قبل سبعة أشهر، شهرته تطبق من أقصى العالم العربي إلى أقصاه، من المحيط الأطلسي إلى باكستان، لكنه لا يزال بلا هوية. وفي هذه الأثناء، استجدّت عملية السلام، عرفات ورابين قد تصادقا، تقريباً (أنظر الحفل الأخير في أحد أيام الخميس في البيت الأبيض) ليئه وسهى[3] والملكة نور كأنهن بنات أعمام في مراسيم ختان والملك حسين يتنافس على الشعبية ليس مع حميتسر[4] فحسب، بل ومع دودو طوباز[5] أيضاً.

ورغم ذلك، فقد باءت بالفشل كل المحاولات التي بذلها بعض أعضاء الكنيست وأصدقاء آخرون لإستصدار تأشيرة سائح لمحمود درويش، يقولون إن المخابرات تعارض، ومن مثل أجهزة المخابرات خبير

بالأدب المقارن ويدرك مقصد الشاعر. كنّا نود أن نصدّق طوال سنين عديدة أن حركة "العمل"، التي أنجبت حزب "العمل"، قريبة إلى الأدب والفن بينما اليمين، الذي أنجب "حيروت" التي أنجبت حزب "الليكود"، هو رعاع جاهل.

لكن التجربة تعلّمنا أنه لا فرق كبيراً بين الإثنين في المستوى العملي. ثمة شعراء ممتازون ومثقفون في اليمين أيضاً، لكن كل نخبة سلطوية في إسرائيل تواصل الإيمان بالمقولة التي أوجدها يوسف الموغي وهي أن المثقفين هم نصف معبرة[6]، أو بلغتنا اليوم: نصف حي من الكرافانات. وإذا كان ثمة مثقفون تُسمع أصواتهم لدى أصحاب القرار فإنما ذلك بفضل مؤهلاتهم الإجتماعية، لا الفنية.

وما دام هنالك شعراء إسرائيليون من يكتبون بكل اللغات، بما فيها العبرية، يُعتبرون كرمل الشوارع. فبإمكان محمود درويش مواصلة الإقامة وتمضية الشتاء المقبل في باريس دونما إزعاج. فلو كان الحديث يدور عن مليونير سعودي، لكان إيتان هابر[7]، بجلاله، يدأب على تنظيم جولة له مع مرشد في ديزنغوف[8].

إن حقيقة كون محمود درويش، مثل اليهود من أصل مغربي، يحنّ إلى مسقط رأسه ويبغي زيارة جذوره، لا تغير شيئاً لدى رئيس الحكومة ولا تثير لديه أي اهتمام. إذ من هو الشخص المعني؟ ولا حاجة للتوصل معه إلى أية إتفاقات.

تلخيص مرحلي: لمحمود درويش أصدقاء يهود وعرب بين الأدباء في إسرائيل، ولدى جميعنا أقلام للكتابة وأوتار صوتية، ولربما ننجح، أخيراً، باختراق جبهة الرفض هذه.

(ترجمة: سليم سلامة)

- داليه رابيكوفيتش ـ أهم شاعرة عبرية معاصرة.

هوامش المترجم:

(1) الإشارة إلى قصيدة محمود درويش "عابرون في كلام عابر".
(2) الإشارة إلى صواريخ "سكاد" التي أطلقها العراق على تل أبيب إبان حرب الخليج الثانية 1991.
(3) ليئه رابين وسهى عرفات.
(4) دان حميتسر ـ صاحب زاوية إذاعية في راديو إسرائيل يعد الألغاز والأحاجي، وتحظى زاويته برواج عالٍ وشعبية واسعة نظراً للجوائز المالية الكبيرة التي توزّع فيها على من يفلح في حل اللغز أو الأحجية.
(5) دودو طوباز ـ من نجوم البرامج الترفيهية في إسرائيل، ويحظى برنامجه التلفزيوني بأعلى نسبة شعبية بين المشاهدين ـ حسب إستطلاعات الرأي المتخصصة.
(6) معبرة (ج: معابرا) ـ هي المساكن المؤقتة من الخشب والخيمات التي أقيمت في إسرائيل في السنين الأولى من قيام الدولة لإسكان المهاجرين اليهود.
(7) إيتان هابر ـ مدير مكتب رئيس حكومة إسرائيل السابق يتسحاق رابين.
(8) أحد الشوارع الرئيسة في مدينة تل أبيب.

الترجمة بين الخطاب الثقافي والخطاب المخابراتي.. (*)

سلمان ناطور

"قُيّض لي" ـ هي ترجمة الجملة العبرية "نافال بحلكي" ـ "נפל בחלקי". وفي اللغتين تعنيان "حالفني الحظ". وقد لاحظت في خلال سنوات طويلة من الإشتغال باللغتين أننا نكثر من إستعمال هذه الجملة. ففي كل واحد منّا رغبة جامحة لأن يكون الأول الذي قُيّض له. ربما أن هذا هو شكل من "الطلائعية" اللاواعية التي تغلغلت في أذهاننا من الأدب الذي كتب عن "الطلائعيين". أولئك الذين جففوا المستنقعات وزرعوا أشجار الكيناء وحرثوا الأرض. وأولئك المحتلين الأوائل والمهجّرين الأوائل. وإذا كان هناك إصطلاح يعبّر عن الأسرلة والفلسطنة بصفتهما مجتمعين في مرحلة التبلور فهو هذا الـ "نافال بحلكي" ـ "נפל בחלקי" و"قُيّض لي".

قُيّض لي أن أترجم يشعياهو ليبوفيتش إلى اللغة العربية. مثلما قُيّض لي ترجمة "الزمن الأصفر" لدافيد جروسمان و"السيد ماني" لـ أ.ب. يهوشواع وقصائد لنتان زاخ وداليه رابيكوفيتش وأريبه سيفان وقصص لعاموس عوز وبنيامين تموز ويتسحاق لاؤور. وفي كل مرة انشغلت بترجمة نص عبري كان يشغلني السؤال: كيف سأنجح بنقل المشاعر والشحنات العاطفية التي تحملها الكلمات. فالكلمات الأدبية ليست تشكيلة من الأحرف. إنها تعبق برائحة ولها طعم ولون وفي الترجمة يمكن إستبدال الأحرف. لكن يجب الإبقاء على الرائحة والطعم واللون.

هكذا يبدأ الخطاب الثقافي في عملية الترجمة من العبرية إلى العربية. لأنك بواسطة الترجمة تريد أن تقول أشياء تتجاوز النص. أنت تحاور الكاتب ولغته ولغتك وكذلك قرّاءه وقرّاءك وتحاول تفكيك علبة سوداء تحتوي على خبايا الكاتب العبري الأخلاقية والثقافية والعاطفية. وخبايا المجتمع الذي يعيش فيه.

في حالة الحرب والصراعات القومية إن من يقوم بعملية الترجمات المتبادلة. في معظم الأحيان. هم أجهزة المخابرات والقوات المسلحة. وعندها يمنحونها صفة مدنية توضع تحت شعار "إعرف عدوّك". واليوم. حيث نشهد عملية "تحويل العدو إلى صديق" حذار أن نترجم تحت شعار "إعرف صديقك".

في الخطاب المخابراتي للترجمة يبحث الإسرائيليون في النص العربي عن الكلمات الملطّخة بالدم حتى

أنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك وسلّموا عملية الترجمة لضباط الجيش والمخابرات لنقل ما كتبه شعراء فلسطينيون فصوّر أحدهم فدوى طوقان من آكلة لحوم البشر ويحلو لها إلتهام كبد إنسان. ومحمود درويش يحمل مكنسة ويدفع باليهود وأحلامهم نحو البحر. ولم يأبهوا للآفتة الصغيرة التي علقها كاتب فلسطيني على باب غرفته: "خليل السكاكيني. إنسان إن شاء الله".

وفي الخطاب المخابراتي للترجمة. بحثنا نحن الفلسطينيين عن الكلمات العبرية المشبعة بالحقد. بحثنا في كتابات شموئيل يوسف عجنون عن العربي المتخلّف والبدائي. وفي قصص "حساميا" ليغئال موسينزون وجدنا مبحثنا المخابراتي. ولم نحب "الخواجه موسى" لموشي سميلانسكي إلى أن جاء نتان زاخ وقدم لليهود والعرب درساً في الحساب "عن الرغبة في التدقيق" والتدقيق في عدّ الجثث الممدّدة في صبرا وشاتيلا.

الخطاب المخابراتي يسحق الإنسان ويفقده قيمته. كما يسحق المبدع والإبداع. وعلى هامش الثقافة أو في النص اللاثقافي ينشأ ويكبر "الستريوتيب" الذي لا يؤدي دوراً بشعاً وحسب بل يأتي لإعالة باحثين أكاديميين في دراسة "شخصية العربي في الأدب العبري" و"شخصية اليهودي في الأدب العربي" بحيث أن إستنتاجاتهم تسبق أبحاثهم. ولا يهم إن كانت سلبية أو إيجابية.

الترجمة المخابراتية هي عدو الثقافة والإبداع والأدب الساخر والضحك. إنها تمسخ النص وتجعل من الحنين إلى الوطن "عبوة ناسفة" ومن الحلم "غرضاً مشبوهاً" ومن الحرية "قنبلة مفخخة" لأن هذا هو هدفها وهي تعمل في خدمة الحرب والثورة والإحتلال. ومثلما هي هكذا في حالة الحرب. فهكذا تكون في حالة السلام. أرجو ألاّ نترجم تحت شعار: إعرف صديقك أو جارك أو حبيبك الجديد.

في السنوات الأخيرة يحلو لنا أن نستعمل كلمات مثل الأدب في خدمة السلام. الأطفال والسلام والترجمة من أجل السلام. كأن هذا السلام الذي سيتحقق بإذن الله. قائم فقط على الترجمة وخلق شخصيات إيجابية عن الآخر. إن هذه هي أيضاً عملية مخابراتية سياسية تتجاوز الخطاب الثقافي وتقهره وتفسح مجالاً واسعاً لإنتشار الثقافة السطحية والهامشية. بواسطة فناني وكتّاب بلاط ملوك ورؤساء وحكومات الشعبين. هؤلاء الفنانين سوف يحظون باهتمام ليس لقيمة إبداعهم وإنما لشعاراتهم المبتذلة عن السلم والتعايش.

هذا الخطاب يخلق تطبيعاً سخيفاً ومزيفاً ومراوغاً ويأتي لتخطي الخطاب الثقافي الحقيقي الذي يثير الأسئلة أكثر ما يُوقّر الأجوبة.

في الخطاب الثقافي كل سؤال مشروع حتى السؤال عن مجرّد وجود الأنا والآخر وعن حقوقه التاريخية والأخلاقية كالسؤال عن مجرّد وجود الله. وهو لا يتأثر بالرأي العام ولا يصبو للتأثير عليه.

الخطاب الثقافي معصوم عن الديماغوغيا وهو يثير القضايا الحقيقية المتعلقة بهوية السائل والمجيب. إنه خطاب يقع خارج البروتوكول. خطاب حرّ يبدو سوداوياً في أحيان وورديا في أحيان أخرى. إنه خطاب باطني عندما يتّصل بالآخر يفهم على علاته وباطنيته. الخطاب الثقافي يجري على أعمق مستويات الوعي الجماعي. ولذلك فإن عملية الترجمة ليست نشاطاً ميكانيكياً وإنما هي جزء من هذا الخطاب. جزء من الثقافة ومن وعي الأطراف المتخاطبة.

في القاهرة جرى مؤخراً لقاء شارك فيه صحفيون إسرائيليون وفلسطينيون ومصريون ومغربيون وأردنيون وتونسيون. وفي الجلسة الأولى أثير سؤال حول اللغة: بأية لغة يتكلمون، بالعربية أم العبرية؟ وفي النهاية اتفق على التكلم باللغة الإنجليزية.

كل المشاركين يجيدون اللغة الإنجليزية وقد عرّفوا عن أنفسهم بهذه اللغة. لكن أجواء من الغربة والترقّب خيّمت على اللقاء إلى أن بدّدها صحفيان، واحد فلسطيني والآخر إسرائيلي. ذياب اللوح، رئيس تحرير صحيفة "الكرامة" قال: بما أنني سأقول كلمات هامة فسأتحدث باللغة العربية. وأمنون أبرموفيتش الذي طُلب منه أن يتحدث عن الصحافة الإسرائيلية، قال: بما أنني سأقول كلمات هامة فسأتحدث باللغة العبرية. والإثنان طلبا من زهير بهلول ترجمة أقوالهما.

إن إستعمال اللغتين هو الذي كسر جمود اللقاء وفي اليوم التالي عندما حضر الصحفيون سهرة فيفي عبدو، كان كل من الفلسطينيين والإسرائيليين يهزّ خصره بلغة جسده، دون شعور بأي حرج أمام هزهزات خاصرتي الراقصة المصرية.

في اللقاء الثقافي بين اليهود والعرب يستطيع كل واحد التحدث بلغته. فلغة الأم تمنحه القدرة على التعبير عن نفسه بصدق وأمانة إلى أن يجيد الشعبان إستعمال اللغتين. وأنا لا أقول ذلك لكي أرسخ موقفنا نحن العرب مواطني إسرائيل، مترجمي الحوار العربي – اليهودي، وإنما لكي أؤكد أن ما نحتاج إليه هو الإنكشاف المتبادل. وإن نحن ما زلنا في أجواء فيفي عبدو فلنطلق عليه "الستريتيز الثقافي" الذي يضمن لكل منا أن يصرّح بما يفكر به حقيقة عن نفسه وعن الغير.

في الخطاب الثقافي أنا أميّز بين أغنيتين: أغنية الصالون وأغنية الحمّام. فإن أهمية أغنية الصالون هي في الصياغة الحكمة والإدعاء الأيديولوجي والسياسي وقدرتها على الإقناع. إنها أغنية الشعار. وأما عندما نغني في الحمّام، تحت رشّاش الماء البارد، فإننا نطلق الأغنية الحقيقية، التي تعبّر عن وحدتنا وعُرينا ووجدنا العاطفي. الخطاب الثقافي في عملية الترجمة يقودنا إلى التعارف الحقيقي بين الشعبين، بحيث أن التماثل يأتي من الإختلاف. ويصبح النص الأدبي هو الأساس للحوار الثقافي. إن سلطة النص تصبح هي النظام المركزي الذي يقرّر شكل الحوار وإتجاهاته ونتائجه طبعاً.

بين أدب الحرب وأدب السلام هناك أدب غني عن الإنسان كإنسان، عن الإنسان البسيط، وعن التفاصيل الصغيرة في حياتنا، عن الحرب والكراهية، عن رغبات شخصية وآلام فردية، عن حياة البؤساء إلى جانب حياة الترف، عن قتل على خلفية شرف مطعون إلى جانب أوصاف جنسية إبداعية. مثل هذا الأدب يجب أن يُترجم دون أي تأجيل.

* * *

بكثير من المتعة ترجمت كتاب يشعياهو ليبوفيتش "أحاديث في العلم والقيم". لم أعتبر هذا رسالة قومية بل واجباً ثقافياً وتجربة فلسفية من شأنها أن تسهم في إغناء الحوار الثقافي، بغض النظر عن عملية السلام في المنطقة. ويسعدني أنني أقدّم نصاً فلسفياً للقارئ العربي وليس نصاً سياسياً من إنتاج يشعياهو ليبوفيتش، إذ إنني تعرّفت عليه قبل ربع قرن كفيلسوف ومفكر وهو شهد عن نفسه

وتشهد عليه كتاباته أنه أقام مواقفه السياسية على فلسفة الأخلاق التي آمن بها وعلى عالم من القيم الإنسانية.

قبل أن أباشر بعملية الترجمة عدتُ إلى مؤلفات مفكرين عرب معاصرين، وبشكل خاص إلى فيلسوف مصري انشغل طول حياته بالفلسفة الأخلاقية، وكان بإمكانه أن يحاور ليبوفيتش من المنطلق ذاته، حيث أن مصادرهما مشتركة وكذلك آراءهما وتمييزهما بين عالم العلم وعالم القيم ونظراتهما إلى التديّن والموضوعية في العلم والحياة. إنه المفكر زكريا إبراهيم، فيلسوف الأخلاق العربي، الذي ألّف أكثر من أربعين كتاباً في الفلسفة، وأقترح هنا ترجمة مؤلّفه "المشكلة الخلقية" إلى اللغة العبرية والذي صدر لأول مرة عام 1969.

كان يشعياهو ليبوفيتش رجل أخلاق، وقد أقام عالماً من القيم على الإختيارات الفردية التي تضمن الحرية للإنسان كإنسان. فما هامَ في نشوة النصر العسكري وما صدّق فرية إلقاء التهمة على الضحية. فقد استطاع أن يميز بين الضحية والقاتل، وأن يقول الحق كمن أقسم اليمين في المحكمة أن يقول الحق. كل الحق ولا شيء غير الحق.

في إحدى قصصي عن القرى التي هدمت عام 1948، كتبت عن عبد الحسن. وعبد الحسن كان شاباً، اعتبر بطلاً في نضاله البطولي ضد الإنجليز إلى أن قرروا تصفيته. ففي صباح أحد الأيام فرض الكابتن شيفر طوقاً على القرية وأمر الرجال بالتجمّع في الساحة العامة للبحث عن عبد الحسن وإلقاء القبض عليه. قرّر أهالي القرية، بإصرار، عدم الكشف عن هوية عبد الحسن حتى لو نفعهم الكابتن شيفر خمسة أيام تحت شمس تموز القائظة وفي الجوع والعطش. بعد ساعات قليلة شاهد الكابتن شيفر امرأة عجوزاً مقبلة إلى الساحة وتحمل بيدها رغيفاً من الخبز ووعاء فيه ماء. وعندما أوقفها بدأت تستجدي منه أن يسمح لها بتقديم الخبز والماء لإبنها. فسألها: ما اسمه؟ ولما قالت له: عبد الحسن. قال لها: إذهبي إليه. فتوجهت بخطاها الثقيلة غير آبهة لشارات الرجال وهمسهم بأن تنصرف وألاّ تقترب من إبنها. وكان الكابتن شيفر يتبعها. ولما وصلت إليه وضع الكابتن يده على ذراعه وسحبه من بين الرجال وأطلق عليه ثلاث رصاصات وانصرف. فوق الجثّة المضرجة بالدم ودموع الأم العجوز وقف الأهالي يؤنبونها على فعلتها: لماذا فعلت هذا؟ أنت المسؤولة عن الكشف عنه! أنت قتلت عبد الحسن. وأما هي فقد أجابت: ولكنه إبني. إنه إبني وقد أحضرتُ له الماء ليشرب.

في عام 1948 عندما شرّد أهالي القرية، شرّدت معهم وهي تحمل صرّة فيها خبز وماء وأمضت ما تبقى من حياتها متنقلة بين القرى وهي تسأل سؤالاً واحداً فقط: من قتل عبد الحسن؟

أعتقد لو أنها قابلت يشعياهو ليبوفيتش وسألته من قتل ابنها لكان خلّصها من الشعور بالذنب. وفي هذا تكمن عظمته!

• مداخلة سلمان ناطور ـ الذي قام بترجمة مؤلف البروفيسور يشعياهو ليبوفيتش ـ في الندوة التي أقيمت بمناسبة صدور الترجمة العربية للكتاب ـ معهد فان لير ـ القدس ـ 18 أيلول 1995.

"الخليل – مجزرة مُعْلَنَة"

"الخليل – مجزرة مُعلنة" عنوان آخر مؤلفات الكاتب والصحفي الإسرائيلي أمنون كابليوك، المعروف بكتاباته عن الصراع العربي – الإسرائيلي والقضية الفلسطينية، والتي ينشرها بانتظام في الصحافة الإسرائيلية والفرنسية وغيرها. وهذا المؤلَف الصادر بالفرنسية(*) عن مجزرة الحرم الإبراهيمي في الخليل يسلّط الأضواء على تفاصيل ظلّت غامضة حتى بعد التحقيق الذي أجرته لجنة شمغار، ويبرهن على أن المجزرة كانت "مُعلَنَة" لأن مرتكبها استفاد من الوضع الخاص للمستوطنين، الذي يضعهم "فوق القانون".

إخترنا من هذا الكتاب/ الوثيقة للنشر هنا ثلاثة فصول من فصوله التسعة، إضافة إلى تمهيد المؤلف لمؤلَفه. هذا، وتقوم "وزارة الثقافة الفلسطينية" بإعداد الترجمة العربية الكاملة لهذه الوثيقة للنشر في كتاب سيصدر في وقت لاحق.

(*) Hebron - un massacre annonce'
Paris - E'dition du Seuil
175 pages, 1995.

الخليل
مجزرة مُعلَنَة

أمنون كابليوك

كلمة تمهيد

حتى نوضع الأحداث الواردة في هذا الكتاب في إطارها الصحيح، لا بد من بعض التوضيحات التمهيدية. في صيف العام 1993، حدث أمر لم يسبق له مثيل. فقد بدأت مسيرة السلام بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية، التي لم تشأ الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة أن تنظر إليها حتى تلك اللحظة، إلا بصفتها "مجموعة إرهابية". هذه المسيرة الهشّة، الشاقة، الشائكة تمتعت بدعم واسع لدى الفلسطينيين كما لدى الإسرائيليين.

بيد أن المعارضين في كلا المعسكرين عملوا على حشد طاقاتهم لإفشال العملية السلمية. ففي الجانب الفلسطيني، كثّفت حركة المقاومة الإسلامية "حماس" وبعض الأطراف الراديكالية في م.ت.ف. من التصريحات المعادية، ومن أعمال العنف التي هدفها عرقلة جهود أنصار السلام. وفي الجانب الإسرائيلي لم يكفّ اليمين، واليمين المتطرف، عن تسميم الأجواء مستغلاً في ذلك قلق المستوطنين الإسرائيليين في الضفة الغربية وقطاع غزة. وكان المستوطنون، الأكثر تطرفاً من بين هؤلاء، قد تكتلوا، ومنذ زمن بعيد، في حركات أو تجمعات صغيرة إرهابية، تستعمل العنف وتعادي فكرة إعادة أي جزء من الأراضي المحتلة إلى الفلسطينيين، والتي وصل بها تطرفها ـ أو ببعضها ـ إلى حد المطالبة بطرد الفلسطينيين من "إسرائيل الكبرى". هذه المجموعات تشكّل ما ينبغي أن يطلق عليه إسم "التيّار الفاشي" في أوساط الشعب الإسرائيلي. صحيح أنهم يشكّلون أقلية، وصحيح أن تصرفاتهم، غير الشرعية غالباً، موضع شجب من جانب الصحافة الإسرائيلية نفسها التي تستحق الثناء على الحرية التي تتمتع بها في التعبير. ولكن يبقى، على الأقل، أن هذا التطرف، اللادمقراطي ضمنياً، قد قوبل ـ ولا يزال يُقابَل لدى بعض الجهات ـ بغض الطرف، أو بالأحرى، بالتواطؤ الذي لا بد من فضحه. ولقد حرصتُ في هذا الكتاب على تتبع التفاصيل ليس فقط فيما يخص ملابسات مجزرة الخليل بكل دقائقها، بل، وبالأخص، السياق التاريخي والسياسي الذي

جعل من هذه المجزرة أمراً ممكناً. لقد كانت مجزرة "معلنة" حقاً، أي متوقعة.

قلل التقرير الرسمي للجنة التحقيق الإسرائيلية ـ كما سنرى لاحقاً ـ والذي نُشر في حزيران 1994 ـ من شأن المغزى السياسي للحادث (الذي زعم أنه من فعل "مجنون") وحلّ السلطات، وخاصة السلطات العسكرية، من مسؤولياتها. ومن وجهة النظر هذه فإن الصفحات التالية تناقض تلك التفسيرات المطمئنة والمتواطئة.

ارتكبت هذه المجزرة فجر الخامس والعشرين من شباط 1994، في شهر رمضان، وراح ضحيتها نحو ثلاثين من الفلسطينيين في أثناء صلاتهم في الحرم الإبراهيمي. ذلك الحرم الذي يتمتع بالمرتبة الثانية، بعد المسجد الأقصى، من حيث القدسية في فلسطين. وهي أبشع مجزرة ارتكبت في الأراضي العربية التي احتلها الجيش الإسرائيلي في حرب حزيران 1967. وقد نفذت لصالح نية معلنة: إفشال مسيرة السلام. ومع هذا فإن المجزرة لم تكن مجرد "حادث" ولا من فعل "مجنون". فوراء الحادث ثمة أسباب لا يمكن تجاهلها. وتتحمل مسؤوليتها مختلف الحكومات الإسرائيلية التي لم تنظر بعين الجدية إلى نوايا المستوطنين المتطرفين، والتي طالما تساهلت مع شعارات الأيديولوجيات الفاشية، مثل أيديولوجية حركة "كاخ" بعنصريتها وعنفها المعلنين. وعلى نحو أشمل، فالسبب يكمن في السياسة المتبعة منذ حزيران 1967 في الأراضي المحتلة، وهي سياسة فرض "الأمر الواقع" وسياسة الضم الزاحف، والتي غالباً ما كان الليبراليون وقسم من اليسار الإسرائيلي يشجبونها، ودونما جدوى. من هذه الزاوية يمكن القول أن الشقاء الأعظم الذي حلّ بإسرائيل منذ قيامها كان بالضبط هذا الإحتلال للأراضي العربية، وأكثر المظاهر قسوة وأذى في هذا الإحتلال كان ولا شك إقامة المستوطنات اليهودية على تلك الأراضي. وقد أدى الإحتلال والإستيطان بإسرائيل تدريجياً إلى الإبتعاد عن القيم الإنسانية التي أعلنتها الدولة لدى قيامها. وفي هذا الإطار، تشكّل مستوطنة كريات أربع التي تشرف على مدينة الخليل العربية، صورة مُخزية لهذه السياسة الإستيطانية. فمن هذه المستوطنة بالذات خرج القاتل باروخ غولدشتاين. لم يُخطئ عيزر وايزمان، رئيس دولة إسرائيل، حين قال هو بنفسه أن هذه المجزرة "هي أفظع شيء حدث في تاريخ الصهيونية".

الفصل الأول

عيد "بوريم"

يوم الجمعة 25 شباط 1994. الطقس عاصف في مدينة الخليل. مطر، رياح وضباب. يرتفع صوت المؤذن الذي ينادي المسلمين للصلاة فيغطي عليه قصف الرعد أحياناً. نحن في شهر رمضان. يتقاطر المصلون نحو الحرم الإبراهيمي مسربلين بثياب ثقيلة. وعمّا قليل يجتمع نحو خمسمائة شخص في القاعة الرئيسية التي تحمل إسم إسحق بن إبراهيم. إمام المسجد جميل عابد النتشة الذي يؤمّ المصلين يستهل الصلاة بالتكبير ويتلو سورة الفاتحة ثم يكبر "الله أكبر" ويشرع في تلاوة سورة "السجدة": "إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خرّوا سُجّداً وسبّحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون." (صدق الله العظيم). يسجد المصلون وما تكاد جباههم تمسّ السجّاد الذي يغطي أرض المسجد، حتى تنطلق صرخة بالعبرية: "هاكم! إنها نهايتكم!". وعلى الفور يدوي إنفجار هائل يهزّ جدران قاعة إسحق. تتبعه طلقات من مدفع رشّاش. يتساقط المصلون فوق بعضهم بعضاً وهم يصرخون. تمتزج الصرخات مع نداءات "الله أكبر" ومع تأوهات الجرحى. ولكن من وراء ظهور المصلين تتابع زخّات الرصاص. تتوقف بضع ثوان، الوقت اللازم لتغيير مخزن الرصاص، ثم يتواصل إطلاق النار. تتناثر أجساد القتلى والجرحى في أرجاء القاعة كافة. أما المصلون من الذين لم يصابوا، فيحاولون الإفلات من الرصاص بالإنبطاح أرضاً أو بالإختباء خلف أو تحت جثث القتلى أو أجساد الجرحى. بعضهم يختبئ وراء الأعمدة السميكة التي تمتد عبر القاعة. ويتمكن غيرهم من الوصول إلى المدخل وهم يصرخون: "مذبحة! مذبحة يا ناس! اليهود يقتلون المسلمين!".

توقف آخر لإطلاق النار لتغيير مخزن الرصاص وتعود الزخات النارية تنهمر على المصلين. يسدد القاتل سلاحه بتمعن نحو كل شيء يتحرك. هذا ما قاله لاحقاً أولئك الذين تجرأوا والتفتوا نحوه ليروه. كان القاتل يتنقل وهو يطلق النار في عرض القاعة من وراء المصلين. تشهد على ذلك الظروف الفارغة التي عثر عليها منتشرة بمحاذاة الجدار الشمالي وخارج مجال كاميرا الدائرة التلفزيونية الداخلية. وهي دائرة كانت معطّلة جزئياً في ذلك اليوم. بعد دقيقة ونصف الدقيقة يتوقّف إطلاق النار للمرة الثالثة والأخيرة. فبينما انهمك القاتل بتبديل المخزن، تمكّن أحد المصلين من السيطرة عليه من الخلف وانتزع الرشاش اللاهب من يديه وألقى به جانباً. وفي الحال انقضّ عليه عدد من الأشخاص بطفّاية حريق وبقضبان حديدية كبيرة تستعمل عادة لسد الأبواب. وبكل قواهم انهالوا على القاتل ضرباً حتى الموت.

إذ ذاك، تندفع موجة بشرية إلى الخارج. رجال بمفردهم. آخرون يحملون قتلى أو جرحى. مشاهد رهيبة. كيف يمكن أن توصف؟ هذه شهادة من عشرات الشهادات الأخرى.

عبد الحق إبراهيم، موظّف منذ أكثر من ثلاثين عاماً في محكمة بلدية الخليل. من عادته أن يأتي للصلاة في الحرم الإبراهيمي مرّتين يومياً. هذه المرّة، وبمناسبة رمضان، اصطحب معه ولديه الصغيرين. في أثناء المجزرة التصقا به من الهلع. وحين توقف إطلاق النار، كان والدهما يسبح في بركة من الدم وقد أصابت

رصاصتان منه مقتلاً. إنفجر الطفلان بالصراخ والبكاء محاولين، دون جدوى، جرّه نحو باب الخروج. توسّلات إلى المصلّين أن يساعدوهما في نقل والدهما: "ساعدونا في حمل والدنا" وأخيراً توقّف شاب في الخامسة والعشرين من عمره ليساعدهما. وقد قال لي هذا الشاب، فيما بعد، أن ثيابه في تلك اللحظة كانت ملطخة بنتف من دماغ أعزّ أصدقائه الذي كان بالقرب منه في أثناء إطلاق النار. عثر على جثة القاتل الذي كان يرتدي بزة عسكرية خاصة بالجيش الإسرائيلي، في المكان ذاته الذي قُتل فيه، ممدة على ظهرها، وبالقرب منها ملقاة أربعة قضبان حديدية ملوّنة بالدماء. كان وجهه مشوّهاً بحيث يتعذر التعرف عليه. ومسدسه الذي لم يتح له إستعماله بجانبه. أما بندقيته، فقد كانت متوارية حتى منتصفها تحت مكتبة للكتب المقدسة الإسلامية. إسم المجرم باروخ غولدشتاين، يهودي من أصل أميركي، وقد كان طبيب المستوطنة اليهودية كريات أربع التي تشرف على مدينة الخليل العربية. والجريمة التي لا سابق لها، والتي ارتكبها لتوّه قبل أن يلقى مصرعه، لم تكن بنت لحظتها.

* * *

كرّس باروخ غولدشتاين الأمسية الأخيرة في حياته لزوجته ولأطفاله الأربعة، دون أن يكفّ عن الإعداد لجريمته. في ذلك المساء ذهب معهم إلى "المغارة" (هكذا يطلق اليهود على الحرم الإبراهيمي الذي أنشئ فيه كنيس بُعيد إحتلال الجيش الإسرائيلي للضفة الغربية في 1967). كان اليهود يحتفلون في ذلك المساء بعيد "بوريم"، أي عيد المساخر، وهو عيد فيه بهجة وذو طابع قومي بحت. و"بوريم" في الحقيقة يذكر بانتقام الرب من أعداء الشعب اليهودي. الفلسطينيون، الذي جاءوا في تلك الليلة للصلاة، تعرّضوا للإهانات في هذا الجو الإحتفالي. فقد راح المستوطنون والجنود يدفعونهم وهم يصرخون في وجوههم: "اليوم عيد بوريم، عيد اليهود". ويقولون لهم: "إذا كنتم تريدون الصلاة فينبغي عليكم أن تنتظروا حتى الساعة التاسعة مساءً أو أن تذهبوا إلى القاعة الأخرى"، وهي المخصصة للنساء. تبودلت الشتائم، وأخذ المستوطنون يهتفون: "فلسطين بلادنا والعرب كلابنا". ويرد عليهم العرب: "خيبر خيبر يا يهود، جيش محمد سيعود". استثير مستوطن يهودي، وراح يلوّح بقنينة نبيذ أمام المسلمين ويصيح: "إشربوا من هنا". واستناداً إلى أحد الشهود فإن غولدشتاين كان من أكثر الناس إستثارة. وقد أكد المسلمون الذين يعرفونه أنه يتردد على هذا المكان المقدّس يومياً تقريباً ومنذ سنوات.

وفرقعت الألعاب النارية في أثناء الصلاة محدثة ضجيجاً عالياً، ولا سيما حين استذكر المصلون اليهود أسماء أعدائهم قديماً.

بعد صلاة العيد عاد باروخ غولدشتاين مع عائلته إلى البيت ليتناول طعام العشاء. بعد ذلك خرج ليتجوّل في شوارع المستوطنة اليهودية. كان يودّع اللحظات الأخيرة في حياته. ثم عاد إلى بيته ليرتّب أوراقه. فحرص على أن يضع دفتر الشيكات على الطاولة. (قبل ذلك بثلاثة أيام، حرص على أن يفسر لزوجته ـ الأمر الذي لم يسبق له أن فعله ـ كيفية إستعمال الحساب البنكي. وفي ذلك اليوم نفسه أجرى تأميناً شخصياً لكل طارئ على مبلغ 95 ألف دولار عند شركة التأمين الإسرائيلية "أريه"). أعد رسالة لمدير الجمعية التي تضم أعضاء الفريق الطبي في كريات أربع. كانت رسالة وداع قصيرة ومقتضبة. وقد

جاء فيها هذه الكلمات: "أشكركم على تعاونكم. وقد كان العمل معكم ممتعاً". وأرفق بالرسالة فواتير كان يحتفظ بها في بيته. بعد الإنتهاء من هذه الترتيبات الأخيرة. راح غولدشتاين يصغي كعادته إلى البرنامج اليومي الذي يقدمه دوف شفرين (الذي يتخذ له إسماً مستعاراً. وهو "بن إسرائيل") في إذاعة المستوطنين "القناة السابعة". يُذاع هذا البرنامج بين منتصف الليل والساعة الواحدة صباحاً باللغة الإنجليزية. وهي اللغة الأم لغولدشتاين الذي وُلد في بروكلين (حيّ يهودي في نيويورك). في ذلك المساء كان المذيع يصف وقائع الإحتفال بعيد بوريم. والذي جرى قبل ساعات في السجن الذي يقبع فيه "أصحاب قضايا عادلة" مثل عامي بوبر ويورام شكولنيك (إسرائيليان قتلا. عن قناعة. فلسطينيين أبرياء وحوكما بالسجن الفعلي). كان مذيع القناة السابعة يصيح: "لنشرب نخب هذين الرجلين. عيداً سعيداً ليورام شكولنيك وعامي بوبر. وإلى كل أولئك الذين فعلوا ما يتمنى الكثير منّا فعله ولكن تعوزهم الشجاعة". ويمضي المذيع بالحمية نفسها متلفظاً بهذه الجملة المدهشة: "في هذا العيد (أي في الساعات القادمة) سوف يحدث شيء عظيم يؤدي إلى وقف عملية السلام (المفاوضات بين إسرائيل وم.ت.ف.)". قبل ذلك ببضع ساعات ـ هذا ما عرفناه فيما بعد ـ إلتقى دوف شفرين باروخ غولدشتاين في الحرم الإبراهيمي. وقد رفض الإفصاح عمّا دار بينهما واكتفى بالقول إنه رآه يصلي في قاعة إسحق.

في ذلك المساء. حين كان غولدشتاين في بيته يرتّب أشياءه. كانت زوجته مريام معه. عمّا كانا يتحدثان؟ لا أحد يعرف. بعد المجزرة. إدعت مريام بأنها لم تكن تعرف شيئاً عمّا يجري إعداده. وقالت أنها لم تسمع زوجها قط يتلفظ بتهديدات بالموت للعرب. ما نعرفه بالمقابل أن مريام. وهي يهودية من أصل عراقي. تشارك زوجها أفكاره السياسية. فهي مثله عضو في حركة "كاخ" الفاشية والتي أسسها الحاخام كهانا. حتى أنها تعرّفت على غولدشتاين في صفوف هذه الحركة. وهما متفقان على كل شيء. وقد قالت مريام أمام اللجنة التي حققت في المجزرة: "ما فعله يبقى لغزاً بالنسبة لي حتى الآن". ومع ذلك كتبت صحفية تعمل في الصحيفة اليومية الأمريكية "نيوز داي" إن كلام مريام كان مختلفاً تماماً أمام أصدقاء لها جاءوا لتعزيتها بعد المذبحة. إذ قالت: "كان زوجي يعرف تماماً ما يفعله وقد قرر الإقدام على هذا العمل من أجل وقف مفاوضات السلام".

لن نعرف. أبداً. ما دار حقاً بين غولدشتاين وزوجته في ذلك المساء ولا حتى كم من الوقت استغرق نقاشهما. ربما لم تغمض مريام أجفانها. مثل زوجها. في تلك الليلة؟ ربما حاولت أن تثنيه عن عزمه. ولكن يبقى أنها اتصلت فجراً. بعد مغادرة باروخ البيت بنحو عشر دقائق بالمقسم العسكري وطلبت منهم على الهاتف: "إبحثوا عن باروخ. وأوقفوه". إنه تصرف مثير للإستغراب. كان من عادة باروخ. منذ سنوات طويلة. أن يخرج مبكراً جداً من بيته ولم تقلق عليه مريام قط سوى هذه المرة. فهل كانت تعرف في تلك الليلة أنه سيحدث شيء رهيب؟

غادر غولدشتاين بيته قبل الخامسة صباحاً بقليل. بسيارته اليابانية الصنع من نوع سوبارو. كان يرتدي بزته العسكرية الخاصة بالجيش الإسرائيلي. وأخذ معه بندقيته الرشاشة ومسدسه البريتا. وصل غولدشتاين إلى المركز الطبي في كريات أربع حيث يعمل عادة. ومن هناك. طلب من المقسم العسكري أن يرسل له سيارة جيب بيضاء تستعمل في حالات الطوارئ؛ وكانت الساعة تشير إلى الخامسة. لم يسبق

قط أن طلب غولدشتاين هذه السيارة البيضاء. فعند الحاجة كان يطلب سيارة الإسعاف. في ذلك الصباح تلقى الضابط المداوم، شلومو أدلشتاين، المكالمة ونفذ الأمر. وقد وصل ضابط الأمن في المستوطنة، موطي أونجر، إلى المركز الطبي في سيارة الجيب البيضاء. وجد غولدشتاين في بزة عسكرية برتبة نقيب وحقيبته البنفسجية وبندقيته. بندقية من أي نوع؟ لا شك أنها بندقيته الشخصية، وهي من نوع "جليل" القصيرة. ومع ذلك، فإن الجنود الحرّاس الثلاثة الذين رأوه يدخل المسجد، والذين تبدو شهاداتهم صادقة، أكدوا فيما بعد بأن البندقية كانت من نوع أمريكي إم ـ 16.

يستقل غولدشتاين سيارته ويطلب من الجيب أن يرافقه. يتوقف أمام البلوك رقم 28 الذي يقطن فيه والداه. وبعد أن يدخل السيارة إلى المرآب، يناول موطي أونجر المفاتيح طالباً منه أن يضعها في علبة البريد الخاصة بشقته. ثم يصعد إلى سيارة الجيب البيضاء مع موطي أونجر. عمّا تحادث الرجلان في السيارة؟ أونجر يقول أنهما تحدثا "فقط في مشكلة حقن المرضى بالدم في الشتاء". هبط غولدشتاين من الجيب بمحاذاة الحرم الإبراهيمي. كانت الساعة الخامسة وعشرين دقيقة. قبل ذلك بثماني دقائق حدثت دراما حقيقية. ففي الساعة الخامسة وإثنتي عشرة دقيقة (فقد سجلت الساعة والدقيقة بالضبط في كشوفات شركة التلفون "بيزك"). أي بعد مرور عشر دقائق فقط من مكالمة غولدشتاين التي طلب فيها سيارة الجيب. إتصلت زوجته مريام بدورها بالمقسم العسكري، وتكلمت مع الضابط المناوب نفسه، شلومو أدلشتاين. إنها تعرفه شخصياً. فباروخ هو طبيب عائلة أدلشتاين. قال أدلشتاين فيما بعد بخصوص هذه المكالمة، أن مريام كانت في حالة هستيرية تامة. سألته: "أين الدكتور غولدشتاين؟ أطلبه من خلال قنوات مقسمك". "ماذا حدث؟ لقد ذهب للصلاة في المغارة". أجابها أدلشتاين. فردّت مريام بإلحاح: "كلا. لم يذهب للصلاة. أقول لك لم يذهب للصلاة. إن أشياءه الخاصة بالصلاة ها هنا في البيت. إتصل به. إن الأمر في غاية الأهمية. أتوسل إليك. إنني لا أقول هذا اعتباطاً. إتصل به أتوسل إليك. أتوسل إليك. أوقفه! أوقفه!".

أفاد شلومو أدلشتاين، فيما بعد، أنه أبقى مريام على الخط وحاول مرّات عديدة الإتصال بغولدشتاين ـ الذي يحتفظ دائماً بجهاز إخطار بالمكالمات الهاتفية (بيبر) معه ـ على القناة العسكرية، دونما جدوى. في نهاية المطاف، استطاع إدلشتاين الإتصال بموطي أونجر، ضابط الأمن الذي يقود الجيب الأبيض، وأكد له هذا أن غولدشتاين نزل من السيارة بالقرب من المغارة. ونقل إدلشتاين الخبر لمريام التي كانت ما تزال تنتظر على الخط. وظلّت تتوسل إليه أن يعمل أحد ما على إيقاف زوجها.

في الخامسة وتسع وعشرين دقيقة، أي قبل بداية المجزرة بدقيقة واحدة، إتصلت مريام مرّة أخرى بالمقسم العسكري، وطلبت العثور على زوجها للضرورة القصوى. وقيل لها، مرّة أخرى، أن زوجها ذهب للصلاة.

كان بإمكان أدلشتاين، الضابط المناوب في المقسم العسكري، العثور بسهولة على غولدشتاين وربما الحيلولة دون وقوع المجزرة. كان يكفي أن يتصل بوحدة الجيش المسؤولة عن أمن المسجد. ولكنه في الواقع لم يفعل ذلك. ولم يحاول تبيان الغموض في سلوك غولدشتاين. ولا فهم الصرخات اليائسة لزوجته. فيما بعد، صرّح لأحد الصحفيين الإسرائيليين بموقفه، إذ قال: "لم أفهم ما كان يحدث. ففي كل صباح يغادر

غولدشتاين منزله في هذه الساعة. ولم يحدث قط أن طلبت مني زوجته أن أذهب للبحث عنه. وفجأة أجد نفسي إزاء هذا الإنفعال. دخل في روعي أن شيئاً رهيباً سوف يحدث. وأنها عرفت هذا الشيء في اللحظة الأخيرة فحاولت الحيلولة دونه. فهل تحدثت مع زوجها وعرفت كل شيء؟ أم أنها شعرت فقط أن شيئاً ما سيحدث؟ كان الأمر في غاية الغرابة. إنه يذهب إلى المغارة كل صباح. منذ خمس سنوات. ولم يحدث أن اتصلت بأحد لتسأله أين هو. إلا في هذه المرة. وعلى هذا النحو من الهستيريا!".

يمكننا أن نتساءل بالطبع: لماذا. والأمر على هذا النحو. لم يتصل أدلشتاين بالضابط المسؤول عن المسجد. والموجود في موقعه. وهو أقل ما يمكن عمله؟! لدى إستجوابه من قبل لجنة التحقيق سأله القاضي إليعيزر جولدبرج. عن هذه النقطة بالذات: "كل هذه الملابسات التي أحاطت بغولدشتاين لم تدفعك للإستنتاج بأن شيئاً ما غير طبيعي سوف يحدث"؟ أجاب أدلشتاين: "كلا". تدخّل عضو من اللجنة. وهو الجنرال (إحتياط) موشيه ليفي. وقال بإلحاح: "كنت متورطاً بحدث رهيب. حين علمت بما حدث. فيما بعد. ألم تقدّم تقريراً للمسؤولين عنك؟".

أدلشتاين: "كلا. كان ذلك حدثاً عادياً".

الجنرال ليفي: "حتى بعد أن عرفت أن مجزرة ارتكبت تعتبر أن هذا حدث عادي؟".

أدلشتاين: "لم أفكر إن عليّ أن أقدم تقريراً بكل ما أعرف".

بعد المجزرة. كما علمنا فيما بعد. علّق أدلشتاين صورة غولدشتاين في مطبخه مكتوباً عليها بخط اليد "سينتقم الله لدمائه".

ينزل باروخ غولدشتاين إذن. من سيارة الجيب. بالقرب من الحاجز العسكري المقام على مدخل المسجد. يدخل من الممر الرئيسي يراه جنديان إسرائيليان. يسأل أحدهما غولدشتاين: "لماذا ترتدي البزّة العسكرية؟" فيردّ غولدشتاين كاذباً: "أنا اليوم في الخدمة الإحتياطية". وبصدفة قاتلة كان معظم الجنود ورجال الشرطة. الذين يؤدون خدمتهم في المسجد. غير موجودين في مواقعهم في تلك اللحظة. كان يجب أن يكونوا ستة. ولكن خمسة منهم لم يصلوا بعد. ثلاثة جنود من "حرس الحدود" وعسكري وشرطي. وهذا الأخير تأخر بسبب حادث غامض وقع قبل ساعة من المجزرة. فقد جُرح أحد سكان الخليل. وهو محمد إبراهيم أبو عيد. برصاصة وهو في طريقه إلى المسجد. هذا الحادث شغل الجيش حتى لحظة إطلاق الرصاص في الحرم الإبراهيمي. والعسكري الوحيد. الموجود داخل المسجد. هو الملازم روتم رفيقي. وباعتراف القائد العسكري مسؤول المسجد. فإن مثل هذا التأخير في وصول رجال الأمن لم يحدث في السابق أبداً.

روتم رفيقي يرى غولدشتاين في بزة عسكرية. فيسأله: "هل أنت في الخدمة الإحتياطية اليوم؟" ويرد غولدشتاين. مرة أخرى. بنعم. ويتجه نحو قاعة يعقوب حيث من عادته أن يصلّي وحيداً. من هناك. يتجه إلى قاعة إبراهيم. المكان الذي يصلّي فيه اليهود في كل صباح يتجمع في هذه القاعة "مينيان" أي مجموعة من عشرة رجال. على الأقل. يلتقون لإقامة صلاة جماعية. في هذا الصباح كانوا ثلاثة عشر رجلاً. وكان هذا "الميناين" خاصاً بالقدماء.

ماذا فعل غولدشتاين في هذه القاعة خلال الدقائق القليلة التي أمضاها فيها؟ معظم المصلين الحاضرين أكدوا على أنهم حتى لم يروه. ثلاثة منهم. فقط. قالوا إنهم رأوه. أحدهم. وهو إيلان تور. اشترك

في العام 1979 في قتل صبية فلسطينية في السابعة عشرة من عمرها من قرية حلحول القريبة من الخليل. وأطلق سراحه "لإنعدام الأدلّة". وأفاد أن غولدشتاين سأله عن سبب إغلاق الباب الفاصل بين قاعة إبراهيم وقاعة إسحق (حيث يصلّي المسلمون)، وأجابه نور: "نحن في رمضان كما تعلم". فقال غولدشتاين بلهجة إحتجاج: "ولكن اليوم هو عيد بوريم!". يمكن أن يسأل المرء نفسه عن سبب اهتمام غولدشتاين في هذه اللحظة، بالذات، بذلك الباب. لأنه، بدون أي شك، يفكّر بالفرار بعد تنفيذ المجزرة. كل الدلائل تشير إلى أنه لم يعتزم الإنتحار، لأن الإنتحار أساساً، يتعارض مع قناعاته الدينية المتزمتة.

ترك غولدشتاين حقيبته البنفسجية على كرسي في قاعة إبراهيم. فيها رسالة مطبوعة على الآلة الكاتبة يقول فيها أنه أسلم أمره إلى الله ويوصي بالإعتناء به إذا جُرح. وقد جاء في الرسالة: "فإذا مُت، حفظنا الله، فإن موتي سيكون تكفيراً لي عن ذنوبي التي ارتكبتها في حقكم، أيها الرب". ثم مرة أخرى: "إعتنوا بي إذا جُرحت". ثم أضاف بخط اليد: "إسمع يا إسرائيل يا سيد العالم، إنني غير خائف".. هذا النص مأخوذ من كتاب "جسر الحياة"، الذي يحمله غولدشتاين دائماً معه تحسباً لحالات يكون عليه فيها معالجة جرحى محتضرين.

الساعة الآن تشير إلى الخامسة والدقيقة الثامنة والعشرين صباحاً. غولدشتاين يقف بباب قاعة إسحق، يقبض على بندقية بيده. وقد وضع على أذنيه مانعة الصوت لتخفيف صوت انفجار الطلقات. يتقدم نحو القاعة، يعترضه مسؤول حرس الأوقاف محمد أبو صالح. يردّ عليه غولدشتاين بحدّة وبالعربية:

ـ دعني أدخل!

يجيبه أبو صالح:

ـ ممنوع. ممنوع في أثناء صلاة المسلمين.

ـ أنا ضابط، يجيبه غولدشتاين.

يلحّ أبو صالح:

ـ حتى الحاكم العسكري لا يحقّ له الدخول في أثناء صلاة المسلمين.

قال أبو صالح فيما بعد، يصف الموقف، إن غولدشتاين اقترب منه وهو يقول:

ـ أنا المسؤول هنا، ويجب أن أدخل.

ودون أن ينتظر جواباً، ضربه غولدشتاين بأخمص بندقيته. يسقط أبو صالح على الأرض. يلج غولدشتاين إلى القاعة وتبدأ المجزرة في الساعة الخامسة والنصف. حين سمع أبو صالح صليات الرصاص، نهض وتمكّن من الفرار. ركض وبحث عن الملازم روم رفيقي، وهو العسكري الإسرائيلي الوحيد الموجود داخل المسجد. ولكن الملازم لا وجود له. بعد قليل حدث مشهد لا يمكن تصديقه حقاً.

في القاعة المجاورة، كان المصلّون اليهود الثلاثة عشر يتلون التراتيل. ولدى سماعهم صوت الإنفجارات، يخرجون ويكتشفون الكارثة. يرون المسلمين هاربين، والموتى والجرحى، والدم في كل مكان. إذ ذاك يصل القائد الإسرائيلي المسؤول عن المكان دوف ستلمان، يوجه إليهم أوامره:

ـ "تابعوا صلاتكم، كما لو لم يحدث شيء!".

ويعود المصلون اليهود إلى صلاتهم وتراتيلهم.

فيما بعد، طرح سؤال وأثار كثيراً من البلبلة: هل تصرف باروخ غولدشتاين وحده أم كان معه أحد؟ عسكريان إسرائيليان، السيرجنت كوبي يوسف والجندي نيف دروري، كانا يحرسان الباب الشرقي للحرم، شاهدا رجلاً يدخل بعد وصول غولدشتاين بخمس دقائق. كان يحمل بندقية "جليل" قصيرة ويضمها إليه. وأمام لجنة التحقيق، سأل القاضي جولدبرج:

ـ من كان ذلك الرجل؟

أجاب السيرجنت كوبي يوسف:

ـ "لا أعرفه. إنه مستوطن رأيته حينها للمرة الأولى. فاليهود الذين يأتون للصلاة أعرفهم جميعهم. أنا هنا منذ أربعة شهور، وآتي في الساعة ذاتها يومياً، ولكن هذا اليهودي لا أعرفه".

سأل القاضي جولدبرج:

ـ "هل دخل وحده؟"

ـ "كلا، ثمة واحد دخل بعده، وهو من المصلين أعرفه جيداً، إنه سائق يعمل في الجيش، لم يكن مسلحاً". الجندي الإسرائيلي الآخر، نيف دروري، قال الشيء نفسه فيما يخصّ الرجل الذي دخل بسلاحه. ماذا حدث لذلك الرجل؟ فبعد المجزرة مباشرة، جاء القائد دوف ستلمان، وطلب من كل الأشخاص الحاضرين أن يظلوا في أماكنهم. لكن الرجل المسلح إختفى، وعلى هذا، لا يمكن إستجوابه من قبل الشرطة. صرح الكولونيل يوآف چالانت، الذي أجرى تحقيقاً أولياً لحساب الجيش، والذي أدلى بشهادته ـ في جلسة مغلقة ـ أمام لجنة التحقيق أنه "لا يمكن أن يكون هنالك تواطؤ بين غولدشتاين وشخص آخر!".

أدلى عامل فلسطيني في الثانية والثلاثين من عمره، وهو عبد المعز الكركي، وقد أصيب برصاصتين في أثناء المجزرة وفقد فيها إبنه كفاح (11 عاماً) وهو أصغر الضحايا، أدلى بشهادته في هذا الصدد. قال إنه رأى رجلاً ملتحياً، يرتدي بزة عسكرية (وهو غولدشتاين) تقدم وأطلق النار، وأضاف: "رأيت أيضاً رجلاً بالثياب المدنية يساعده ويناوله مخازن الرصاص". وقال طفل فلسطيني إسمه جهاد، كان في قاعة إسحق، أنه رأى رجلاً بالثياب المدنية، يقف بجانب غولدشتاين ويناوله المخازن. صبي آخر إسمه بسام غيث أكّد كذلك أنه رأى، بالإضافة إلى غولدشتاين، "يهودياً آخر" يطلق النار من مؤخرة القاعة على المصلّين. شهادة أخرى، بالمعنى نفسه، أدلى بها أيضاً محمد مصباح الجعبري. وعلى وجه الإجمال، فإن حوالي عشرة أشخاص أفادوا بأنهم رأوا شخصاً ثانياً مع غولدشتاين.

من الممكن أن يكون هذا الشخص قد تمكّن من الفرار مندساً بين جموع المصلين. فإن كان هناك فعلاً رجل آخر مع غولدشتاين، فهذا يحملنا على الإعتقاد بأن مهمته كانت مساعدة هذا الأخير على الهرب. وعندما قُتل غولدشتاين، فلا يكون أمامه إلا الإفلات هارباً.

فمن هو هذا الرجل بالضبط؟

عقب المجزرة مباشرة، أجرت الشرطة والجيش تحقيقاً سريعاً أولياً. بعد ذلك، سرعان ما صدرت الأوامر بتنظيف المكان تماماً من آثار الجريمة رغم احتجاجات الوقف الإسلامي الذي خشي من طمس الدلائل بحجة التنظيف. رُفع السجاد ونُظّف، وكذلك أرض القاعة. وسدّت الثقوب العديدة التي أحدثتها الرصاصات. وقد

أعلن محقق تابع لمختبر الشرطة: "أحصيت إثنين وعشرين ثقباً ولكن نحو خمسة عشر ثقباً كانت قد سدّت".

إستناداً لأقوال الجيش، فإن جميع الظروف الفارغة التي عُثر عليها في المكان ـ ما عدا خمسة ـ أي ما مجموعه مائة وثمانية أخيرة أطلقت من بندقية "جليل" قصيرة من عيار 5.56 ملم وهي التي كانت بحوزة غولدشتاين. كان هناك أيضاً خمسة ظروف فارغة أطلقت من بندقيتي الجنديين اللذين كانا يحرسان مدخل المسجد وأطلقا النار في الهواء. بالإضافة إلى ظرف واحد أطلق من غير سلاح غولدشتاين ومن غير سلاحي الجنديين. لم يعثر على البندقية الإضافية ولا بالطبع على مطلق النار. فهل ثمة أحد آخر أطلق النار؟ ما من دليل. ولكن ليس من المستحيل تخيّل شخص آخر أطلق النار وألصق إلى بندقيته كيساً تساقطت فيه الظروف الفارغة في أثناء إطلاقه للنار. وهي طريقة سجل حدوثها في أعمال إعتداء والغرض منها عدم ترك أدلة إتهام في مكان الحادث.

ثمة شيء مؤكد: فاستناداً للجيش الإسرائيلي وللجنة التحقيق، يبلغ عدد الأشخاص المصابين بالرصاص في قاعة إسحق ـ بين قتلى وجرحى ـ مائة وأربعة وخمسين شخصاً. بينما حسب المصادر نفسها أطلق غولدشتاين في القاعة مائة وثماني طلقات، منها سبعة وثلاثون أصابت الجدران.

* * *

في خضم حالة الهلع التي إستولت على المصلين في قاعة إسحق. إلتقط الميكروفون الذي كان مفتوحاً في المسجد صراخاً تناقلته مكبرات الصوت إلى المدينة لرجل يولول قائلاً: "اليهود يذبحوننا في الحرم الإبراهيمي! تعالوا أنقذونا!". رددت مساجد أخرى هذا النداء. في تلك الساعة كان معظم سكان الخليل البالغين مائة وعشرين ألفاً مستيقظين. فقد انتهوا من سحورهم للتو. اندفعوا إلى أسطح المنازل وفي الفناءات وفي الشوارع. ومن كافة حارات المدينة ترددت صرخة واحدة: "الله أكبر". صرخة كرب رهيبة.

في تلك الأثناء، راح الناجون ينقلون الجرحى والقتلى من القاعة. لم تستغرق العملية أكثر من ربع ساعة. في البداية أراد الجنود منع عملية الإخلاء. ربما خشية حدوث إضطرابات. أطلقوا النار في الهواء فأصابت شظية ناجمة عن إطلاق الرصاص إمرأة من المصلّيات. غير أن الجمهور الذي أهاجته النكبة اجتاحهم. بدأت سيارات الإسعاف والفرق الطبية في الوصول إلى المكان وإخلاء المصابين إلى مستشفى "عالية" ومستشفى "الأهلي". ساعدتهم في ذلك السيارات الخاصة. وسارع شبان إلى نقل القتلى لدفنهم بأسرع وقت ممكن. عملاً بالتقاليد الإسلامية أولاً. ولكن هذا ليس هو السبب الوحيد. فغالباً عندما ينقل الجيش الإسرائيلي القتلى للتشريح، يحتفظ بالجثث لمدة أسبوع. مما يزيد من أحزان العائلات المنكوبة. التي تخشى ـ دفعاً للشائعات ـ أن ينتزع الإسرائيليون من أجساد القتلى أعضاء لإعادة زراعتها في أجسام مرضى آخرين.

في ذلك الصباح، عقب المجزرة، انفجرت الإضطرابات في الخليل وهرول الشبان للتظاهر أمام المستشفيات. أقاموا الحواجز، وأشعلوا الإطارات المطاطية. واشتبكوا مع الجيش. أما العائلات، فهرولت للتعرف على قتلاها في المستشفيات التي اكتظّت بالمصابين. وكلما أعلن عن إسم قتيل، يهتف الجمهور

"بالروح، بالدم نفديك يا شهيدا". وجهت نداءات للتبرع بالدم عبر مكبرات الصوت في المساجد. وعلى أبواب المستشفيات استطالت لائحة أسماء القتلى والجرحى. وإلى لائحة ضحايا المجزرة أضيفت عمّا قليل أسماء خمسة متظاهرين قُتلوا ونحو عشرين جريحاً سقطوا في أثناء الإشتباكات مع الجيش. وعلم أن أحد الضحايا من هؤلاء سقط بعد أن تبرع من دمه للمستشفى "الأهلي" بقليل. مدير هذا المستشفى الدكتور محمد أبو رميلة، اتهم الجنود بأنهم أطلقوا النار على الجمهور المحتشد حول مستشفاه دونما سبب.

نشب نزاع مرير بين الجيش الإسرائيلي، من جهة، والشبان الفلسطينيين من جهة أخرى من أجل استعادة الجثث. طوّقت مقابر المدينة بقوات الجيش الإسرائيلي. ذهب السكان للبحث عن أماكن أخرى لدفن موتاهم. فعثروا مثلاً على مقبرة قديمة مهجورة منذ زمن بعيد. وبينما كان عطية محمد سليمان، البالغ من العمر إثنين وثلاثين عاماً، يحفر قبرين لجثتين، وصل الجنود. قذفهم أحد الحاضرين بحجارة. أطلق جندي الرصاص وأصاب أحد الشبان بجراح، مات متأثراً بها في أثناء نقله إلى المستشفى.

هذا الشاب هو أيمن أيوب قواسمة، في السابعة عشرة من عمره. حمله السكان إلى المقبرة الصغيرة ودفن بجانب الفتحتين الأوليين. ثم عاد سليمان، الذي دفن الضحايا الثلاث، إلى بيته. في الطريق، وعلى بعد ثلاثمائة متر من المقبرة، وجد نفسه وسط إشتباك عنيف بين الشبان وبين الجنود الإسرائيليين. هؤلاء يقذفون الحجارة وأولئك يطلقون الرصاص. يصاب سليمان بجروح بدوره. ويقضي نحبه في الطريق إلى المستشفى. يحمله رفاقه إلى المقبرة ذاتها ويدفنونه في الحفرة ذاتها.

لم يُعرف العدد الإجمالي الحقيقي لضحايا الخليل. واستناداً لأقوال سكان المدينة، فإن هذا العدد هو إثنان وأربعون في المسجد وفي المدينة، بينهم ستة أفراد من عائلة واحدة، وستة أطفال أعمارهم تقل عن الرابعة عشرة، جاءوا للصلاة مع آبائهم. أما الجيش الإسرائيلي، فإنه يقول بوقوع تسعة وعشرين قتيلاً في المسجد وخمسة في المدينة في أثناء الإشتباكات. وبالنسبة لعدد الجرحى، فهو مائة وخمسة وعشرون في المسجد وأكثر من عشرين في المدينة.

ثمة شيء واحد مؤكد، وهو أن الجيش الإسرائيلي قد اتبع تكتيكاً في ذلك اليوم في الخليل، ثبت في الماضي أنه تكتيك مميت وأودى بحياة عدد كبير من الناس. يتمثل هذا التكتيك في الدفع بقوات ضخمة وسط السكان الفلسطينيين، وقت الأحداث، والسماح باستخدام السلاح وإنزال العقاب الجماعي بالسكان[1]. وفقاً لهذا التكتيك، فرض منع التجول في الخليل بعد المجزرة لمدة خمسة أسابيع على السكان الفلسطينيين وليس على المستوطنين اليهود.

في الأسابيع التي أعقبت المجزرة، قتل واحد وعشرون فلسطينياً في أثناء المظاهرات في الضفة الغربية وغزة. واستناداً إلى التحقيقات، التي جرت حول مقتل إثني عشر من هؤلاء، تبيّن أنه لا الجنود ولا الشرطة كانوا مهدّدين بأي خطر. لقد سقط هؤلاء الضحايا كلهم بالرصاص. ولم تستعمل في تلك الأحداث لا الغازات المسيلة للدموع، ولا القنابل المخصصة لتفرقة الجموع، ولا الرصاص المطاطي.

الفصل الثاني

شاب لامع..

من المؤكد أن باروخ غولدشتاين قد خطط لجريمته.. منذ متى؟ السؤال يدعو إلى التأمل في شخصية القاتل. فمنذ صباه كان غولدشتاين معجباً بالحاخام الفاشي مئير كهانا. مؤسس حركة "كاخ" التي تطالب بطرد العرب جميعهم من "إسرائيل الكبرى" إلى البلاد العربية. ولد غولدشتاين لعائلة متدينة في 9 كانون الأول 1956م وكان منخرطاً منذ صباه في "رابطة الدفاع اليهودية" التي أسسها كهانا "منقذ الشعب اليهودي" ـ على حد تعبيره.

أنهى غولدشتاين مرحلة الدراسة الثانوية في مدرسة فلاتبوش ـ بروكلين ـ وقد كانت هذه المدرسة تعلم التوراة. ولكنها تبث في التلاميذ كذلك مشاعر قومية هي الأكثر تطرفاً.

تحدث ليون فيزلتير. مدير الصحيفة الأسبوعية "نيو ريبابليك". والذي درس أيضاً في هذه المدرسة في العام 1970 م. فقال إن المدرسين كانوا يقدمون عرفات بصورة هتلر الجديد: ويؤكدون على أن العالم كله يقف ضد اليهود وأن الفلسطينيين هم أعداؤهم الألداء.

في السبعينات كان تأثير الحاخام كهانا في أوجه في هذه المدرسة. فقد دعي لإلقاء محاضرات على الطلاب وراح يشرح برنامجه لترحيل الفلسطينيين من إسرائيل الكبرى بكل الوسائل. وكان الصبي غولدشتاين يتشرب هذه الأفكار المتطرفة.

في تلك الفترة. كان طالباً مجتهداً. ويحظى بتقدير المدرسين.

في إحدى الوثائق المدرسية. التي تعود إلى تلك الفترة. سجل له أنه "يتمتع بطاقة لا متناهية للقيام بمهمات لا يريد القيام بها معظم التلاميذ". وأنه "شاب لامع ذكي".

وردت أيضاً هذه الملاحظة التنبؤية المثيرة للإستغراب: "لا شك أنه في يوم من الأيام سوف يزلزل الأرض قاطبة".

في العام 1973 م يقفز غولدشتاين عن صف ويدخل الجامعة لمدة أربع سنوات. ففي أثناء دراسته هذه. وتحديداً في العام 1974م. إلتقى شخصياً بالحاخام كهانا. كان يبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً. وقد كان لهذا اللقاء أثر سوف يغير مجرى حياته. بعد ذلك دخل كلية الطب في برونكس. وتخرج منها في العام 1981م.

في تلك الأثناء غيّر إسمه من بنجامين إلى باروخ وصار من أتباع كهانا المتحمسين في الدعاية له. وفي حزيران 1981م مثلاً نشر في صحيفة "نيويورك تايمز" رسالة يطالب فيها بطرد الفلسطينيين من "إسرائيل الكبرى" وقد جاء فيها: "لتجنب الوقوع في حالة شبيهة بحالة إيرلندا الشمالية. لا بد من طرد الأقلية العربية إلى خارج إسرائيل قبل أن تصبح أغلبية". ويختتم رسالته بهذه الكلمات: "سيكون على الإسرائيليين عمّا قريب الإختيار بين دولة يهودية وبين دولة دمقراطية".

الدكتور X (الذي يفضل عدم الكشف عن إسمه) يقدّم صورة عنه غير بهيجة. إذ يقول: "لم نكن نحبه. كانت فلسفته تقول إنه يجب قتل العرب كلهم. كان النقاش معه مستحيلاً. فلا تنقضي دقيقتان حتى يأخذ بالحديث عن إسرائيل. ويسألنا لماذا ـ بصفتنا يهوداً ـ لا نهاجر إلى إسرائيل. ثم يعود للحديث عن العرب وطردهم. كنا نتحاشى الإلتقاء به. وكنّا ندير وجوهنا عندما يمرّ بالقرب منّا لنتجنب وقوع مشادة سياسية أخرى. لم تكن تجذبه الفتيات ولا لعبة كرة السلة ولا الموسيقى. وكان يفعل كل ما بوسعه للحصول على علامات جيّدة. ويكرّس كذلك كل وقته وجهده في خدمة إلتزاماته القومية المتطرفة. كان يفتقر تماماً إلى الظرف. وبدلاً من اللهو والتسلية. كان يتدرب على إستعمال السلاح وعلى الملاكمة في صفوف الحركة الكهانية في نيويورك".

في أحد الأيام من العام 1981م أثار غولدشتاين وأصدقاؤه فضيحة حين وصفوا رئيس الوزراء الإسرائيلي مناحيم بيغن بـ "خائن" عندما وقّع مع مصر إتفاقية السلام التي تنص على إعادة سيناء إلى المصريين. إستُدعي للإستجواب. وفتحت الشرطة الأمريكية ملفاً له. وفي العام 1982م بعد أن أتمّ دراسته في الطب هاجر غولدشتاين إلى إسرائيل.

فور وصوله إلى إسرائيل أصبح عضواً نشيطاً جداً في حركة "كاخ". بما فيها فرع الحركة المسمى "العسكري" وهو "لجنة الأمن على الطرق". حتى أنه أصبح ومنذ العام 1984م أحد المساعدين الرئيسيين لكهانا. في أثناء الإنتخابات للكنيست في تلك السنة كان غولدشتاين يحتلّ المرتبة الثالثة في لائحة "كاخ". وقد إنتخب كهانا وحده من بين أعضاء اللائحة. ومنذ ذلك الوقت أصبح غولدشتاين يرافقه بإنتظام في مهرجاناته التحريضية التي كان يقيمها في الأماكن اليهودية ـ العربية. كان كهانا. وعلى نحو طقسي. يبدأ خطاباته بالصياح: "طاب يومكم أيها اليهود! طاب يومكم أيها الكلاب!". ثم يكرر قوله. وبلا كلل. إن "العرب قتلة متجاسرون. وأنهم يغتصبون بناتنا ويغزون أمكنة عملنا". ويستمر عادةً في وصفهم بـ "صراصير" و"كلاب" و"ثعالب". وكان غولدشتاين يؤازره في تطاولاته.

في تلك الفترة. كان بإمكان المستشار القضائي للحكومة في إسرائيل. إسحق زامير. أن يحظر هذه الحملة المسمومة. ولكنه اعتبر أن الأمر لا يعدو كونه "مجرد طرفة".

بُعيد وصوله إلى إسرائيل شارك غولدشتاين في مشاجرات في مسجد الخليل. للمرة الأولى. وقد كان تورطه في هذه المشاجرات من القوة بحيث اضطر الحاكم العسكري للخليل في النهاية إلى التوقيع على قرار بحظر على غولدشتاين الدخول إلى الحرم لمدة شهر.

خلال خدمته العسكرية كطبيب. والتي استمرت ثلاث سنوات. لم يخف غولدشتاين مشاعره العنصرية. ففي مدرسة الضباط أعلن صراحة أنه "يجب قتل العرب جميعهم". ويؤكد الدكتور "أريبه لانداو". الذي كان معه في مدرسة الضباط ـ الأطباء ويعمل في ضواحي تل أبيب. أن غولدشتاين كان يتبنّى في تلك المرحلة أكثر الآراء تطرفاً. فكان يؤكد ـ على وجه الخصوص ـ أن الدمقراطية وسيادة القانون لم تُخلقا لإسرائيل التي يجب أن يحكمها القانون الديني على وجه الحصر.

لقد كانت لهجته متطرفة إلى حد جعلت بعض الضباط يستغربون كيف أصبح ضابطاً. وأكثر من ذلك ضابطاً ـ طبيباً. ولديه سلاح. على كل حال. فقد رفض غولدشتاين مرّات عديدة في أثناء خدمته

العسكرية، خاصة في لبنان، معالجة جرحى عرب. لقد اضطر ثلاثة جنود دروز من كتيبة غولدشتاين أن يطلبوا نقله، إذ كانوا يخشون من رفضه معالجتهم إذا اقتضى الأمر. والتحق غولدشتاين بوحدة أخرى في نهاية خدمته العسكرية. بعد ذلك، صار يشترك سنوياً في خدمة الإحتياط.

في يوم من الأيام سُمع وهو يقول: "يكفي للعرب طبيب بيطري فقط". في العام 1984، طلب منه حاخام الجيش الإسرائيلي العام الجنرال جاد نافون، أن يعالج الجميع، يهود وغير يهود، إذ قال له: "أنا حاخام، وآمرك أن تتصرف على هذا النحو!". فأجابه غولدشتاين ببساطة: "أنا لا أعترف إلاّ بسلطة واحدة وهي سلطة الحاخام كهانا". غير أنه، وبسبب تفانيه في العمل في الجيش، غضّت السلطات العسكرية عنه النظر، واستمرّ في الخدمة.

في تشرين الثاني 1990، اغتيل الحاخام كهانا في نيويورك على يد عربي. فأقام غولدشتاين عليه حداداً شخصياً. وشوهد في جنازة كهانا، في إسرائيل، على رأسه طاقية بيضاء (كيبه)، وخصلتا شعر عند أذنيه. كان يقف بالقرب من القبر ويصلّي بهدوء وهو يؤرجح جذعه إلى الأمام وإلى الخلف. وفجأة، أطلق صرخة رهيبة رددها بعض الحضور: "الموت للعرب!".

حادثة أخرى لها مغزى أكثر وضوحاً. فقبل عامين من مجزرة الخليل، قدّم لفافة من التوراة إلى الكنيس المقام في الحرم الإبراهيمي. وقال في هذه المناسبة: "سيأتي يوم ينهض فيه يهودي واحد ويقتل عشرات العرب إنتقاماً لمقتل الحاخام كهانا".

إمرأة تقيم في كريات أربع، تسمى جون ليفيت، وهي مهاجرة من الولايات المتحدة أيضاً، صديقة لعائلة غولدشتاين، تحدثت عن غولدشتاين، فقالت إنه كان من عادته أن يطرح هذا السؤال: "إنْ كنت تظن أن الله يريد منك أن تفعل شيئاً ما ولم تفعله، فهل تعتقد أنك كافر؟". فينتهي والداه حسبما تقول، بترديد هذه العبارة: "إسمع يا باروخ، لقد فعلت الكثير من أجل الشعب اليهودي، فلا ضرورة لأن تفعل أكثر".

* * *

إن إختيار غولدشتاين لعيد البوريم مناسبة ليفعل هذا "الشيء"، لم يكن من قبيل الصدفة. ففي هذا العيد يستذكر اليهود تقليدياً ـ وفي جو من الفرح ـ نجاتهم من الإبادة بفضل الملك أحشويروش، وفقاً لما جاء في كتاب استير. ففي تلك الفترة لم ينقذ اليهود سوى تدخل استير، وهي فتاة يهودية متزوجة من الملك احشويروش. إن هذا النص التوراتي الإنتقامي، بالإضافة إلى النصوص التي تتحدث عن إبادة العمالقة، تعتبر من بين أكثر النصوص قسوة في المصادر العبرانية.

يشبه الحاخامون الأصوليون الذين يعيشون في المستوطنات اليهودية في الأراضي المحتلة الفلسطينيين بالعمالقة. فيقولون: "إن هؤلاء الفلسطينيين هم العمالقة، والحرب ضدهم هي حرب أبدية، وفيها يقتل أبرياء أيضاً".

والعمالقة، هم القبائل البدوية التي كانت تعيش في جنوب فلسطين. وقد كانوا أعداء العبرانيين بعد خروجهم من مصر، وتغلّب عليهم الملك داود نهائياً فيما بعد. ومنذ ذلك الوقت ترسخ في الذاكرة اليهودية أن العمالقة هم العدو الرهيب الأول، الذي يجب القضاء عليه بدون أي نقاش. ولهذا ففي عيد بوريم تقرأ أيضاً

قصة العمالقة المذكورة في التوراة، وتقضي التقاليد، بإحياء ذكرى إبادة هامان، العدو الأكبر لليهود في بلاد فارس قديماً، بالإحتفال بپوريم.

وعلى هذا فپوريم هو، في التقاليد اليهودية، العيد الأكثر قومية في طابعه. والإحتفال بپوريم في كريات أربع يرافقه عادةً تحرشات بالعرب، وذلك منذ أن أنشئت هذه المستوطنة على مشارف الخليل.

ويُقام في عيد پوريم كرنڤال من نوع خاص. فالمستوطنون يرسلون أبناءهم للتحرش بالفلسطينيين، وخصوصاً بالمصلين الذين يصلّون في المسجد. أما الحاكم العسكري فيغمض عينيه عن هذه التحرشات السنوية بحجة أنها لا تدوم سوى نهار واحد.

يروي تسفي بارئيل، الذي كان نائباً للحاكم العسكري في الخليل في سنوات السبعين، والذي يعمل اليوم صحفياً في جريدة "هآرتس"، التحرشات والتهديدات ضد الفلسطينيين التي تسم العيد بسمتها الخاصة. يحكي، خاصةً، عن الأفعال الشريرة لمستوطن يدعى اليعزر برواريس، وهو مهاجر من روسيا، يغطي وجهه بقناع على شكل مَسخ، ويحمل بلطة في يده ويروح يهدد السكان. وهذا ليس فقط في يوم اليوم، فبالنسبة له يبدأ العيد قبل هذا اليوم بأسبوع أو أسبوعين. ولا أحد في الخليل يمكنه أن يضع له حدوداً خشية من بلطته. وصار الحاكم العسكري مضطراً لإرسال الجنود لمنع هذا المستوطن من التمادي في شرّه.

في عيد پوريم في العام 1983 في مدينة الخليل أطلق مستوطنون النار باتجاه بيوت الفلسطينيين ولمدة ساعتين، جرحت جراء ذلك طفلة تبلغ من عمرها أربع سنوات. فاشتكى والدها، الذي تمكّن من معرفة هوية مطلقي النار، للشرطة فلم تحرك ساكناً.

لهذا، فإن أناساً قد رأوا في المذبحة التي ارتكبها غولدشتاين نوعاً من "لعبة پوريم". منهم، مثلاً، أحد أعضاء الكنيست، وهو حنان پورات العضو في "الحزب القومي الديني" (المفدال) وأحد مسؤولي الحركة الإستيطانية "غوش إيمونيم" (كتلة الإيمان). وقد وصل إلى مقر المجلس البلدي في كريات أربع بعد المجزرة ببضع ساعات. وراح يلوّح بزجاجة نبيذ أمام كاميرات التلفزيون. وفي ردّه على صحفي، سأله عن ردة فعله بعد المجزرة، أجاب: "عيد پوريم سعيد!". الجميع فهم ماذا كان يقصد من ذلك. قال أحد الضباط الإسرائيليين الذي كان موجوداً آنذاك في مجلس بلدية كريات أربع، أنه أصيب بصدمة حين رأى حنان پورات يقترح شرب نخب ذلك اليوم العظيم.

* * *

كان باروخ غولدشتاين عضواً في مجلس بلدية كريات أربع على مدى ثلاث سنين وقد انتخب على رأس قائمة "كاخ". وراح غولدشتاين يمعن في مواقفه المتطرفة بقتل العرب.

قبل المذبحة ببضعة شهور، استقال ليخلي مكانه لباروخ مارزل، الأمين العام لحركة "كاخ". وقد تميّز غولدشتاين بمواقفه البالغة في التطرف ليس فقط بالنسبة للفلسطينيين. فقد اعترض، مثلاً، على ربط المستوطنة بشبكة التلفزيون، مؤكداً على أن هذا من شأنه أن يحوّل إهتمام السكّان عن التوراة والدين اليهودي. في العام 1991 م ـ وكان ما يزال عضواً في المجلس ـ نشر في النشرة المحلية لكريات أربع رسالة قصيرة عن ضرورة الإنتقام من العرب. وفي هذه الرسالة هاجم بعض القادة في المستوطنة الذين أدانوا

إطلاق النار على سيارة عربية إنتقاماً لمقتل شرطي إسرائيلي على يد الفلسطينيين. ففي رأيه أن أعضاء المجلس البلدي يجب أن يناقشوا مسألة الإنتقام وفقاً للمعايير اليهودية. وقد اقترحت كتلة "كاخ" تنظيم نقاش عام حول المسألة التالية: "هل الإنتقام من الغوييم (غير اليهود) جريمة أم عمل إستشهادي؟".

وما شجع غولدشتاين على المضي قدماً على هذا الطريق إصدار الحاخامات القوميين المتطرفين فتاوى دينية تحلل إستعمال العنف والعنصرية ضد العرب، بإسم قدسية "أرض إسرائيل" (الإسم التوراتي لفلسطين). فراح يشارك بإنتظام في المشاجرات التي تجري بين المستوطنين والسكان الفلسطينيين.

وكان يحدث أن يعمد المستوطنون، لدى مرورهم في أسواق المدينة، إلى ضرب الفلسطينيين، ويقلبون المسطحات ويلحقون الأضرار بالسيارات.

وكان الجنود يمتنعون عموماً عن التدخّل، ما يجعل غولدشتاين يستنتج أن كل شيء مسموح في هذا المكان الذي ينعدم فيه القانون وإسمه مدينة الخليل.

ولقد فتحت له ثلاثة ملفات في قضايا عنف واضطرابات في الخليل. إثنان منها بشأن الحرم الإبراهيمي. والأخير، الذي يعود تاريخه إلى نيسان 1991م، يتهمه بقلب مكتبة للكتب الإسلامية في قاعة إسحق إنتقاماً للمساس بقدسية أشياء خاصة بالعبادة اليهودية. أغلقت هذه الملفات بما فيها ملف أيار 1990م الذي يشتمل على تنظيم حملة إنتقامية في قرية بيت أمّر في قضاء الخليل عقب عملية إطلاق النار على حافلة ركّاب خاصة بمستوطنات المنطقة.

في تشرين الأول 1993م هاجم غولدشتاين وأصدقاؤه إمام الحرم الإبراهيمي وستة من حرّاس الوقف وبعض المصلّين. وقد رشّوا في هذه العملية مواد لاصقة على سجاد المسجد. وفي برقية إحتجاج أرسلت يوم 16 تشرين الأول 1993 م إلى رئيس الوزراء ووزير الدفاع إسحق رابين تحدث رئيس الهيئة الإسلامية في القدس عن شخص في هذه الإعتداءات وإسمه باروخ غولدشتاين. وبعد المجزرة، وعندما نُشرت صورة غولدشتاين في وسائل الإعلام، عرف أعضاء الوقف فيه مرتكب أعمال الإعتداءات في تشرين الأول 1993. في تلك البرقية، أضاف رئيس مجلس الوقف الشيخ عبد الحازم سلهب: "لم نشعر في أي وقت من الأوقات أن السلطات الإسرائيلية قد اتخذت موقفاً من تصرفات هؤلاء المعتدين".

كان مسؤولو الحرم الإبراهيمي يتقدمون بشكاوى ضد المستوطنين دائماً، حين يلهون بخلط أحذية المصلّين في المدخل مثلاً أو حين ينثرون الدبابيس على سجادة الصلاة. جميل النتشة، إمام الحرم الإبراهيمي الذي اعتدى عليه غولدشتاين مع أصحابه في تشرين الأول 1993، قتل هو الآخر في المذبحة. يعرف أنه، وبرغم الزخّات الأولى التي أطلقها غولدشتاين، لم يحاول أن يختبئ بل على العكس نهض في مواجهة القاتل وصرخ: الله أكبر! وقد أجهز عليه غولدشتاين بصلية رصاص.

تميّز باروخ غولدشتاين كذلك، بإحتجاجاته المستمرة على اليهود الذين لا يفكرون مثله. فقبل المجزرة بعامين جاء محام إلى كريات أربع ليلقي محاضرة عن التاريخ اليهودي، فمنعه غولدشتاين وأصحابه من التحدث بحجة أنه انتقد في السابق "كاخ" والحاخام مئير كهانا. فقد صرخ في وجهه قائلاً: "هذا الرجل يجب ألا يأتي إلى كريات أربع" وانتهى الأمر بإلغاء المحاضرة.

حدث آخر معروف: قبل المذبحة ببضعة أسابيع جاء عيزر وايزمان، رئيس دولة إسرائيل، لزيارة كريات

أربع. إستقبلته مجموعة من "كاخ" بالشتائم "خائن" إلخ. تقدّم غولدشتاين ووضع نجمة صفراء على سترته وهتف في وجه وايزمان: "نازي..! نازي..!". وقد نُشرت صورته في الصحافة في تلك الفترة.

قبل المجزرة بأسبوعين جاء غولدشتاين لزيارة إمرأة من كريات أربع وهي راحيل مينتغ. سجينة في سجن أيالون. في الرملة. وتنتظر تسليمها إلى الولايات المتحدة حيث ستحاكم بتهمة القتل (زوجها حُكم بالسجن مدى الحياة في كاليفورنيا للجريمة نفسها التي ارتكبت في 1980. بعد الجريمة بسنة واحدة طالبَ الزوجان بتطبيق قانون العودة عليهما فجاءا إلى إسرائيل وأقاما في كريات أربع). ولقد ماتت راحيل مينتغ بالسكتة القلبية قبل تسليمها. وقبل ذلك تحدثت عن أمر صارحها به غولدشتاين لدى زيارته لها في السجن. إذ قال لها: "ما يحدث حولنا أمر لا يُطاق.. أشعر أنني لم أعد أستطيع ضبط نفسي.. سأتصرف".

وقد علمنا بعد المجزرة أن غولدشتاين إعتاد على زيارة سجن أيالون مرّتين في الشهر. وقد كان يلقي على المساجين خطابات مليئة بالحقد على العرب الذين يجب. على حد قوله. طردهم وحتى إبادتهم "لأنهم كالعمالقة". كذلك كان له لقاء على إنفراد مع سجين محكوم بالسجن المؤبد لإقدامه عام 1990 على قتل سبعة عمال فلسطينيين من غزة. وهو عامي بوبر. عمّا كان يتحدث الرجلان؟ ليس من المحظور الظن بأن غولدشتاين كان حينها يعد لمجزرته ويجمع معلومات من رجل مرّ بالتجربة ذاتها. لقد كشف لأحد أصدقائه. منير ليهد. عمّا ينوي فعله عملياً. ووردت شهادة هذا الأخير في الوثيقة رقم 1088 للجنة التحقيق.

قبل المذبحة بتسعة أيام أجرى صحفي أمريكي توماس روبرتس. مقابلة صحفية مع غولدشتاين. جاء في المقابلة هذه العبارة لغولدشتاين: "هذه مقابلة مخصصة للصحافة المكتوبة. إذا أردت تصويري للتلفزيون. سيكون من الأفضل أن تطلب إذناً من سلطات السجن حيث سأكون هناك في السنوات القادمة". في المقابلة ذاتها طرح أفكاره مجدداً. قال. مثلاً. إن الشعب اليهودي مثل الحمل بين سبعين ذئباً وأن اليهود لن يغادروا الخليل أبداً. يستحيل على الشعب اليهودي أن يعيش مع العرب. "لقد سئمنا العرب. إنهم مثل مرض معد. مثل الطاعون"..

ثم سأله الصحفي عمّا إذا لم يكن هناك تناقض بين آرائه وبين صفته كطبيب؟ أجاب غولدشتاين بالنفي واستشهد بآية من التوراة: "ثمة وقت للقتل ووقت للإشفاء". كل هذا يحمل على الإعتقاد بأن غولدشتاين لم يكن يعتزم الإنتحار وقت فعلته التي كان يظن أنه سيخرج منها حياً. وأكثر من هذا كان يأمل بألاّ يمكث في السجن وقتاً طويلاً. فهو يعرف في الحقيقة واقع الأحكام التي غالباً ما تكون مخففة على نحو يبعث على السخرية والتي تصدر بحق اليهود الذين يقتلون عرباً. كان يعرف أنه حتى بعد إصدار حكم بالسجن المؤبد فإن المتهمين يخرجون من السجن بسرعة.

ومن أمثلة ذلك أنه. في 26 تموز 1983م. دخل رجلان ملثمان ومسلحان إلى حرم الكلية الإسلامية في الخليل. أطلقا النار على التلاميذ وقذفا بقنبلة يدوية وهربا في سيارة يقودها رجل ثالث. الحصيلة كانت ثلاثة قتلى وواحداً وأربعين جريحاً بين الفلسطينيين. حكم على الرجال عشرين سنة سجناً ثمّ تمّ تخفيض الحكم إلى خمسة عشر عاماً. ثم إلى عشر سنين. وأخيراً فإن هؤلاء القتلة. الذين اعتقلوا في العام 1984 م قد أطلق سراحهم في العام 1990م. لقد أمضوا في السجن ما مجموعه ست سنوات وثمانية أشهر فقط.

يجب ألا نستغرب أنه بعد مجزرة الخليل طرحت الصحافة الإسرائيلية السؤال التالي: ألم تشجع هذه التخفيضات في مدد السجن أشخاصاً مثل غولدشتاين؟

هذا ليس كل شيء، فباروخ غولدشتاين كان يعرف أنه في أثناء المجزرة التي كان يخطط لها، لن يتعرض لخطر الإصابة برصاص من الجنود الإسرائيليين. وهذا يشكّل جانباً هو من أكثر الجوانب إستعصاءً على التصوّر في هذه القضية. ففي أثناء مداولات لجنة التحقيق دهش الإسرائيليون حين علموا أن جنود الجيش لديهم أوامر بعدم إطلاق النار على المستوطنين مهما كانت الظروف.

وهنا لا بد من إيراد بعض الأسئلة والأجوبة التي جاءت في محضر لجنة التحقيق، وهو نص رسمي وليس سيناريو سوريالياً كما يمكن أن يخيّل للبعض.

سؤال: ما هي الأوامر بخصوص إطلاق النار؟

الكولونيل منير تايار (قائد وحدة حرس الحدود في الخليل): الأوامر هي "إذا أطلق مستوطن أو يهودي بشكل عام النار على شخص فلا يجب إطلاق النار عليه بأي حال من الأحوال".

سؤال: هل رأيت هذا مكتوباً؟

الكولونيل منير تايار: أنا شخصياً لم أره مكتوباً. ولكن في كتيبتنا، وفي أثناء إجتماع ضم ستين أو سبعين ضابطاً، قالها القائد صراحة. وقد عقدت إجتماعات على غرار هذا الإجتماع في كافة كتائب الفرقة.

سؤال: هل يعني هذا أن المستوطن يمكن له أن يطلق النار وأنتم لا يمكنكم إطلاق النار عليه؟

الكولونيل منير تايار: نعم. يمكننا فقط السيطرة عليه بعد أن يكون قد أفرغ مخزن سلاحه.

سؤال: الإنتظار وهو يقتل؟ هل سمعت شخصياً هذا الكلام خلال أداء عملك؟

الكولونيل منير تايار: نعم، ولست أنا فقط.

سؤال: ممن سمعت هذا الكلام؟

الكولونيل منير تايار: من قائد كتيبة الخليل (الكولونيل منير عليفي) وأعرف أنه في الكتائب الأخرى قيل الكلام نفسه. فقد أثير الموضوع في أعقاب تحقيق تلفزيوني شوهد فيه مستوطنون يطلقون النار على عرب بينما كان الجنود ينظرون إلى ذلك دونما تدخّل.

سؤال: هل هذا الأمر الذي يقضي بعدم فعل شيء لإيقاف شخص يطلق النار حتى ولو كان يطلق النار بإتجاهكم، هو غريب. أليس كذلك؟

الكولونيل منير تايار: نعم. لقد سألنا مركز القيادة عمّا إذا كان هذا هو الأمر حقاً، وأجابونا بنعم. هذا هو الأمر.

سؤال: مستوطن يطلق النار على مصلّين وأنتم لا يمكنكم أن تمنعوه، حتى لو بإطلاق النار على ساقيه؟

الكولونيل منير تايار: كلا. يجب الإحتماء لتجنب الإصابة وإنتظار أن يتوقف سلاحه عن الإطلاق. عند ذاك يجب السيطرة عليه دون إستخدام الأسلحة.

* *

السيرجنت جدعون كدار (شاهد آخر): ثمة أمر من قائد كتيبة المنطقة بعدم إطلاق النار على مستوطن

يستخدم سلاحه.

سؤال: لنفترض أنك في سوق الخليل، ورأيت مستوطناً يقتل أناساً. ألا تطلق النار عليه؟ ألا توقفه؟

جدعون كدار: إستناداً للأوامر، يجب نزع سلاحه دون إطلاق الرصاص عليه.

سؤال: ولكن إن كان يطلق النار، كيف يمكن نزع السلاح منه؟

جدعون كدار: إن كان لا يمكن نزع سلاحه من خلال مفاجأته من الخلف، فيجب الإنتظار حتى يفرغ مخزنه. الأمر يقضي بعدم إطلاق النار على مستوطن.

سؤال: الإنتظار حتى يتوقف عن الإطلاق؟

جدعون كدار: محاولة نزع سلاحه من خلال التحدث معه، ولكن عدم إطلاق النار عليه بأي حال.

سؤال: هل أنت متأكد من هذا الأمر؟

جدعون كدار: نعم.

سؤال: لنفترض أنه يطلق النار عليك..

جدعون كدار: إذا كان يطلق النار عليّ فالأمر يقضي بأن أحتمي من الرصاص.

سؤال: وإذا رأيته يقتل إمرأة أو طفلاً؟

جدعون كدار: الأمر هو عدم إطلاق النار عليه.

سؤال: حتى لو رأيت أنها مذبحة؟

جدعون كدار: حتى لو رأيت أنها مذبحة.. إن أمر قائد الكتيبة هو عدم إطلاق النار.

* *

سؤال: هل سمعت بالأمر القاضي بعدم إطلاق النار على مستوطن يطلق النار بغرض القتل؟

سيرجنت أفيحاي تساهالا (شاهد آخر): ما أعرفه هو أنه إذا أطلق مستوطن يهودي النار فلا يجب أن نطلق عليه. نحتمي ونحاول نزع سلاحه فقط حين يتوقف عن الإطلاق.

* *

سؤال: ما هي الأوامر في حالة إطلاق النار على المسلمين؟

سيرجنت أوري بيرمان (شاهد آخر): لقد تلقينا أوامر بأنه إذا فتح يهودي النار يجب ألا نطلق عليه النار حتى لو أطلق علينا. نحتمي. وبعد أن يفرغ مخزنه نسيطر عليه.

ويروي السيرجنت بيرمان أنه، حين صدرت هذه الأوامر، أعرب عن إعتراضه. فكان الرد: "هذه هي الأوامر. لا شيء يمكن عمله إزاءها".

ضابط العمليات في وحدة "حرس الحدود" المتمركزة في الخليل، فريدي كسكاس، يجيب على السؤال التالي: ماذا تعرف بخصوص أمر إطلاق النار على المستوطنين؟

فريدي كسكاس: أنقل لك ما قاله قائد الكتيبة يوم 29 تشرين الثاني 1993م: "لا يستخدم السلاح، بأي حال من الأحوال، ضد مستوطن يهودي في الخليل حتى لو عرّض هذا المستوطن حياتي للخطر أو حياة

عربي وُجد بالقرب منه".

سؤال: ماذا تعرف بشأن أوامر إطلاق النار؟

إسحق دهان: على المستوطنين؟

سؤال: نعم.

إسحق دهان: لقد تلقينا الأمر بعدم إطلاق النار على مستوطن حتى لو أطلق النار علينا. فالأمر كان واضحاً جداً: يجب عدم إطلاق النار على مستوطن.

إسحق دهان: يجب عدم إطلاق النار على يهودي.

أكد الجنرال موشيه يعلون ـ وهو قائد سابق للجيش الإسرائيلي في الضفة الغربية ـ هذه الشهادات بصورة شاملة حين أعلن: "أن الجنود لم يكن لديهم تخويل بفتح النار على المستوطنين".

في إجتماع لقادة الكتائب عند قائد الفرقة في الضفة الغربية، الجنرال شاؤول موفاز، في تشرين الثاني 1993م، صدر الأمر القاطع التالي: "يجب عدم إطلاق النار على المستوطنين". سأله أحد قادة الكتائب: "وماذا يحدث لو أطلق النار عليّ أو على جنودي؟". فأجاب الجنرال موفاز: "برأيي إحتموا حتى يفرغ المخزن من الرصاص". سأل الكولونيل دافيد بن شيمول ـ من "حرس الحدود" ـ: "ألا يتعارض هذا مع أوامر الشرطة؟". فكرر الجنرال موفاز عبارته: "يجب عدم إطلاق النار على يهودي، فقط. هذا كل شيء..!"(2).

• •

ما الذي كان يريده غولدشتاين من إرتكاب هذه الجريمة التي أمعن التفكير فيها كل هذا الوقت؟ شهادات عديدة تحمل بداية الإجابة على هذا السؤال. لقد سمعه بعض أصدقائه عشية المذبحة يقول "إن عملاً جنونياً فقط هو الكفيل بوقف الخيانة ـ أي عملية السلام". وإذا صدقنا عوزي كوهين، وهو صديق قديم لغولدشتاين، فإن هذا الأخير إزداد موقفه تصلباً في الأيام الأخيرة قبل المجزرة. وقد تلفظ بهذه الكلمات "يجب إيقاف هذا القطار الخطير ولا بد من عمل متطرف".

أجابه عوزي كوهين إذ ذاك: "إن فعلت ذلك سوف تسجن مدى الحياة وسوف نفقدك".

تأتي شهادة تسفي كاتسوفر رئيس مجلس مستوطنة كريات أربع في الإتجاه نفسه. فقد صارحه غولدشتاين قبل المجزرة بقليل قائلاً: "إنه لمن الواجب نسف عملية السلام".

ومن المعروف أن غولدشتاين، وقبل بضعة أيام من تنفيذ جريمته، كان قد وجد وقتاً ليذهب ويدلي بشهادته لصالح أربعة شبّان أعضاء في حركة "كهانا حي" إتهموا برمي قنبلة يدوية في سوق اللحوم في القدس القديمة، مما أدى إلى مقتل فلسطيني يبلغ من العمر أربعاً وسبعين سنة وجرح سبعة آخرين. وفي منشور معادٍ لمسيرة السلام يحمل توقيع غولدشتاين وزع في كريات أربع، يقول على وجه الخصوص: "حان الوقت لنصحو من رقادنا ونقول: كفى!".

في الأيام السابقة للمجزرة رأى شهود عديدون غولدشتاين يزور مكان الجريمة لمرّات عديدة. واستناداً إلى جندي من "حرس الحدود" لا يريد ذكر إسمه، فقد كان يتصرّف على نحو غريب. كان يتسكّع، وينتظر، ويدخل أحياناً إلى قاعة إسحق للصلاة. لا يتحدث مع أحد ويأتي دائماً وحيداً يرتدي ثياباً مدنية ولكن مسلّحاً. وحين

سُئل هذا الجندي لماذا لم ينقل هذه الملاحظات إلى رؤسائه أجاب أن ثمة الكثير من الناس غريبو الأطوار.

شاهد آخر كان أكثر دقّة بخصوص هذه الزيارات التحضيرية وهو محمد ربيع الذي كان في مستشفى "عاليه" في الخليل. قال: "منذ بداية رمضان. كان من عادة غولدشتاين أن يأتي إلى المسجد عدّة مرات في اليوم. كان يتجوّل في كل أرجائه. وبيده حقيبة صغيرة. قد يكون أنه في تلك اللحظات كان يخطط للمجزرة. حين أخبروني أنه هو القاتل. تذكرت كل ذلك". إن هذا الشاهد. الذي أفلت من الرصاص داخل المسجد. جرح على يد الجنود الذين ضربوه في أثناء التدافع الذي حدث في أثناء إخلاء المكان.

* *

لو قُدّر لغولدشتاين أن يحضر جنازته لرأى أنه ليس معزولاً. فقد كان لجنازته. في الواقع. طابع التظاهرة تأييداً للقاتل. في كلمة التشييع قال يسرائيل هرئيل. الحاخام السابق لمستوطنة "يميت" في سيناء مقارناً غولدشتاين بيهودا المكابي وبشمشون: "غولدشتاين شهيد. مكانته فوق مكانة الصدّيقين ومبادرته. التي أراد بها إنقاذ الشعب اليهودي. هي مبادرة مشرّفة (..) سوف نمتلك أرض إسرائيل بالدم. وليس بإتفاقيات السلام". قبل دفن جثة غولدشتاين. في حديقة مئير كهانا في كريات أربع. ألقيت كلمات التشييع التالية: "لا بدّ لنا. كل يوم من رجل يتحلّى بشجاعة غولدشتاين ليصفّي خمسين عربياً. فإنما بهذا يتغير وجه الشرق الأوسط".

لم تتحرك السلطات حين قيلت هذه الكلمات المشجّعة على العنف وسفك الدماء. ولم يتخذ أي إجراء عقابي.

بعد المذبحة لم تشرّح جثة غولدشتاين. وشقيقه هو الذي تعرّف على الجثة. ولم يُدفن في مقبرة اليهود في الخليل خشية من نبش قبره على يد الفلسطينيين. بل في حدائق مئير كهانا. بالقرب من السوق التجاري لكريات أربع. لقد دفن غولدشتاين على حالته التي وُجد بها في المسجد. أي بدمائه وبدون الكفن الأبيض التقليدي. وهو شرف يُمنح للشهداء فقط. أما القبر فهو من الأسمنت المسلّح. منفرد. تحرسه الشرطة. وسرعان ما أصبح مكاناً للحج يأتي إليه المستوطنون للصلاة ولقراءة آيات من التوراة.

حضر مئات الأشخاص أمام الشقة التي كان يعيش فيها غولدشتاين في البلوك رقم 306 في كريات أربع. على باب الشقة. ثمة صورة كبيرة مركّبة: بدلاً من المسجدين في حرم القدس الشريف يقوم بناء واحد. وهو الهيكل اليهودي الذي بناه هيرود.

والدة غولدشتاين تدعى مريام. وهو إسم أرملته أيضاً. وهي تشيد بإبنها فتقول: "الكل يعلم أن العرب كانوا يحضّرون عملية ضخمة ضدنا. وقد حال إبني دون وقوعها. يا له من رجل نقي..! ويا لها من مسؤولية تلك التي أخذها على عاتقه. لقد أنقذ الشعب الإسرائيلي. وقد كان يحب الشعب اليهودي أكثر ما يحب نفسه".

طوال أسبوع الحداد التقليدي كانت تُسمع دائماً عبارات الثناء. وحتى لا يبدو الحداد عادياً. رفضت أرملة غولدشتاين بتفاخر إرتداء السواد. كان الكثيرون يتصلون بها على الرقم 936135 (لقد تغيّر هذا الرقم منذ ذلك الوقت) للإعراب عن إعجابهم "بالبطل غولدشتاين". أحد المتصلين. وكان جندياً. قال لها: "ليس

بمقدوري أن أقتل في معركة هذا العدد الذي قتله غولدشتاين في بضع دقائق".

في الحقيقة، ورغم كل شيء، لا يتفق سكان كريات أربع، كلهم، على هذا الموقف. فمنهم من هو معجب ومنهم من يشجب. والسكان، الذين يعربون عن إعتراضهم على الجريمة، يُشتَمون ويهَدَّدون بالضرب. ولكن أحد الزوّار الذي كان في تلك الأثناء في كريات أربع، قال: "إن بلدة طبيبها قاتل لا يجب أن تُدعى كريات أربع، بل سدوم وعموره".

وقد وقعت حادثة غريبة بعد الجزرة. جاءت مريام غولدشتاين، أرملة القاتل، إلى مركز الشرطة لتقدّم شكوى على مقتل زوجها. وطالبت بفتح تحقيق لمعرفة أسباب موته. لم يحدث قط أن دانت فعلته. وبعد نشر تقرير لجنة التحقيق، في حزيران 1994، وزّعت بياناً في كريات أربع قالت فيه إن زوجها قتل على الأرجح في حادث وقع بينما كان أحد المصلين يحاول إنتزاع سلاحه في أثناء الصلاة. وتضيف أن كل ما حدث كان محاولة للدفاع عن النفس من قبل زوجها. ثم تقدم أيضاً سيناريو آخر في دفاعه عن نفسه. قد يكون زوجها جرح بعض المصلّين. بينما الجزرة هي من فعل مستوطن آخر أو جندي.

* *

في شارع يهوشواع بن نون، وهو الشارع الذي يسكن فيه غولدشتاين، ثمة أم شابة يرافقها ولداها الصغيران، وتدفع أمامها عربة أطفال.

"كلّنا باروخ غولدشتاين". قالت لصحفيين كانا يلتقطان صوراً. "لقد أسميت الولد باروخ، قبل أن يُغتال طبيبنا. لقد قررت أن أسميه بهذا الأسم لأنني كنت أرى فيه رجلاً خارقاً. أنقذ كثيراً من اليهود وجنبنا كوارث. وإنني أدعو الله أن يسير إبني على خطاه ويواصل قتل العرب".

يحتدّ أحد الصحفيين:

ـ كفى، كفى! سئمنا سماع هذه الحماقات!

ـ يا له من رجل عديم الثقافة! أجابت الأم الشابة متوجهة بحديثها إلى الصحفي الآخر. إسمعه ماذا يقول!

ـ ربما هو ضد ما فعله غولدشتاين. ردّ عليها الصحفي بحذر.

ـ ولكن لماذا إنعدام الثقافة هذا؟ أجابت المرأة. يجب أن يتمتع كل واحد بحق التعبير عن رأيه. فهو ضد قتل العرب، وأنا مع قتلهم. هل في هذا خطأ!

في النهاية، توجهت المرأة إلى الطفل، الذي يبلغ من العمر نحو الثامنة، قائلة:

ـ يجب قتل من يا أفشالومي؟

ـ العرب! أجاب الطفل.

ـ لماذا؟ سألته أمه.

ـ لأنهم قتلة.

ـ ممتاز يا صغيري. هذا حق ممتاز. قالت الأم وهي تمسح رأس إبنها.

الفصل التاسع

أخطاء لجنة شمغار

في 26 حزيران 1994، ظهراً، بثّ راديو "صوت إسرائيل" نشرة أنباء موجزة أعلن فيها العناوين الرئيسية لتقرير لجنة التحقيق الرسمية حول مجزرة الخليل، التي شكّلت قبل ذلك بأربعة أشهر. خلص التقرير إلى النتائج التالية:

تصرّف غولدشتاين بمفرده. لا أحد كان يعرف بنواياه. كان عملاً فردياً، ولم يكن هناك تواطؤ من أي نوع. لا علاقة للمستوطنين بما حدث. وقد تبنى التقرير كلمات رئيس هيئة الأركان الذي أعلن أمام لجنة التحقيق أن هذه الجريمة كانت "مثل قصفة رعد في سماء زرقاء".

في مكاتب مجلس مستوطنة كريات أربع أطلق المستوطنون، لدى سماعهم هذا الموجز، تنهيدة إرتياح. فمنذ شهور يعيشون حالة قلق وإنشغال. صرح تسفي كاتسوفر، رئيس المجلس المحلي فيما بعد قائلاً: "كنت أتوقع أن يكون التقرير أكثر قسوة بكثير". أعلن مجلس المستوطنات في الضفة والقطاع بدوره قائلاً: "لقد عززت اللجنة موقفنا إذ اعتبرت أن الأمر ما هو إلاّ حادث إستثنائي معزول، وأنه لا يجب إلقاء المسؤولية على المستوطنين". مستوطنون آخرون قالوا للصحافة: "لم نكن نأمل أن يعاملنا التقرير بمثل هذه الرحمة".

وفي الواقع نقل التقرير على لسان الجنرال داني ياتوم قوله أمام لجنة التحقيق: "إن القسم الأعظم من السكان اليهود في يهودا والسامرة (الضفة الغربية) منضبط تماما، وأن الفوضى تقع غالباً، أو دائماً، إثر أحداث يقتل فيها يهود على يد إرهابيين". نقل التقرير أيضاً ما جاء على لسان العقيد خليفي "إنهم (أي المستوطنون) سكان يتمتعون بالشعور بالمسؤولية ومتعقلون". ثم ينقل التقرير قسطاً هاماً من كلام تسفي كاتسوفر، رئيس مجلس كريات أربع، الذي شدّد طويلاً على "الشعور بالإهمال" الذي يعاني منه المستوطنون.

أما أرئيل شارون، المدافع المتحمّس عن الإستيطان ومصادرة الأراضي المحتلة، فقد أيّد لجنة شمغار ـ التي سمّيت بإسم رئيسها ـ على أساس أنها برهنت على الشعور بالمسؤولية الوطنية بتنظيفها للحكومة الإسرائيلية وللجيش من كل الشوائب بخصوص المجزرة. وأضاف أن تقرير شمغار هو وثيقة نموذجية ساهمت في إعادة المصداقية إلى العدالة التي شوّهها تقرير كاهان (التقرير حول مجزرة صبرا وشاتيلا، نُشر عام 1983م).

لم يخطئ شارون حين قارن بين التقريرين اللذين يفصل بينهما أحد عشر عاماً. فهما مختلفان جداً، إن لم نقل متناقضين. كانت لجنة كاهان صارمة، إذ ذكّرت بأن واجب المسؤولين يتمثل في توقع وجود الخطر وعمل كل شيء للحيلولة دون وقوعه. لقد اعتبرت، في ذلك الوقت، أنه كان يتعين على الجنرال شارون، وزير الدفاع آنذاك، أن يتوقع إرتكاب الكتائب اللبنانية مجزرة بين الفلسطينيين حين سمح الجيش الإسرائيلي

الذي كان يحتل بيروت، لعناصرها بالدخول إلى المخيمين. وتأخذ اللجنة على شارون وكذلك على رئيس هيئة الأركان رفائيل إيتان، ومسؤولين عسكريين آخرين، عدم إتخاذهم الإجراءات الضرورية لمنع وقوع المجزرة أو لإيقافها.

في هذه المرة كان العكس. فمع أن تقرير لجنة شمغار يقرّ بأن أجهزة الأمن الإسرائيلية حذّرت من إحتمال إرتكاب المستوطنين لمجزرة، إلاّ أن هذا التقرير لا يعترف إلاّ بمسؤولية شخص واحد، وهو باروخ غولدشتاين ويبرئ الأطراف الأخرى كلها، العسكريين ورجال السياسة.

مكيالان ومعياران

لو كانت هناك لجنة تحقيق أكثر جرأة لكانت ولا شك قررت أنه يتعين على وزير الدفاع طرد المستوطنين المتطرفين من الخليل. والواقع أن اليمين ـ "الليكود" "والمفدال" ـ أشادا بتقرير شمغار. أما حزب "العمل" الحاكم فقد عبّر عن الإرتياح ذاته. لم يتهم التقرير أي مسؤول مدني أو عسكري. وبهذا فقد جنب الحكومة الإسرائيلية هزة عنيفة. وقد عبر بعض أوساط التحالف الحكومي عن هذا الإرتياح بالقول "لم نكن نتوقع شيئاً أفضل من هذا".

في إجتماع للحكومة طلب موشيه شاحل، وزير الشرطة، زيادة في موازنته ليتمكن من تنفيذ توصية للجنة شمغار تنص على زيادة ملاك الشرطة في الأراضي المحتلة. أجابه وزير المالية: "سأعطيك ساعتين منبّهتين" (إشارة إلى حراس الحرم الإبراهيمي الذين لم يستيقظوا صباح المجزرة في الوقت المعتاد). وانفجر الجميع في الضحك. أكثرهم إرتياحاً كان دافيد ليباني، وزير القضاء، الذي شجع تشكيل هذه اللجنة. كان هدفه الرئيس هو تبرئة الحكومة الإسرائيلية من أية شبهة أمام الرأي العام العالمي. فقد قال "كنت أعلم أنه من غير الممكن إدانة الحكومة". أما وزراء ميرتس (تحالف اليسار) فلم ينطقوا بكلمة إنتقاد لهذا التقرير.

ساد فرح حقيقي في هيئة الأركان العامة للجيش. فقد أعلن إيهود براك، رئيس هيئة الأركان: "إنني سعيد للغاية لكون اللجنة لم تتهم بالإسم أي ضابط رفيع المستوى". أكثر الدوائر براءة، وفق التقرير، هي مصلحة الأمن العام. فبعد أن قبلت اللجنة تفسيراتها، خصتها بأفضل التنويهات. في أوساط اليسار والليبراليين بالمقابل، كانت هنالك إنتقادات. تساءلت هذه الأوساط عن السبب الذي جعل اللجنة تقتصر على القاتل دون البحث في "الخلفية". لماذا اقتصرت على تعيين البعوضة دون النظر إلى المستنقع الذي بدونه لا وجود لهذه البعوضة. تحركت حركة "سلام الآن" فأعلنت ما معناه: "أن التقرير يعالج الأعراض وليس المرض".

حتى في "ميرتس" أعرب النائبان ديدي تسوكر وران كوهين عن خيبتهما، برهنت اللجنة، حسب تعبيرهما، على تساهل إزاء المستوطنين مثير للتساؤل. أعرب رئيس بلدية الخليل مصطفى عبد النبي النتشة عن ذهوله من هذا التقرير الذي لا يكترث بحماية المصلّين المسلمين في المسجد الإبراهيمي. وشبّه النائب الجبهوي هاشم محاميد نتائج التقرير بالإسبرين الذي يعطى للمحتضر. فأعلن: "أخشى أن يبرز غولدشتاين جديد. إن كثيراً من المستوطنين يرون في غولدشتاين نموذجاً يحتذى. وهذا بحد ذاته يثير الفزع".

أوجز صحفي إسرائيلي هذه الإنتقادات بعبارة ذات معنى مزدوج حين قال: تمخض شمغار عن "عخبار" (عخبار بالعبرية تعني فأراً). وحقاً، تمخض الجبل فولد فأراً. وتساءل المرء: هل كان ضرورياً أن تشكل لجنة تحقيق بهذا المستوى لكي تخرج علينا بنتائج مفادها وجوب فصل المصلين المسلمين عن اليهود في الحرم الإبراهيمي وعدم السماح بإدخال الأسلحة، وتحسين وسائل المراقبة في الحرم؟

* *

إن الجدل المبدئي والإنتقادات الإجمالية هي شيء والقراءة المتمعنة للتقرير وانتقاده بالتفصيل شيء آخر. مؤلف هذا الكتاب حرص على أن يقوم بذلك، وبأعلى درجة من النزاهة. يمكن في الواقع تعيين عدد من النقاط هي موضوع للشكّ وللتساؤل وحتى للرفض في هذا التقرير.

1 ـ تسجّل اللجنة أولاً أن مصلحة الأمن كانت بالتأكيد تتوقع عموماً إمكانية حدوث إعتداء واسع النطاق يقوم به اليهود ضد الفلسطينيين. ولكن لا شيء يشير إلى أن هذا الإعتداء سيحدث في الحرم الإبراهيمي. ومع الأخذ بالإعتبار إمكانية وقوع إعتداء من اليهود، كما ورد في التقرير، فإنه كان يجب إتخاذ إجراءات على مستوى عال جداً في كافة الأمكنة الحساسة. والحال أن الحرم الإبراهيمي، كما يقول التقرير، هو حقاً مكان حسّاس. فكان يجب على أحد ما، والحال هذه، أن يستخلص النتائج.

التناقض هنا واضح جداً. فمن جهة، ثمة توقع عام واضح لحدوث إعتداء. ومن جهة أخرى يقال إنه لا شيء يسمح بتوقع وقوع إعتداء في المكان الأكثر حساسية في الخليل. باختصار، من جهة قبلت اللجنة بعبارة رئيس هيئة الأركان "قصفة رعد في سماء زرقاء". ومن جهة أخرى رفضت. فإن كنّا نتوقع عموماً حدوث إعتداء من قبل اليهود، فهذا يعني أنه لم تكن هنالك "سماء زرقاء".

2 ـ تعدد اللجنة سلسلة من الإجراءات التي اتخذت لمواجهة حدوث إعتداء. والحال أن هذه الإجراءات اتخذت لمنع حدوث إعتداء من قبل العرب ضد اليهود وليس العكس. غير أن اللجنة لا تقول ذلك صراحة وبالتالي لم تحمّل أحداً المسؤولية. إنها تكتفي بتسجيل أن هذا الإحتمال (إعتداء يهودي) قد أثير على أعلى مستوى ولكن لم يُبلَّغ المسؤولون ميدانياً بشيء. إننا نتساءل كيف لا ترى اللجنة في هذا إهمالاً يستحق الإدانة؟

3 ـ رغم كافة الدلائل التي تشير إلى إحتمال وقوع إعتداء (ذكرنا عدداً كبيراً منها في هذا الكتاب) فإن التقرير يعفي كل الأطراف الإسرائيلية من أية مسؤولية مباشرة، وحتى غير مباشرة. إنها نتيجة شاذة يخلص إليها التقرير. كان يكفي، كما رأينا، قراءة الصحف والإصغاء إلى ما يقوله المستوطنون المتطرفون ليخشى المرء وقوع مثل هذا الإعتداء.

4 ـ قررت اللجنة أن باروخ غولدشتاين هو المتهم الوحيد وأنه لم يتلقّ أية مساعدة. إنها طريقة مريحة للتملص من مسألة جوهرية. وهي مجيء شخص إلى المسجد بعد وصول غولدشتاين بخمس دقائق. وقد اختفى هذا الشخص بعد المجزرة. لماذا رفض الفرضية أن غولدشتاين تلقى مساعدة في مكان الجريمة من هذا الشخص المجهول؟ الشهود في هذا الموضوع كانوا حازمين وواضحين: قال جنديان أنهما شاهدا شخصاً يدخل بعد غولدشتاين ومعه بندقية "جليل" قصيرة. لماذا استبعدت شهادتهما؟ في الحقيقة أنه إذا أقرّ

بوجود شخص ثان، فإن البناء كله الذي أقيم على أساس أن المجزرة هي من صنع مجنون سوف ينهار.

5 ـ وعلى كلّ حال، فإن المنطق الذي يقول إن هذه الجريمة كانت من صنع مجنون، معناه أنه عمل إستثنائي وشاذ. ولكن كافة الأقوال، التي صدرت عن رفاقه المستوطنين وعن آلاف الأشخاص الذين وافقوا معه، تثبت تماماً أنها ليست "قصفة رعد في سماء زرقاء" بل وعلى الأقل "قصفة رعد في سماء عاصفة". ولو كانت الحكومة قد اتخذت الإجراءات الضرورية ضد المتطرفين، وضد أعضاء حركة "كاخ" بخاصة، لكان من الصعب جداً بل من المستحيل، وقوع المجزرة. لا تتساءل اللجنة عن السبب في عدم إتخاذ مثل هذه الإجراءات، بل أنها حتى تتجنب المطالبة بطرد النواة الصلبة للمستوطنين المقيمين في مدينة الخليل العربية. وهذا هو، كما نفهم، سبب إرتياح هؤلاء المستوطنين من تقرير اللجنة.

6 ـ كان غولدشتاين يتمتع، كما أشرنا هنا، بإمتيازات معينة إستمدها من كونه طبيباً وضابط إحتياط في الوقت نفسه. تؤكد اللجنة أنه لم يكن يعتبر من أولئك الذين يمكن أن يستعملوا العنف. ومع ذلك، فإنها نفسها تذكر أعمالاً عنيفة شارك فيها مباشرة في الحرم الإبراهيمي. إنه قلب مكتبة تحتوي على نسخ من القرآن، وحظر عليه الحاكم العسكري دخول المسجد لمدة شهر، ونظم أعمالاً إنتقامية ضد قرية عربية، إلخ. لم تقل اللجنة لماذا لم تؤدِّ كل هذه الإنتهاكات وأعمال الشغب، إلى حرمان غولدشتاين من التمتع بهذه الإمتيازات. كان ينبغي على الأقل سحب سلاحه وشاراته العسكرية. لقد صمتت اللجنة عن كل هذه النقاط.

7 ـ ما يثير الدهشة أيضاً أن اللجنة فوّتت الفرصة هنا لجعل أي إعتداء من هذا النوع مستحيلاً. فما يزال كل "الباروخات" (جمع باروخ) ـ وهم كثر ـ يحملون أسلحتهم، ويستمرون في الخدمة العسكرية الإحتياطية، ويعلقون رتبهم العسكرية... إلخ. ظلّت اللجنة صامتة عمّا يمكن عمله مع هؤلاء الناس.

8 ـ ثمّة نقطة بدت واضحة في هذا الكتاب: لو لم يكن المستوطنون أطفال الجيش المدللين، لما كان بمقدور غولدشتاين الدخول بسهولة إلى المسجد لإرتكاب جريمته. لقد ادعت اللجنة أنه لا وجود لمسؤولين مباشرين غير غولدشتاين ذاته. فعلى الأقل كان يجب أن تذكر الخلفية وهي إحتلال الأراضي العربية وإقامة المستوطنات. والسبب يقع أيضاً على المسؤولين الذين سمحوا لغولدشتاين بأن يقيم في الخليل ويتمتع بحرية تامة. وقد صمتت اللجنة حيال هذا الموضوع أيضاً.

9 ـ إن القاعدة المعمول بها، والتي تسمح للمستوطنين بالدخول بأسلحتهم إلى الحرم، ربّما أنها العامل الحاسم الذي مكّن غولدشتاين من إرتكاب جريمته. من الذي وضع هذه القاعدة؟ لماذا لم يُسَمَّ بالإسم؟ لماذا لم يعاقَب؟

10 ـ سجّلت اللجنة أن الأوامر غير المعقولة، التي صدرت إلى العسكريين، والتي أظهرتها جلسات لجنة التحقيق، بأنه يحظر على الجيش إطلاق النار على مستوطن مهما كانت الظروف ـ كانت موضوع نقاش في الحكومة، قبل المجزرة بشهر تقريباً وطُلب من رئيس هيئة الأركان معالجة هذا الموضوع وإعطاء توضيحات حوله. ومع ذلك لم يحرك أحد ساكناً، وظلّت الأوامر، كما أكد الضبّاط والجنود، كما كانت عليه مع أن هذه الأوامر هي بمثابة مصادقة على فكرة أن هدر الدم العربي مسموح، وأن اليهود، حتى لو كانوا مجرمين، فإنهم فوق القانون. في مثل هذا المناخ فإن غريزة المستوطن الذي يحلم بارتكاب مجزرة تعتبر سهلة.

وتطالب اللجنة الآن أن تُعاد صياغة أوامر إطلاق النار هذه التي تنطوي على خطورة شديدة. كان يجب على الأقل تسمية ومعاقبة من أصدر هذه الأوامر. والحال أن اللجنة إكتفت بتوجيه توبيخ لا قيمة له إلى المسؤولين العسكريين لعدم توضيح هذه الأوامر الخاصة بإطلاق النار. ولم ترفق هذه الملاحظة بأية توصية تخص هؤلاء المسؤولين.

11 ـ طلبت اللجنة أن يفرض إحترام القانون على اليهود وعلى الفلسطينيين في الأراضي المحتلة. وهذه أحلام تناقض الواقع. فالكل يعلم أن الجيش يستخدم كل قوته ضد الفلسطينيين حين ينتهكون قانون الإحتلال. وبالمقابل، فإن الفوضى هي القانون السائد عند المستوطنين. إن اللجنة، التي تبذل قصارى جهدها في تفهم دوافع الجناة اليهود، لا تشير بكلمة واحدة إلى دوافع الفلسطينيين. فالإحتلال بالنسبة لها أمر عادي والمقاومة الفلسطينية يجب إدانتها ومحاربتها. في مثل هذه الشروط، فإن المطالبة بفرض القانون على الجميع لا يتعدّى كونه شيئاً منافياً للمنطق.

12 ـ كما بيّنا في هذا الكتاب، فإن هنالك حاخامات وزعماء سياسيين ونواباً من الكنيست وحتى قضاة أغمضوا أعينهم أو حتى شجعوا، وعلى مدى سنوات الإحتلال الطويلة، ظاهرة خرق القانون من قبل المستوطنين اليهود.

لم تسجل اللجنة كلمة واحدة لإدانتهم وصمتت عن هذه المشكلة.

13 ـ لم تشر اللجنة إلى أية صلة بين سياسة التهاون مع المستوطنين، التي أوجدت حالة الفوضى في المناطق المحتلة، من جهة، وبين المجزرة التي أقدم عليها غولدشتاين من جهة أخرى. إن هذه الصلة موجودة دون أدنى شك. فقد اعتبر المستوطنون التراخي في تطبيق القانون بمثابة قبول ضمني لأعمالهم، مثل غمزة عين تقول لهم "يمكنكم أن تستمروا". هكذا كان غولدشتاين يفهم الوضع، على كل حال حين ذهب إلى المسجد بسلاحه. هكذا كان الحاخامات وكثير من المستوطنين يرون الأشياء، ولهذا جعلوا من غولدشتاين شهيداً. كان ينبغي على اللجنة أن تأخذ بالإعتبار التاريخ ـ بما في ذلك تاريخ اليهود في العالم. فحين نصمت عن الأعمال الهمجية، فإنا نكون بذلك نشجع، بل ونساهم، في تصعيد العنف وأعمال القتل. جاء في التقرير أن التهاون إزاء إنتهاك القانون يمكن أن يفسره الشريرون على أنه تشجيع لهم. فإذا كان الحال على هذا النحو، لماذا لا تسمي المسؤولين بأسمائهم ويعاقب أولئك الذين تسببوا في مثل هذا الوضع؟

14 ـ إن العجز والتهاون الفائقين اللذين كشفت عنهما المجزرة، من جهة، وتعدد الإقتراحات لتحسين تدابير الأمن والردع من جهة أخرى، كلها تؤكد خطورة هذا الإهمال الآثم. والحال إننا لا نجد مسؤولين عن هذا، أو أن المسؤولين قد بيّضت صفحاتهم.

15 ـ إن لجنة محترمة ورفيعة المكان كهذه فضّلت أن تبحث في تفاصيل دقيقة وصغيرة مثل الأجهزة الألكترونية في المسجد، إلخ. حيث أن لجنة من خبراء الجيش كان يمكن أن تقوم بذلك، وعلى نحو أفضل. فعلى هذا المستوى قدمت لجنة شمغار أكثر مما هو متوقع منها بينما في نقاط أخرى أساسية تتعلق "بالخلفية". فإن اللجنة فعلت أقل بكثير مما كنّا نأمل. فقد صمتت عن جوانب مهمة في القضية المطروحة على بساط البحث.

16 ــ لنعترف: لو قتل عشرات اليهود برصاص في ظهورهم وجرح أكثر من مائة في كنيس في أثناء صلاة "يوم الغفران"، مثلاً (وهو ما يعادل "رمضان" عند المسلمين)، فهل كانت اللجنة ستكتفي بتقرير على هذا القدر من الرخاوة؟ هل كانت اختتمت أعمالها دون المطالبة بعقوبات؟

* * *

بعد هذا العرض الواضح لإنتقاداتنا على التقرير، فإنه لا يسعنا أن نكتفي بهذا.

لنقرّ أولاً أن لجنة شمغار قامت بمبادرة تستحق الثناء. فلأوّل مرّة في إسرائيل تبحث علناً في إطار لجنة تحقيق رسمية مسائل هامة تتعلق بإحتلال الأراضي العربية. وفيما عدا بعض الجلسات التي عالجت الجوانب العسكرية البحتة وكذلك الخاصة بشهادة أرملة القاتل ــ فإن جلسات هذه اللجنة، التي عُقدت في القاعة رقم 3 في قصر العدل بالقدس، كانت علنية وحتى أنها بُثّت في التلفزيون الإسرائيلي بكاملها. لقد تحدّث مائة وعشرة شهود في الجلسات الواحدة والثلاثين وعرف الإسرائيليون من خلال متابعتهم لهذه الشهادات أشياء أكثر ما عرفوه لدى إطلاعهم على التقرير النهائي.

فقد اتضح أيضاً للجميع أن المستوطنات الإسرائيلية في الأراضي المحتلة هي جزء لا يتجزأ من الإحتلال، وإن هناك اليد ذاتها والسلاح ذاته، فالشخص ذاته يكون فقط يوم في الخدمة الإحتياطية وفي يوم آخر مستوطناً بدون بزة عسكرية هذه المرة، ولكن السلاح ذاته دائماً.

كان إرتكاب المجزرة ممكناً لأن الجيش يتصرف في الأراضي المحتلة كذراع مسلحة للمستوطنين الإسرائيليين أكثر منه قوة إحتلال تقليدي مسؤولة عن سلامة وأمن السكان الذين يعيشون تحت الإحتلال ويجب حمايتهم عملاً بالقوانين الدولية. في الواقع أن الجيش يسهر أساساً على سلامة المستوطنين ويتهاون أو يتسامح مع أفعالهم الإرهابية ضد الفلسطينيين.

في بداية الإحتلال كان المسؤولون الإسرائيليون ــ وكان حزب "العمل" هو الحاكم آنذاك ــ لا يكفّون عن إبراز السمة "الإنسانية" أو "الناعمة" لهذا الإحتلال. في تلك الأونة، كان الكثيرون يعتقدون صدقاً بأنه يمكن أن يكون الإحتلال ليبرالياً وإنسانياً. أما اليوم، فلا أحد يتحدث على هذا النحو، ولم يعد أحد يعتقد بذلك. لقد أعلن رئيس الوزراء إسحق رابين ذاته بعد المجزرة: "إننا ندفع من دمائنا ثمناً للسيطرة على شعب يرفضنا. لقد أصابنا الفساد جرّاء سيطرتنا على شعب آخر". وأضاف: "أن للمستوطنات وزناً هامشياً جداً في أمن بلادنا. إن ما يضمن لنا الأمن هو جيش الدفاع الإسرائيلي".

لكن لنعد إلى الإنتقادات التي تتعلق هذه المرة بالتركيبة التي تتألف منها لجنة شمغار نفسها. حين أعلن أن الرئاسة سوف تكون لمئير شمغار، رئيس المحكمة العليا في القدس، اعتقد الكثيرون، منذ البداية، أن هذه اللجنة سوف تدفن القضية.

وُلد شمغار في 1925 وكان عضواً في المنظمة الإرهابية "إيتسيل" بقيادة مناحيم بيغن. وقد أبعدته في 1944 سلطات الإنتداب البريطانية إلى كينيا وأريتريا والسودان. وبقي هناك حتى نهاية فترة الإنتداب. وكان شمغار ذاته هو الذي أعد البنية التحتية القضائية التي نظمت عملية إحتلال الجيش للأراضي المحتلة. لقد أعدّ الخطة هذه قبل العام 1967، وتحديداً في منتصف الستينات. وكانت خطة الإحتلال تتجاهل القانون

الدولي. كان مئير شمغار من أتباع إسحق رابين الذي كان وقتها كولونيلاً. وكان من عادة رابين أن يقول لمساعديه: "لا تنسوا أن تدعوا للإجتماع أيضاً النقيب شتيرنبرغ" (وهو الإسم القديم لشمغار).

في حياته المهنية الطويلة كمستشار قضائي للحكومة، وقاض في المحكمة العليا، ثم رئيسها، كان شمغار يعالج أيضاً القضايا الخاصة بالمناطق المحتلة. وكان دائماً يرضي السلطة بقراراته. فمثلاً، بخصوص مصادرة الأراضي الفلسطينية ـ أحد أوجه الإحتلال الأكثر بشاعة ـ كان شمغار يؤيد السلطة دائماً.

لقد كان المحامي أفيغدور فيلدمان يرافع في قضية عقارية، فأكد أن مصادرة الأراضي "الميري" الفلسطينية من قبل الحكم العسكري وإعطاءها للمستوطنين، هو أمر غير مشروع من وجهة نظر القانون الدولي، لأن الدولة لا يمكنها أن تستخدم هذه الأراضي إلاّ في ما يعود بالمصلحة للسكان المحليين وإلحاقها بالمستوطنات اليهودية هو محض سرقة. وكان هذا في آب 1993. ورد شمغار على المحامي فيلدمان معلناً أن الطلب الذي تقدم به المحامي يتسم بطابع سياسي ويخرج عن إطار صلاحيته، حيث جاء على لسانه: "لا أريد التدخل في قضايا ذات محتوى سياسي".

ملف آخر من النوع نفسه هو ملف سمير عريب. وكان شمغار أصلب أيضاً عندما بحث هذه القضية. عريب هو مواطن فلسطيني، تقدم بشكوى إلى المحكمة العليا بخصوص أرضه التي انتزعت منه وضمّت إلى مستوطنة مجاورة. فرد مئير شمغار رفض هذه الدعوة بحجة أنها ذات صبغة سياسية وأنه لا يمكن التدخل في هذا الشأن.

الشيء ذاته حدث بالنسبة لطرد الفلسطينيين من البلاد ـ وهو إنتهاك لإتفاقية جنيف الدولية ـ فقد وقف شمغار إلى جانب السلطة ضد هذا التفسير.

فبرأيه أن إتفاقية جنيف لا تنطبق إلاّ في حالات الطرد "الجماعي"، كما حدث لليهود على يد الألمان في الحرب العالمية الثانية. على هذا النحو إنما أعطى مصادقة قانونية لطرد أربعمائة وخمسة عشر من نشطاء حركة "حماس"، إلى لبنان، عقب مقتل شرطيين إسرائيليين في كانون الأول 1992. أما حين يقتل يهودي عربياً ـ أو أكثر ـ فهو لا يتعرّض بالطبع للطرد.

الكيل بمكيالين والقياس بمقياسين.

ومئير شمغار معروف كذلك بتسامحه المبدئي مع المستوطنين اليهود، بمن فيهم أولئك الذين حوكموا، وهم جنود أطلقوا النار عن تعمد على فلسطينيين أبرياء. وتوجد نماذج عديدة عن هذا التسامح.

ومنها، هذا النموذج: جندي إسرائيلي كان على حاجز أقيم في قطاع غزة، تسبب هذا الحاجز في إزدحام سير هائل وكان على السيارات العربية العائدة من إسرائيل أن تنتظر عدّة ساعات. أحد السائقين نفد صبره، فخرج عن الصف وحاول أن يجد له طريقاً ليقترب بسرعة أكبر من الحاجز، وأطلق ذلك الجندي النار عليه بدون تردد، فقتله. برأته المحكمة العسكرية، ولكن المحكمة المدنية أدانته، وأكدت هذه الإدانة بعد الإستئناف. بعد ذلك قدم لمحكمة العدل العليا، فبرأته. كان رئيس القضاة الثلاثة لهذه المحكمة هو مئير شمغار، برر قراره بحجة أن الجندي لم يكن بوسعه أن يعلم أن السائق ليس إرهابياً.

وعلى هذا فإن السائق الذي يخرج عن الصف في أثناء عملية المراقبة يمكن أن يقتل مجاناً.

خلال العقد المنصرم، كانت قرارات محكمة العدل العليا، برئاسة مئير شمغار نفسه، تأخذ بإعتبارها

أساساً حاجات المستوطنين، وبنحو عام حاجات السلطة في الأراضي المحتلة. وهكذا رفضت مئات الشكاوى الفلسطينية، سيما فيما يخص مصادرة الأراضي لصالح المستوطنات.

رفض مئير شمغار، ولأسباب شخصية، أن يكون عضواً في لجنة كاهان للتحقيق في مجزرة صبرا وشاتيلا. وبدلاً منه، عيّن قاضٍ آخر من المحكمة العليا، وهو أهارون براك. وهذا القاضي، القادم من الجامعة، كان مختلفاً عن مئير شمغار. كان أكثر صراحة وأكثر إستقلالاً تجاه السلطة، وأكثر حرصاً على العدل والقانون. كان هو الذي تحفّظ بشدة على طرد الأربعمائة وخمسة عشر نشيطاً من "حماس".

حقوقي إسرائيلي شهير من جامعة القدس، هو البروفيسور دبفيد كريتشمر، تحدث عن سياسة محكمة العدل العليا بخصوص الأراضي المحتلة، فقال: إن كثيراً من طلبات الإستئناف الفلسطينية تتعلق بقضايا هامة من وجهة نظر حقوق الإنسان، مثل: مصادرة الأراضي، هدم البيوت، جمع شمل العائلات، إلخ. وبصفة عامة، فإن المحكمة العليا قد كرّست لهذه القضايا وقتاً وإهتماماً أقل مما كرّسته لإفتتاح بركة سباحة في نهاريا. ويفسر كريتشمر ذلك بالقول: في النزاع بين دولة إسرائيل والفلسطينيين لا تقف المحكمة العليا على الحياد بل إنها تتصرف في الواقع بصفتها الذراع القضائية للسلطة.

* *

أثارت المناقشات في لجنة شمغار جدلاً عاماً في الصحافة الإسرائيلية حول الإحتلال، والعدالة، إلخ. وقد أكد الحقوقي المرموق، حاييم كوهين، وهو قاضٍ أعلى متقاعد ومستشار قضائي سابق للحكومة، بوضوح قائلاً:

"لا وجود للعدالة في ظلّ الإحتلال. فإنعدام العدالة يكمن في الإحتلال نفسه. وفي قوانينه المجحفة التي تدمر أي بنية تحتية قضائية. وفي ظلّ هذه الشروط، من بمقدوره أن يحقق العدالة للشعب المغلوب؟".

لم يكن مئير شمغار العضو الوحيد في اللجنة الذي كان وجوده فيها يطرح أسئلة. وهنالك الجنرال موشيه ليفي مثلاً الذي كان رئيساً لهيئة الأركان في العام 1986، حين صودق رسمياً على القرار بالسماح للمستوطنين بالدخول بأسلحتهم إلى الحرم الإبراهيمي في الخليل.

هنالك أيضاً عضو آخر في اللجنة وهو القاضي المعروف، إليعيزر جولدبرج، الذي لم يخفِ طيلة الجلسات قناعاته اليمينية الواضحة. حتى أنه بسلوكه هذا دفع مدير أحد المستشفيات في الخليل إلى القول: "هل دعوتمونا لنشهد بما تحبون أن تسمعوه أنتم؟".

بالمقابل، فإن عالم الرياضيات مناحيم يعاري، القريب من حركة "سلام الآن"، كان محدود النشاط في تلك الجلسات. فقد اكتفى بالإدلاء ببعض الملاحظات الواضحة والتي لم تسجل في التقرير النهائي. ونتساءل هنا: لماذا وافق على المشاركة في التوقيع على تقرير متحيّز بهذا القدر. فهل رفض أن يكسر الإجماع؟

القاضي الأكثر نشاطاً والأكثر حزماً من بين القضاة الخمسة الأعضاء في لجنة شمغار هو، بدون منازع، القاضي الفلسطيني من منطقة الناصرة، عبد الرحمن الزعبي. كانت تلك المرة الأولى التي يكون فيها قاضٍ فلسطيني عضواً في لجنة إسرائيلية تعالج مسائل أمنية، وبالتالي سريّة (فقد أدلى رئيس هيئة

الأركان ورئيس الوزراء ومسؤول مصلحة الأمن أنفسهم بشهاداتهم أمام تلك اللجنة). ومنذ البداية، كان واضحاً للجميع أن الزعبي لم يقبل أن يلعب دور ورقة التين. كان يوجه أسئلته إلى الشهود الإسرائيليين بصراحة، ومنعهم من الخروج عن الموضوع. وكان هؤلاء الشهود يردون أحياناً على أسئلته بإمتعاض.

ولسوء الحظ فإن هذا القاضي العربي إرتكب خطأً. ففي مقابلة له مع صحيفة "معاريف"، في أثناء التحقيقات التي كانت تقوم بها اللجنة، تحدث عن المستوطنين اليهود مؤكداً أنهم يمثلون "الجانب الأكثر وحشية في الأراضي المحتلة". أثار هذا التصريح حفيظة اليمين الذي طالب فوراً بطرده من اللجنة بحجة أنه منحاز وليس قاضياً محايداً. وقد دافع ببراعة عن هذا القاضي منير شمغار، الذي كان يعرف ماذا يفعل. واضطر الزعبي بعد ذلك إلى إتباع سياسة "عدم البروز". وأدى به ذلك، كما يقول العارفون ببواطن الأمور، إلى إعطاء موافقته على هذا التقرير الملطّف.

لو وجدت لجنة أخرى بدل هذه اللجنة، توفرت لها الوقائع ذاتها والشهادات ذاتها، لخرجت بقرارات أكثر صرامة إزاء السلطة ولربما تطرقت بشكل ملائم إلى مسألة الإحتلال.

يجدر التذكير هنا بالظروف التي شكّلت فيها اللجنة. ففي غداة المجزرة، وبينما كانت البلاد تعيش حالة إضطراب وصدمة، كان الإئتلاف العمالي مرتبكاً. كان من المتوقع أن تتخذ إجراءات صارمة تجاه المستوطنين المتطرفين في الضفة الغربية، الذين أتى من صفوفهم غولدشتاين. كانت هنالك أغلبية ساحقة في الحكومة تؤيد طرد العائلات الأربعين التي استوطنت، بموافقة حكومة "الليكود" آنذاك، في سبعة جيتوات في قلب مدينة الخليل العربية. غداة المجزرة، كان يمكن تفهم مثل هذا القرار تماماً، رغم توقع إحتجاجات اليمين ومظاهراته.

والحال أن إسحق رابين لم يشأ ذلك. كان مصراً على التقيد باتفاقيات أوسلو حرفياً، التي تؤجل المفاوضات حول المستوطنات إلى المرحلة الأخيرة، بعد عامين. هذا على الرغم من أن وجود المستوطنين في مدينة الخليل العربية لا يشكّل "مستوطنة" بالمعنى الحرفي للكلمة، بل على حد قول الوزير عوزي برعام، إنه "غزو إستفزازي لمدينة عربية".

إن رابين بصفته وزير دفاع أيضاً، وبالتالي مسؤولاً عن الأوضاع في الأراضي المحتلة، كان يخشى من أن مثل هذا القرار سوف يُحدث إنفجاراً سياسياً في ظرف حساس بالنسبة له. فحين كان عليه أن يختار بين طرد نشطاء "حماس" الأربعين وتشكيل لجنة تحقيق، فضّل الحل الثاني الأقل خطراً من وجهة النظر السياسية.

وإذ عيّن منير شمغار على رأس هذه اللجنة، فقد شعر هذا، من جهته، أنه أكثر حرية بالمقارنة مع لجنة أجرانات ولجنة كاهان. فلجنة اجرانات شكّلت في ظروف مأساوية، عقب حرب أكتوبر بالضبط، عام 1973م لدراسة عدم جاهزية إسرائيل والأخطاء التي ارتكبتها قبيل الهجوم السوري والمصري. قتل في هذه الحرب نحو ألفين وستمائة جندي إسرائيلي وأصاب الرأي العام شرخ عميق. ومع ذلك فقد وجدت لجنة اجرانات الشجاعة الكافية للتحقيق في حدث وفي أخطاء تمّ تعيينها بوضوح. الشيء ذاته بالنسبة للجنة كاهان التي شكّلت في أثناء الإجتياح الإسرائيلي في لبنان، الذي انقسم الرأي العام الإسرائيلي بخصوصه وتسبب في وقوع مئات القتلى في صفوف الجيش الإسرائيلي.

بالمقابل، فإن منير شمغار كان عليه أن يحقق في مجزرة الخليل، الإسرائيلي الوحيد الذي قتل فيها هو

مرتكبيها نفسه. وإذ راح أعضاء اللجنة الخمسة يحققون أمام أنظار الرأي العام فقد كانوا يقبضون بأيديهم على مصير الحكومة. فإذا خرجوا بنتائج قاسية، سوف يؤدي هذا إلى الإطاحة بالحكومة. فهل يقبل رئيس محكمة العدل العليا، قبل سنة من تقاعده، أن يختم خمسين عاماً من "الخدمة الوطنية" بتوجيه ضربة قاتلة إلى حكومة رابين المنخرطة في عملية سلمية صعبة؟

إرتاح رابين للتقرير، وقبل المقولة التي وصفت غولدشتاين بأنه "مجنون معزول". قال: "قد يقوم مجنون آخر بفتح النار على مسجد من مئات المساجد الموجودة في الضفة الغربية. الجيش غير واثق من قدرته على منعه من ذلك". رئيس الأركان أعرب، هو الآخر، عن الرأي نفسه.

قد يكونان على صواب؟

ولكن، إذا كان الجيش الإسرائيلي عاجزاً عن الدفاع عن السكان الفلسطينيين، فالأفضل، ولا شك، أن يرحل عن الأراضي المحتلة. هذه النتيجة توصلت إليها أيضاً صحيفة "هآرتس" غداة المجزرة، حيث كتبت: "من لا يمكنه الحيلولة دون وقوع مثل هذه الأعمال الجنونية، فالأفضل له أن يعمل عن ممارسة مسؤوليته على أراضٍ هي المسرح الذي تدور عليه هذه الأعمال". تلك هي العبرة من مجزرة الخليل.

هوامش:

1 ــ السيناريو هو ذاته، لا سيما منذ بداية الإنتفاضة. ففي 20 أيار 1990، مثلاً، قتل إسرائيلي سبعة فلسطينيين بالقرب من المدينة الساحلية ريشون لتسيون وفي الأيام العشرة التي أعقبت ذلك، قتل ثمانية عشر فلسطينياً بالرصاص في الأراضي المحتلة في أثناء قيام الجيش الإسرائيلي بتفريق المظاهرات. في 8 تشرين الأول 1990 قتلت القوات العسكرية الإسرائيلية ثمانية عشر فلسطينياً في ساحة الأقصى في القدس، وحتى نهاية الشهر ذاته، قتل أحد عشر فلسطينياً برصاص الجيش في أثناء تفريق المظاهرات. في كانون الأول 1992، وعقب إبعاد الأربعمائة وخمسة عشر فلسطينياً من حركتي "حماس" و"الجهاد الإسلامي" إلى لبنان ــ معظمهم من قطاع غزة ــ قتل الجيش الإسرائيلي في خانيونس وحدها أحد عشر فلسطينياً، منهم أربعة أطفال أعمارهم تقل عن ست عشرة سنة، في أثناء المظاهرات.

2 ــ تقرير لجنة التحقيق، القدس، 1994م ص209.

صورة الآخر

فيصل قرقطي

من هنا، الأجدر بي أن أسرد سمات، وانطباعات أكثر منها تحديدات رغم ما يشوبها من حقائق تاريخية تشدّني بين النقيضين تماماً، وذلك حتى أكون صادقاً مع المشهد العام القديم أولاً، ومع المشهد العام الجديد الذي بدأ يتشكّل ثانياً، ومع روحي الموزّعة والمربوطة كقدر محتم بين المشهدين.

والشعور الإنساني العام لنا كبشر يحتّم علينا إستدراج هناءة العيش، وسلامته، وسلامةَ لأطفالنا جميعاً، فإنني لا أنكر رغوة الوجدان الصافية التي تغسل الكثير من أدران العداء وذلك تأسيساً على التزام وجداني وسياسي في طقس الفلسطيني المنظور آنياً على الساحة الفلسطينية والعالمية عموماً.

وكأي شاعر أو كاتب فلسطيني، لا يساورني أدنى شك في شعوري بالغبن التاريخي المركّب وذلك لكون ما مضى من عمري كان انتشاراً في الهباء الذي لم يؤسس شيئاً في الواقع.. رغم جدارة الحلم ورفعة قيمة التي لا يرتقي إليها الشك أبداً.

أما الغبن التاريخي المركّب والذي أرى روحي محشورة فيه هو أنني إبن وجهتي الصراع بكل إرثه ومعطياته سواء في الجانب الفلسطيني الذي أنتمي إليه روحاً وجسداً وفكراً وثقافةً وديناً، وأبوّة. أو الجانب الآخر من المشهد الذي ينتمي إليّ لجهة أمي التي ولدتني.

كانت الأحاسيس تغلي بدمي شوقاً للدخول إلى الوطن الذي كرّسني طوال سني حياتي لنداء ذي إيقاعين:

الأول كان إيقاعاً حاداً عالياً وظفتُ فيه كل ما أملك من طاقات روحية وجسمية وفكرية وثقافية.

أما الإيقاع الثاني فكان بطيئاً.. بطيئاً يسري تحت الجِلْد: لا يفصح عن نفسه أبداً، بل يخجل من الإفصاح عن نفسه. كان إيقاعاً تجسّد فيه نوع من الحنان الخاص.. الحنان الذي ربطني بأمي.. أمي التي قضيت نصف عمري ولم أرها حتى عندما توفاها الله في سوريا. فكيف الدخول إليها.. إلى هناك؟!

كان النداء ذو الإيقاعين يرتفع في دمي أكثر حتى وصل ذروته حينما جاءت الإشارة: وشددنا الحقائب إستعداداً للدخول.. العودة.

وقت ذاك كانت قد وقفت المجلة "فلسطين الثورة" عن الصدور منذ شهور لأجدني مهجراً زوجتي وأطفالي الثلاثة إلى طرابلس ـ لبنان. ومنغمساً في أعمال البناء مع "المعلم" القبرصي "يورغو" الذي كان يتحدث معي في الجملة الواحدة بثلاث لغات. العربية والإنجليزية واليونانية. وكان عليّ كل صباح أن أدير محرك الجبّالة العملاقة وأملأها بالرمل والبحص والإسمنت والماء وتدور وتدور لتشكّل خلطة إسمنتيّة عجيبة. وكنت كلّما أتملى قلبها وهي تدور أرى صورتي تتمزّق مع البحص والرمل والإسمنت ليشدّني وجلّ جارف من قوات الأمن التي كانت تطلع على العمال "بكبسات" لا منقذ منها أبداً.

كان عليّ أن أسحب روحي المحطمة ثانية وثالثة وعاشرة من هذا الكفاح المرير وأبدأ بتوزيع ثياب العمل على الصحب من العمال لأهيئ روحي وجسدي على العودة إلى الوطن.

في صبيحة اليوم التالي اصطحبت أحد العمال العاطلين عن العمل إلى بيت المعلم "يورغو" وخاطبه زميلي إن "صولي" ـ وهو الإسم الذي أطلقه "يورغو" عليّ ـ سيقف عن العمل إعتباراً من اليوم.

لماذا؟! هل وجد معلماً آخر وشغلاً آخر؟!

ـ أجابه زميلي: نعم. إن "صولي" اليوم سيعمل عند "أبي عمّار" بدلاً من "يورغو". إنه سيذهب إلى فلسطين.

واستلم زميلي العمل مكاني وودعتهما وانطلقت بدمعة حارة في عيني

عدتُ إلى البيت الذي كان مستودعاً تحت محل تحارط جدار صلد وناصح. رتبت ثيابي على عجل وجلست خلف الهاتف. ألح عليّ شعور بالتحدث إلى أحد ما داخل الوطن. قلبت مفكرتي لأجدني مستقراً على رقم محمد وتد في باقة الغربية. وبعد أن أدرت القرص. لبرن في بيت محمد. يا إلهي ماذا حلّ بي لأوقظ مات لصديقٍ كان قبل شهرين حياً. وكنتُ لا أدري بذلك. بكيت مع الصوت الأمومي القادم من باقة. وأصابني دوار لم أعرف منه مخرجاً.

شربت كثيراً. وصمت قليلاً لأدير القرص ثانية إلى حيفا لترد عليّ الزميلة هيلانة سمعان على الطرف الآخر.

ـ بعد أيام سأصل إلى أريحا عن طريق الجسر.

ـ حالما تصل أريحا أخبرني. كلّنا بانتظارك يا فيصل.

حينها نسيت "صولي" الذي عليّ الآن أن أستعيده بملابسه الملطّخة بالإسمنت.

كان فجر نيقوسيا أقل لمعاناً من فجر لارنكا تلك الصبية المدينة التي تتكئ على شاطئ البحر. وصلت ردهة المطار. لم يكن في وداعك غير ذلك العامل الأشقر "هيثم" الذي استلم مكانك في العمل.

دخلت ردهة المطار شبه الفارغة أبحث عن زملائي: حسن البطل. طلعت. حسني. خالد درويش.

أبو إبراهيم. لا يوجد أحد. لعلهم دخلوا. فدخلت ثانية في قاعة إنتظار الدخول إلى حرم المطار. لم أجد أحداً. لعلهم في الطائرة. فلم أجدهم أيضاً. وصلت عمّان وبعد أيام عرفت أنهم غيّروا موعد سفرهم. وهكذا كان عليّ أن أعود أوحداً إلى عمّان. وبعد أن مكثنا أياماً معدودات دخلنا. وعند نقطة الحدود الأولى. حينما توقفت العربة. كنتُ أستحثّ أنفاسي التواصل. وأحارب الوقت والمسافات بسيوف غير مرئية. أكنتُ "دونكيشوتياً" إلى هذا الحد؟! ربما" كان الضحك يأخذني فجأة. والدموع لها مسارب من عيني. وكان خوف مروع يلجمني عن الصراخ بأعلى صوتي ولم أدرِ لماذا؟!

يا إلهي أهذا هو الوعد المقدّس؟!

أهذا هو السراط المؤجل؟!

أهذه هي نكهة الحياة؟!

كنتَ دائماً لا تعثر على جواب يشفي الغليل. وقلبك هذا الوادع الصغير أراه حاملاً سرّك الذي لم تستطع طوال سنيك الأربعين الماضية إفشاءه. وماذا يجديك الآن إفشاؤه؟! دائماً كنتَ تسأل. ودائماً لا تلقى جواباً محدداً وواضحاً لكل ما يدور حولك أيها الراعي في بساتين التمرد؟ وواحات الألق. أيها المسافر في طيّات الزمن محاولاً إستجلاء خطى أبيك. وأمك في أحياء القدس العتيقة. وصباهما الذي كان ينبض في القدس. قبل خمسين سنة بأعمق قصة حب جسدتها "راحيل" بعذوبة صوتها ورقة عينيها الحالمتين و"محمد" الذي كان السحر يشق طريقه إلى صوته وفؤاده المجروح دونما استئذان. إنه هو الذي كان يطلق عليه حينذاك قبل أكثر من خمسين سنة كحلاوي فلسطين. وهو الذي كان صوته يصدح مع العود بأغنية

يا حاج أمين تع شوف ها العيشه

بعد الرز أكلنا جريشه.

كيف تستطيع أن تلمَّ نظرات عيونهما من فراغ الطقس؟! أهو الطقس ذاته الذي كان ينبض قبل خمسين سنة خلت؟! كيف تستطيع أيهذا المغامر الأرعن أن تحضن صدى صوت أبيك الذي كان يعبئ نبض الفراغ بمسحة من الألق والحزن والحب حينذاك؟!

إنتهت الإجراءات الحدودية الأولى. كنتَ واقفاً على حدود الهاوية. وكنت مأخوذاً بعذوبة الطقس لست تدري لماذا!! رغم أنه لا يروقك الطقس التشريني ببرودته البلهاء؛ ولا بحرارته الملتوية. تابعتَ الإنحدار عميقاً. وعميقاً في القرار. كانت العربة القوية تلتهم الأرض. طاوية المسافات. لم تستطع ملاحقة لهاث نظراتك الضائعة. كطير جريح. لهاثك المتطاير حولك. حتى كان الجسر.

كان جسراً معلقاً بين فراغين في الروح.

وكان لهاثك لا ينقطع أبداً في تواصله المديد.

وكان الجسر إنقسام الذات على ذاتها.

وبوصلة لا راحة فيها للقادمين.. أو الذاهبين.

ثانية. حطّت العربة بين دائرة من عيون جنود مدججين بصلادة المعدن. أولئك الذين امتهنوا متعة التحدي بنبال من حديد مصقول بكل مواقيت الدم. الدم الذي ما كان في يوم. أبداً. قطعة من بلور أو قبساً من ماء في إرث الذهب.

مشطوك. ومن معك بنظراتهم غير العميقة. حاولوا إشعارك بدقة موازينها. فكنت أعمق من أسرار النظرات؛ ولم يجدوا فيك سوى بلاد مهربة منذ طفولة أبيك وجدك. وصبا أمك التي يجهلون؛ إلى قلبك الحاني أبداً. على الأرض التي امتُدت فيك منذ انقطاع حبل السرَّة حتى آخر مدى في نظراتك.

وقفتَ حزيناً؛ كان لانفجار الصخب بداخلك أصوات ضحايا. وانهدامات أعمار. وبيوت. وأسوار. ما عرفت حدوداً أبداً. وكان لانفجار الصخب ذاك عوالم من حمى الوجع وانكسار النبوءة في تراتيل عشقك.

وقفتَ تلملمُ آخر المشهد؛ لتعيده إلى صباه الأول؛ وإلى طفولته الأولى.

وقفتَ. كان الماضي قطعة بللور وراء ظهرك.. كنت مفتوحاً إلى آخر مدى في جانحيك. ومفتوناً ببراءة العشب. وانتصار الياسمين. وكان خيط من نار يمتد من سرّتك إلى بحر حيفا. وكان الجنود على المعبر يرجّفون برداً وسلاماً.

"فيا نار كوني برداً وسلاماً على سيدنا إبراهيم"

كي تلقم السنونو المنتشر على شاطئ البحر.. وشاطئ الحياة.. وشاطئ القلب حبات القمح الذهبية.

إما أين السنبلة يا ترى؟!

أتحت أقدام الجند؟!

أم في جيوب العراف؟!

كان المعبر قوس قزح نبضت ألوانه بكل أسرارك المنوعة. ولهثت الأرض كدمعة ضائعة في سويداء عينيك. فامتلأت من اللحظة الأولى. وصليت بقداسة عراف ضائع بين فراغ الصمت.. وسرّك الدفين في أعماقك.

طويت المعبر. وطواك على عجلٍ. كانت نظرات الهائمين حولك تلخّص إنشغالهم بتفاصيلك التي لا تنتهي؛ فحينما تسحب سيجارتك يزداد التحديق. وحينما تشعلها تأخذهم رغوة المفاجأة. وكأنهم يسبرونك بنظراتهم.. ليحفروا فيك خنادق ومسارب تمتد فيها الأسلاك الشائكة قاطعة. قاطعة وحاجزة بين نصفك الأيمن.. والأيسر. فتمتد شرايين قلبك مسافات.. لتجتاز الأسوار.. والمدائن. والحواجز. لتصل بين نصفيك المنكسرين على جانبي الأسلاك الشائكة.

عند آخر إنعطافة. فقدت إتصالك مع العالم الخارجي. كنت تشعر وكأنك ربطت مصيرك. وإلى الأبد. بإرث جديد تشكل فيك رغم صلادة المنفى الذي ما زال يسور بأطرافه المدببة القاسية زوجتك

وطفليك وابنتك.

أحسستَ بهواء بارد يدخل رئتيك لأول مرّة. هواء طازج كأنه خارج من ارتجافات موازين الذهب. هواء كقدرك المحتوم. وكان الوقت غروباً. وغروباً كانت أريحا التي تشرق فيك.

درت في ساحتها الرئيسية كأنك فقدت اتزانك.. ذاك الإتزان الذي لا يتحقق بحركة اليدين والخطى على الشارع نصف المعتم أمامك. درتَ إلى وراء كمن تسي قبساً من عمره. ودخلت بهو الفندق الذي ينفتح على فراغ يتسع أكثر كلما حاولت اكتشافه. كان قصر هشام بانتظارك. لا كما يقدم الفاتحون. وكانت أريحا بدوية محلولة الشعر تركض لاهثة.. وضائعة بين جبلين في براري الروح. وساحل كدعص رمل يتمدد على الكتف الأيمن للبحر الميت.

وأريحا لا تودع إنسجامها.

وتستقبل كل العائدين.

أريحا اتساق المشهد منذ انحداره الأول لليقين الضائع في منعطفات النار وبين ركام التاريخ. التاريخ الذي ينبض كسيد من نار تحت جلد الروح. في الأوردة. وتحت جلد الأرض.

كانت ليلةً أقصر من الشهيق والزفير. ضمنا فيها سواد ليل أريحا الدافئ: فاستعدنا خضرة عيوننا بعد أرق من سهر وسفر. وانزاحت زرقة التعب من ظلال العيون. ومع أول الضوء. وأول الفجر حملنا حقائبنا بعربة نقل أقلتنا إلى غزة.

كانت الأرض تمتد بمدنها وقراها أمام عيني اللتين غطاهما غشاء كثيف من الدمع. ثقيل.. ثقيل. لم يكن الدمع ثقيلاً إلى هذا الحد يوماً ما. وكانت العربة تنهب الأرض نهباً. تبلع الشارع والمسافات ونحن نكمش أعصابنا بأيدينا. جامدي الوجوه. عيوننا مربوطة خارج النوافذ. وخارج المنعطفات محاولة التقاط المشهد على آخره. مشهد من حمى ووجع. مشهد هو مشهدنا المنهوب. أو المؤجّل. تعلّقت أحاسيسنا بحبال الاضطراب سيطرت علينا غشاوة كأنها غيمة من عالم الضياع. فكنا. تارة. نلوم أنفسنا التي لا تحتمل اللوم. وتارة أخرى نبكي مصائرنا المنهوبة على عجل بأقدار رسمت لنا. على عجل. على نحو كهنوتي وبأيدي عرافين منذورين للقطيعة. عرافين ما عرفوا يوماً سخونة الدمع. أو أنين الوجع.

عرافين مسكونين بإرث تحيينا.

ونبات أشجارنا الطاعن في التمر.

مسكونين بظلنا الذي لا يمحي أبداً.

والمسافات تمتد أمام النظر الذي يلهث أكثر وراءها. وعيناي لا تستطيعان اللحاق بالمشهد الهارب من النوافذ كعمرنا الهارب من نوافذ الحياة.

كيف لي أن أتقمص المشهد؟!

وأعيد الدماء إليه؟!

وصفاء صوت أبي الذي تنفسته الوهاد.

ومن أريحا غرباً.. ثم غرباً، دائماً ينهبك الغرب. وأنت على اتساع خطاك باحثاً عن ملاذك الأخير تتخاصر والريح التي ليس لها مستقر أبداً وبصعود شفاف تلم خلاله الأريج الطالع من رضوان الله تمتد أنت في فراغ لا يعيد إلى الذاكرة سوى غموض مستتر في نبضات الخطى القادمة.

ها غزة هاشم. شيخة المدن على إطلاق تتربع فيك وكنت تردد في سرّك لصاحب "مارد من السنابل":

وحملتك يا غزة

من سجن الواحات.. إلى سجن المزة.

هناك.. في غزة. بدأت تتموضع الخطى قليلاً.. قليلاً لتستقر على حال جسد في هوية ورقم. جسد قطع الوثبة الأولى التي امتدت أكثر من ستة أشهر ضياعاً.. في ضياع. ليصل إلى الضفة.

أنتَ موزع بين حنين جارف يمتد بك من حيفا.. إلى القدس.. إلى قبلان. فكيف تبدأ.. ومن أين يا ترى؟! ولاغترابك لسعة النار وجنون الوحدة في أردان الصمت.

ومن صورتك المطلّة في صحيفة "الاتحاد" الحيفاوية يتعرف عليك بعض أبناء بدران في قبلان ليتصلوا ويتركوا أرقام هواتفهم. بعدها أعلمتني السكرتيرة. الذي جاء صوتها ليدلّني على رشدي بعد رحلة ضياع دامت أربعين عاماً.. وها قد بدأ طرف الخيط يتضح ومن أريحا.. ثانية من أريحا تقلك سيارة إلى قبلان لتجد نفسك محاطاً بعشرات الرجال الذين يرحبون بك ويفتحون أذرعهم وقلوبهم لضمك.. واحتوائك بدفء خاص.. له نكهة خاصة لم تعهدها من قبل.

قضيت أياماً تسبح في فراغ قبلان الذي لا ينتهي أبداً. حيث تنام متى يروق لك وتصحو قبل الفجر بقليل لترقب بزوغه السحري. بعدها يجتمع الرجال. هذا يحدّث قليلاً وهذا يضيف شيئاً عن جدك.. وذاك يستذكر بعض ذكرياته وأبيك.. فتحس وكأن جذورك الغارية تمتد أكثر في بطن الأرض.

تنتهي الضيافة والإحتفال لتشدّ رحالك إلى أريحا ثانية. ثم تهيم على وجهك ثانية لتجد نفسك مستقراً في بيت صغير على كتف الرام الأيمن قريباً من القدس. ها أنت الآن تقترب أكثر من القدس.

في الصباح الباكر تهمُّ إلى القدس فتقلك سيارة أجرة يبدي سائقها إستعداده لمساعدتك فتذهب وإياه إلى باب الأسباط حسب المعلومات التي لديك.. داخل البلدة القديمة.. هناك حوش الست أمينة. كانوا يسكنون هناك في ذلك الحوش فتسأل.. ونسأل.. ويسأل معك السائق ليأتي صوت عجوز كهل ويخبرنا بأن الست أمينة قد فارقت الحياة قبل شهرين على أبعد تقدير. فتنهض الدموع غزيرة في عينيك. لا يسندك شيء. صحيح أن إبتسامة كان تحنو عليك ولكن سرعان ما تكتشف أنها إبتسامة هوائية أشبه بفقاعة صابون. إذ سرعان ما تذوب وتتلاشى. رجعت تجر روحك.. لم تعثر على بيت أبيك وجدك في البلدة القديمة في القدس. لتنتظر.. وتنتظر

وبينما تلفك الأيام انتظاراً متفكراً في أمك وأهلها.

وذات ظهيرة يأتيك أحد الأقارب من قبلان ليسألك:

ـ هل تريد أن ترى أخوالك.. إخوان أمك.

ـ نعم أينهم.. أين هم.

يصلني بعدها برجل في رام الله ليوصلني بدوره إليهم في القدس الغربية. وفجأة أجد نفسي في بيت متواضع يلتفّ حولي أربعة أخوال وزوجاتهم وبناتهم وأولادهم ويبدأ الحديث متسلسلاً ناعماً بعد التفرس في الصور والوجوه ليتأكد الإحساس والشبه.

كان همهم الإطمئنان على "راحيل" التي خطفها الموت قبل سبعة أعوام. وكان همّي أن أحدثهم عن "فدوى". وبين "فدوى" و"راحيل" وجدتني أغوص داخل مشاعر وأحاسيس أمي لأحاول وصفها. كيف لي أن أصف الإحساس الذي ربّاني وأرضعني وثقّف روحي حتى نشأت على هذه الشاكلة.

فقال خالي الأكبر مازحاً:

ـ عندما يأتي أبوك إلى هنا سأرفع عليه قضية في المحكمة.

سألته: ـ لماذا؟

أجاب: ـ لأنه أخذ "راحيل" دون أن يدفع مهراً أيجوز له ذلك؟ سأطالبه بالمهر.

فأجبته مازحاً: ـ ألا يكفيك عودتي؟! ألا تساوي المهر؟!

فضحكنا جميعاً.

بعدها قال يوسف: جاء محمد ليعلّمني عزف العود فأخذ البنت وهرب.

فسألته: ـ كيف تمّ ذلك؟!

فقال: ـ في يوم عرسها على إبن عمها.. ذهبت وزوجة أخيها الأكبر إلى "الكوافير" في القدس فعادت زوجة أخيها. ولم تعد أختي "راحيل" أبداً. وكنتُ أعرف الجانب الآخر من القصة ـ أن أبي أخذها في سيارة إلى حيفا. حيث هناك. في المكن. أشهرت إسلامها. وعقدا القران.

وعادا إلى قبلان. مكثا أسبوعين أو ثلاثة. على أبعد تقدير ثم عادا إلى القدس.

ولكن ترى كيف تعرفا على بعضهما البعض؟!

استنتجت من جمع المعلومات والتفاصيل أن روزا ـ جدتي لأمي ـ كانت تبيع الحلوى في شارع "محانيه يهودا". وكذلك جدّي واسمه يوسف أيضاً. كان يبيع الحلوى هناك. وعلى اعتبار أنهما أصحاب "كار واحد" لا بد أنهما تبادلا الأحاديث. ومن ثم زوارهما من الأبناء لا بد أنهما تبادلا الأحاديث. فتعرف أبي على "راحيل" وعلى يوسف. ونشبت بينه وبينها علاقة حب كانت أكبر من كل الحواجز والمتاريس والكراهية. ليتزوجا. ويمتدّ الوضع الدراماتيكي منذ منتصف الأربعينيات ولا ينتهي في منتصف التسعينيات.

امتدت الجلسة بيننا حوالي سبع ساعات. وكانوا يتحلقون حولي كأنني مخلوق غامض غريب. نبتة خارجة على القانون. ولكنها نبتة جديرة بالأرض. وبالحياة. وطافت بي غمامات من دمع وحنين لتمتد بي إلى ذكرى أمي الندبّة وأعرف حينها مدى التضحية الكبيرة التي قدمتها.

لم يتسع الحديث بيننا ليشمل السياسة. أو الصراع. كان حديثاً إنسانياً بامتياز. شربت. وشربت وشربوا معي. فرحت بهم وفرحوا بي كما يليق بالعائد إليهم بعد سنوات اغتراب وعذاب ليقول الخال الأكبر يوسف: آه. الآن غمامة سوداء انجلت عن قلبي بعد أن مكثت فوقه أكثر من أربعين سنة.

تجرأت بنت الخال لتسألني: ــ أتؤمن بالسلام؟!

قلت: ــ نعم.

قالت: ــ أنا لا أؤمن.

ــ لو كنتِ مكاني لآمنتِ واقتنعتِ.

وسألت: ــ ماذا تكتب في الصحف؟

ــ أكتب عن القدس.

ــ القدس؟!

ــ نعم. القدس.

ــ وسحبت ورقة من حلقات "الاتحاد" وقرأت. وبدأ الخال الأكبر الذي يجيد العربية بامتياز يترجم لها. فاستغربت أشدّ الإستغراب ما سمعته عن القدس من إبن خالتها.

فقلت لها مازحاً: ــ أنت يا "شوشي" تشبهين إبنتي سماء إلى حدّ السماء. وسماء تشبه أمي إلى حدّ الأرض. وأنا أشبه أمي. والأرض أمي.

فقالت: ــ من أبوك.

قلت لها: ــ محمد. وأمي راحيل ــ فدوى التي تشبهك وتتجسد في إبنتي سماء.

وليلاً ودعتهم على أمل اللقاء.

أناس طيبون وحسّاسون.

فرحت بهم. وفرحوا بي.

أزورهم على فترات متباعدة. فيغضبون لغيابي. لكن سرعان ما أجيبهم: الذنب ليس ذنبي. إنه مرهون بالتصريح المحدّد الأيام والساعات التي تحدد مدى خطواتي وزيارتي وشوقي إليكم.

وأما محمد. أبي. فمنذ وفاة راحيل (فدوى) قد هجر عوده وأغانيه وألحانه ولم يعد إليها أبداً.

(الرام ــ 1995/11/11)

(•) المؤلف كاتب فلسطيني عائد من الغربة إلى الوطن.

"الآخر" آخرين

سليم سلامة

ثمة إشكاليات غير قليلة أراها عند محاولة الإجابة على سؤال: كيف ترى "صورة الآخر"؟ ولا تلبث هذه الإشكاليات أن تغدو "أميبية" ثم "عنكبوتية" عند إستحالة السؤال الآنف طلباً لرسم "صورة الآخر" قبل تحديد هوية هذا "الآخر".

وأرى إلى أن الأكثر إلحاحاً، وتأسيساً بالتالي، من بين هذه الإشكاليات هي التالية في السؤال: هل بالضرورة أن يكون "آخري"، أنا العربي، يهودياً؟! والجواب القاطع بالتأكيد هو النفي الحازم. فمن طفولتي إلى شبابي الراهن خيط واحد متصل يأتلف عليه كل: "الآخرين" الذين لم يكونوا "أنا" ولم يكن ممكناً أن يكونوني. ومعهم جميعاً يتربّع على خيط الوصل الممتد شخص ثابت الحضور كياناً وهوية، متغيّر الحالات النفسية والفكرية والإجتماعية وكل ما سواها: إنه أنا الآخر لنفسي! ولا حاجة إلى لفت الإنتباه، في هذه النقطة، إلى أنني لم أصل بعد، إلى اليهودي فرداً كان أم مجموعاً! أعني أن "آخري الداخلي" الطالع منّي وعنّي والملازمني، فرداً وجماعة، لا يتوقف عن تذكيري الدائم بسلّم أولوياتي، كلما ابتعدت عنه أو أهملته، عمداً بقصد التقاط الأنفاس أو سهواً بتأثير "آخري الخارجي"!

هذه الملاحظة التوضيحية أسجلها، بداية، لتفتح لي باباً إلى التنقيب في "الآخر" دون الوقوع في شرك المتاهات اللانهائية.

وأياً كان "الآخر"، فإن المنطلق في محاولة سبر أغواره، أولاً، وفي عملية الإتصال به تالياً (وربما أكثر بكثير من مجرد الإتصال!) ينبغي، برأيي، أن يبتعد إبتعاداً صميمياً عن الإجتهاد في أنسنته، من جهة، وعن الدأب على تشييئه والحط من قدره، من الجهة الأخرى. ذلك أن كلا هذين التوجهين/ المتناقضين لا بد صادر عن رؤية مشوّهة لا شك في أن ما يستحصل منها وما يصدر عنها سيكون، هو الآخر، مصاباً بالتشوه.

وعوضاً عن هذا وذاك (لا وسطيّة ولا توفيقية في هذا) يجدر بالمنطلق المذكور أن يكون من الإقرار بحقيقة وحتمية إختلاف "الآخر". ومن ثم الإقرار بأن التقدم والحضارة هما في الإختلافي الإبداعي، لا في التكراري النسخي. وهذا الإقرار ـ بمعنى الإقتناع! ـ يمنح صاحبه قدرة ضرورية على أن يضع نفسه مكان أي آخر. بمعنى أن يكون قادراً على فهم طريقة تفكيره وردود فعله. أن يفهم لا أن يبرر ويقبل! إنها القدرة على رؤية أي آخر "رؤية داخلية" ـ بتعبير حنا مينه.

ويفيدنا علم الإجتماع، في هذا السياق، بأن الصراع، وليس الإستقرار ولا التوازن، هو أهم العمليات الإجتماعية في المجتمع المكوّن من عناصر إجتماعية متصارعة بشكل دائم. وهذا الصراع هو الذي يؤدي إلى التغيير.

ويضيفنا وعياً لهذه المعاني ذلك المفهوم الإجتماعي الذي أسبغ على نظرية آينشتاين النسبية بالقول: إن الواقع الموضوعي موجود، ولكن ليس هنالك شخصان يريانه، باختلاف موقعيهما، بالمنظور نفسه.

وبعد، فإن لنا مرساة في هذه الجملة التي يرددها بوب مارلي في إحدى أغنياته: "حرّر نفسك من عبودية الفكر"! ذلك أن الإنصياع لهذه العبودية والتسليم أمام "الآخر" ـ أياً كان! ـ بأن يستوطن عقلك وروحك يحولانك إلى "روبوت" من الصنف الأردأ والأخطر، على نفسك أولاً!

أما مقاومة محاولات الإستيطان هذه فتبدأ، برأيي، من مواجهة الحقيقة: حقيقة ذاتك وحقيقة "آخرك". فالحقيقة، مهما بلغت قساوتها ومهما اشتد إيلامها، تحررنا! والتحرر هنا بمعنى رأب صدع الروح وتضميد جراح النفس وتخليص العقل مما تراكم عليه وفيه من "أعشاب ضارّة". وهذا التحرير هو نفسه الذي يسعى إلى تحقيقه علم النفس في أحد مناهجه بعقد المواجهة بين الإنسان المعني وبين مصدر مرضه أو ضيقه النفسي.

على أن المواجهة بالمعنى المراد هنا لا تشمل، مثلاً، ذلك الإدعاء "المتداول" والذي يتردد بشكل "تلقائي" عن أننا (نحن العرب في داخل إسرائيل) "تعلمنا من اليهود العادات والممارسات السلبية والسيئة بدل أن نتعلم منهم العادات والممارسات الإيجابية والجيّدة". وبصرف النظر هنا عن النقاش حول ماهية "السلبي والسيء" أو "الإيجابي والجيّد". فإن هذا الإدعاء يستبطن الكثير من المغالطات والتشويهات التي أخطرها، برأيي، هو التعامل (اللاواعي، غالباً) مع "ذاتنا" على أنها متلقٍ فقط، بينما الآخر هو الملقّن الذي يريحنا كثيراً تحميله وزر عيوبنا ومثالبنا ـ يريحنا من حيثُ أنه يحررنا من واجب ومسؤولية مواجهة هذه العيوب والمثالب، مصادرها وحقيقتها (هل الكذب والغش والسرقة والمخدرات والزنى والركض وراء الكسب الرخيص والسريع وكل ما يخطر وما لا يخطر ببال من عيوب وآفات أخلاقية وإجتماعية هو حكر علينا نحن هنا، لأننا "نعيش مع اليهود"؟!).

إنني أستذكر هنا، في الحديث عن المواجهة، تحقيقاً صحفياً أجرته مجلة "العربي" الكويتية

الرسمية ونشرته في عددها الصادر في يناير 1994 (العدد 422) حول "إقتحام" التلفزيونات العربية للفضاء. وسأحيل القارئ هنا إلى بعض ما قاله هناك وزير الإعلام الكويتي المساعد لشؤون التلفزيون. رضا الفيلي. الذي تساءل: "ماذا نفعل أمام هذا الحشد الهائل من البث التلفزيوني. وخاصة المحطات الفضائية في العالم"؟ ثم أجاب: "سوف لا نستطيع أن نصدّ(!) هذا التيار ولن نتمكن من توجيهه(!!). وكل ما نستطيعه هو أن نقف بجرأة وشجاعة لتقييم هذا الشيء القادم على أطفالنا وشبابنا. الكل سوف يتأثر لأننا لا نستطيع أن ننعزل عن العالم. إنك تستطيع أن تمنع شريطاً أو كتاباً أو مجلة ولكنك لا تستطيع أن تمنع البث"(!!).

نعم. هذا هو الخوف المرضيّ الذي يستوطن (يحتل) روحنا وعقلنا والذي لا أرى له أية علاقة بوجود "الآخر اليهودي" بيننا أو لصقنا. إنه الخوف المريب الذي ينم عن فهم مشوّه ومشوّه (بفتح الواو ثم بكسرها) مؤداه أنه يمكن "مواجهة" "الآخر" بالقمع الإداري وسط التغييب المطلق للحوار الدمقراطي ولسيادة روح العلم والعقلانية واحترام كرامات الناس وكفالة حقهم في المشاركة في صياغة القرار السياسي والإقتصادي والإجتماعي في أوطانهم. لا أن يظلّوا ـ بسوادهم الأعظم ـ يعيشون في الهامش (الذي يتسع ويتسع باستمرار) ولا فائدة بل لا مصداقية. بعد ذلك في "التحذير" المرعوب من "الغزو الثقافي الأجنبي" ـ إلا الفائدة التي يروم البعض تحقيقها. مع سبق الإصرار والترصّد. بتكريس الإنعزالية والتحوصل على الذات. الذات التي تكابد التشوّهات وتتعرض لأبشع ما في الإحتلال والإستعباد من أنواع. ناهيك عن أن "ظلم ذوي القربى..."!!

أفي هذا التوصيف أي صك براءة لـ "الآخر اليهودي" من أي شيء اقترفه؟ ـ بالطبع لا. لكن القصد هو التوكيد على حقيقة أن بعض أرباب وقباطنة الثقافة العرب ماضون في خيانة واجبهم كما حدده تشيخوف بقوله أن "الشيء الوحيد الملزم بالنسبة للمثقف هو طرح القضايا بشكل صحيح"! وهؤلاء. بطرحهم القضايا بشكل غير صحيح ـ على الأقل! ـ إنما يعيقون ويعوقون عملية التفتيش عن حلول مناسبة وصحيحة لهذه القضايا التي تتربع على رأس هرمها القضية الأساس التالية: لن نستطيع مواجهة ممارسات "الآخر الأجنبي" (ومنه اليهودي) ونتائجها ما لم ننجز المواجهة مع "الآخر الداخلي". على كل ما تحمله هذه المواجهة من إحتمالات النتيجة.

ونبقى. بالتالي. الحاجة إلى تحديد أكثر تفصيلاً وتركيزاً: في أية دائرة من الدوائر المحيطة ببعضها البعض يبدأ "الداخل"؟!

(حيفا)

أزمة المصطلح ـ أهي أزمة حقيقية أم أزمة مفتعلة؟

(تعقيب على مقال: "الأدب الإسرائيلي وأزمة المصطلح")

محمود كيّال

قرأت باهتمام وتمعّن مقال الأستاذ صلاح حزيّن "الأدب الإسرائيلي وأزمة المصطلح" الذي نُشر في العدد الثاني من مجلة "مشارف" (حزيّن 1995). ورغم تقديري لهذه المداخلة وما تثيره من جدل حول تحديد مصطلح مناسب للأدب المكتوب باللغة العبرية في إسرائيل، إلا أنني رأيت من الضروري أن أعقّب على هذه المداخلة محاولاً تقديم إستعراض أكثر شمولاً لمظاهر وإشكاليات أزمة المصطلح وإبداء بعض الملاحظات حول النهج الذي اتبعه الكاتب في مقاله وحول النتائج التي توصل إليها.

1 ـ إن المقال يعرض صورة مشوّهة وجزئية للدراسات العربية التي عالجت موضوع الأدب العبري الحديث. ولا يخفى على أحد ما قد يكون لهذه الصورة الجزئية من أثر على البحث ونتائجه. فالكاتب يكاد يجزم بأن استخدام مصطلح "الأدب العبري" في الدراسات العربية يعتبر نادراً" (حزيّن 1995: 134). بل إنه يشير إلى أن النصف الثاني من العقد الماضي وبداية العقد الحالي شهد "إتجاهاً إلى إستخدام مصطلح الأدب الإسرائيلي كما يظهر في الملف الذي نشرته مجلة "إبداع" المصرية في عدد من أعدادها حول "الثقافة الإسرائيلية" (حزيّن 1995: 141). ويبدو لي أن الكاتب لا يستند في إدعائه السابقين حول ندرة مصطلح الأدب العبري وحول رواج مصطلح الأدب الإسرائيلي على حقائق وبراهين واضحة. بل أن المثال الذي أورده بصدد مجلة "إبداع" يثبت عكس ما رمى إليه. فصحيح أن الملف الخاص الذي أصدرته هذه المجلة في ثلاثة أعداد متعاقبة، وليس في عدد واحد كما قد يُفهم من كلام حزيّن، كان يحمل عنوان "ثقافة إسرائيل ـ دعاوى التطبيع وأبعاد المواجهة" (1995). لكن معظم الدراسات الواردة في هذا الملف إستخدمت مصطلح "الأدب العبري" كما نجد مثلاً في المقالات التالية: "صورة مصر في الأدب العبري المعاصر" لعلي عبد الرحمن عطية، "خطوط عريضة لإتجاهات الأدب العبري المعاصر" لرشاد الشامي وغيرها. زد على ذلك أن الكثير من الأبحاث والدراسات التي صدر في كتب في العقدين الأخيرين في مصر من قبل أكاديميين متخصصين في الأدب العبري إستخدمت هي الأخرى مصطلح "الأدب العبري". ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: "القصة العبرية وأوضاع اليهود في فلسطين في فترة الهجرة الثانية 1904 ـ 1914" لمحمد محمود أبو غدير

(1987)، "مصر في الأدب العبري الحديث" لزين العابدين محمود حسن (1988)، "الأدب العبري الحديث ـ الضال في دروب الحياة" لأحمد حماد (1991) وغيرها. إن هذه الحقائق لا تدع مجالاً للشك بالنسبة لرواج مصطلح "الأدب العبري" في الدراسات العربية، وذلك بخلاف ما كاد يجزم به الأستاذ حزّين بناءً على معلومات جزئية وغير متكاملة. ومما يجدر ذكره أيضاً أن حزّين أغفل ذكر عدد من الكتب التي تجد في عناوينها مصطلح الأدب اليهودي أو الأدب الإسرائيلي أو الأدب الصهيوني، ونذكر من هذه الكتب: "أضواء على الأدب الصهيوني المعاصر" لإبراهيم البحراوي (1972)، "نماذج من الأدب الإسرائيلي: المقالة، الشعر، القصة" لعبد المنعم سليم (1978)، و"الأدب اليهودي المعاصر" لفؤاد حسنين علي (1972). إجمالاً لا بد من القول إنه لمن المؤسف حقاً أن تغيب من قائمة الدراسات التي ذكرها الكاتب تلك الدراسات التي قام بها الباحثون العرب المتخصصون في الأدب العبري، إذ من المفروض أن يكون هؤلاء المرجع الأول والأخير عند الحديث عن موضوع تخصصهم.

2 ـ إن الكاتب يؤكد في بداية مقاله أنه "في أواخر العام 1967 كتب الشهيد غسان كنفاني مؤلفه الرائد "في الأدب الصهيوني" حارثاً في أرض بكر" (حزّين 1995، 132). وهذه المرة أيضاً لم ينصف الكاتب مجموعة من الباحثين الذين يمكن إعتبارهم الرعيل الأول من دارسي الأدب العبري أمثال فؤاد حسنين علي ومحمد محمد القصاص اللذين ساهما بشكل بارز في ترسيخ قواعد الدراسة الأكاديمية للأدب العبري في مصر منذ الخمسينات (السباعي 1993، 15). وقد نشرت بعض مؤلفات هذين الباحثين حول الأدب العبري قديمه وحديثه قبل صدور كتاب غسان كنفاني (1967)، فكتاب فؤاد حسنين علي "من الأدب العبري" صدر عام 1958 ثم عام 1963.

3 ـ لقد جنى الكاتب على بعض الأبحاث التي ذكرها حينما حذف بعض الكلمات من عناوينها، كما حدث مثلاً بالنسبة لكتاب إبراهيم البحراوي وعنوانه الكامل: "الأدب الصهيوني بين حربين حزيران 1967 ـ تشرين 1973" (1977)، وكتاب عبد الوهاب وهب الله وعنوانه "الإستيطان اليهودي في الأدب الصهيوني" (1983)، وكتاب معين بسيسو وعنوانه "نماذج من الرواية الإسرائيلية المعاصرة" (1970)، وكتاب جودت السعد وعنوانه "الأدب الصهيوني الحديث بين الإرث والواقع" (1981). كما لم يتوخ الكاتب الدقة في وصف مواضيع ومضامين بعض الكتب، فهو يشير إلى أن موضوع كتاب وهب الله هو "تتبع فكرة الإستيطان وتجلياتها في الأعمال الأدبية التي كتبها بعض الكتّاب اليهود والإسرائيليين" (حزّين 1995، 133)، إلا أن مراجعة الكتاب تجعلنا على يقين بأن ما ذكره حزّين يبدو عاماً بل ويحتوي على بعض المغالطات، فوهب الله نفسه يقول: "..إن البحث التالي ينطوي على دراسة لأهم أعمال عجنون الأدبية، ونعني رواية "الأمس الأول"، وفيها عرض لمراحل الإستيطان اليهودي في فلسطين في فترة تعد من أخطر الفترات" (وهب الله 1983، 6)، وهي فترة الهجرة الثانية 1904 ـ 1914. فمن الواضح إذن أن وهب الله يتحدث عن فترة تاريخية محددة وعن كاتب محدد وعن عمل أدبي محدد، وهذا ما يتلاءم مع ما قاله حزّين. أما كتاب جودت السعد "الأدب الصهيوني الحديث بين الإرث والواقع" فموضوعه برأي حزّين "متابعة الأفكار التوراتية كما انعكست في الكتابة بالعبرية سواء كان شعراً أو رواية أو قصة" (حزّين 1995، 133). في حين أن جودت السعد نفسه يوضح موضوع كتابه قائلاً: "آثرت أن يكون موضوعنا محدداً بتأثير التوراة ونتائج الأعمال البطولية ضدّ

العدوّ ومنشأته على المعنويات الصهيونية وإنعكاس ذلك على الأدب.. أي أني أتتبع ردة الفعل التي يعانيها المستوطن" (السعد 1981: 7).

4 ـ يبدو حزّين مقتنعاً بأنه من بين الكتب التي ذكرها "لم تتوقف سوى بديعة أمين في كتابها "الأسس الأيديولوجية للأدب الصهيوني" لتوضح ما تقصده بالأدب الصهيوني" (حزّين 1995: 133). وأعترف أنّي لم أتمكن حتى الآن من الوصول إلى هذا الكتاب. ولكن بعض الكتب التي ذكرها حزّين، ناهيك عن الكتب التي لم يذكرها، تعرضت بشكل صريح أحياناً وبشكل مبطّن أحياناً أخرى إلى مفهوم الأدب الصهيوني. فإذا راجعنا مثلاً كتاب جودت السعد المذكور أعلاه فسيتبين لنا أن هذا الباحث يستخدم على الأغلب مصطلح الأدب الصهيوني للدلالة على الأدب المكتوب بالعبرية. إذ نجده يقول: "إن ما يطلق عليه أدب صهيوني مجازاً يكون أدباً إنكليزياً أو فرنسياً أو ألمانياً لأفراد من تلك الشعوب يدينون باليهودية التي أثرت على هذا النتاج بصورة ما" (السعد 1981: 8). ومعنى ذلك أن السعد يميل إلى تسمية الأدب المكتوب بالعبرية فقط دون غيرها من اللغات بالأدب الصهيوني

5 ـ لم يلتفت حزّين إلى عدد من الظواهر التي تتجلى من خلالها إشكالية إستخدام المصطلحات في بعض الدراسات العربية التي تتناول الآداب المكتوبة بالعبرية وغيرها من اللغات والتي صُنّفت في تلك الدراسات كأدب عبري أو صهيوني أو يهودي أو إسرائيلي. ونحن نرى من المناسب أن نقف عند أهم هذه الظواهر:

أ ـ إن الكثير من الأبحاث، وبضمنها بعض الكتب التي ذكرها حزّين، لم تلتزم بمصطلح ثابت داخل نفس الدراسة. فلو نظرنا مثلاً إلى كتاب إبراهيم البحراوي الذي يحمل عنوان "الأدب الصهيوني بين حربين حزيران 1967 ـ تشرين 1973"، فإننا نلاحظ أن البحراوي يستخدم في صفحتين متتاليتين ثلاثة مصطلحات مختلفة: الأدب العبري، الأدب الإسرائيلي والأدب العبري الإسرائيلي (البحراوي 1977: 28 ـ 29). هذا إضافة إلى المصطلح الذي أورده في العنوان نفسه. ولم يتفرد البحراوي بمثل هذه الظاهرة بل شاركه بها عدد من الباحثين. ولا بد من التنويه أيضاً إلى أن بعض الباحثين لم يلتزموا كذلك بمصطلح ثابت في عناوين دراساتهم. فمثلاً رشاد الشامي إستخدم مصطلحين مختلفين في كتابيه اللذين يتناولان الأدب العبري وهما: "لمحات من الأدب العبري الحديث مع نماذج مترجمة" (1978) و"الفلسطينيون والإحساس الزائف بالذنب في الأدب الإسرائيلي" (1988). ولا شك أن هذه الظاهرة كانت تستحق وقفة متأنية عند إثارة قضية إشكالية إستخدام المصطلحات.

ب ـ إن المصطلح الواحد قد يستخدم للتحدث عن ظاهرتين أدبيتين مختلفتين. فحتى لو قصرنا إهتمامنا على عناوين الدراسات للاحظنا بروز هذه الظاهرة. فالأدب الصهيوني قد يُقصد به الأدب المكتوب بالعبرية أو بلغات أخرى كما في كتاب غسان كنفاني "في الأدب الصهيوني" (1967). وقد يُقصد به الأدب المكتوب بالعبرية فقط كما في كتاب إبراهيم البحراوي "أضواء على الأدب الصهيوني المعاصر" (1972). وكذلك الأمر بالنسبة للأدب الإسرائيلي. فكتاب معين بسيسو "نماذج من الرواية الإسرائيلية المعاصرة" (1970) يتحدّث عن الأدب الروائي المكتوب بالعبرية والإنجليزية. في حين أن كتاب رشاد الشامي "الفلسطينيون والإحساس الزائف بالذنب في الأدب الإسرائيلي" (1988) يتحدث فقط عن الأدب العبري. بل

وتحديداً عن أدب س. يزهار. أما بالنسبة لمصطلح الأدب اليهودي فهناك من إستخدمه للدلالة على الأدب الذي كتبه اليهود بلغات مختلفة وبضمنها العبرية مثلما نجد في كتاب فؤاد حسنين علي "الأدب اليهودي المعاصر" (1972). في حين إستخدمه آخرون للإشارة إلى الأدب العبري كما نلاحظ في كتاب ريزا دومب المترجم إلى العربية تحت عنوان "صورة العربي في الأدب اليهودي" (1985). ويشذ عن هذه القاعدة مصطلح الأدب العبري الذي لم نجد له غير دلالة واحدة في جميع الدراسات التي إستخدمته في عناوينها.

ج ـ هناك بعض الدراسات التي تمّ تغيير عناوينها لتلائم مواقف الناشر السياسية وتوجهاته المتمثلة برغبته في ترويج الكتاب من خلال إستخدام عناوين أكثر إثارة أو أكثر قبولاً بين جمهور القراء. من بين هذه الدراسات بعض الرسائل الجامعية التي تناولت موضوع الأدب العبري وأجيزت في بعض الجامعات المصرية ثم أعيد نشرها ككتب من قبل عدد من الناشرين. من بين هذه الرسائل رسالة الدكتوراة التي أعدها محمود صميدة تحت عنوان "الشخصية العربية الفلسطينية في القصة الإسرائيلية القصيرة" والتي أجيزت في جامعة عين شمس عام 1984 وقد قامت مؤسسة الإتحاد في أبو ظبي بنشر هذه الدراسة ولكن تحت عنوان تجاريّ محض "إستراتيجية الأدب الصهيوني لإرهاب العرب" (1988). ولم يكن نصيب الدراسات المترجمة أوفر حظاً. فكتاب ريزا دومب الصادر بالإنجليزية عام 1982 والذي يحمل عنوان The Arab in Hebrew Prose 1911 - 1948 ترجم إلى العربية من قبل عارف توفيق عطاري وصدر عن "دار الجليل" في عمان ولكن عنوانه أصبح "صورة العربي في الأدب اليهودي" (1985).

د ـ لم تتأثر الأبحاث العربية المنشورة في إسرائيل بالمصطلحات المتداولة في الأبحاث العربية الصادرة في العالم العربي. ويمكننا أن نجزم أن الغالبية الساحقة من الأبحاث العربية الصادرة في هذه البلاد آثرت إستخدام مصطلح الأدب العبري. ولا نكاد نجد أحداً يستخدم مصطلحاً آخر. وذلك بخلاف ما وجدناه في الأبحاث الصادرة في العالم العربي. وقد ذكر حزّين أحد الأبحاث المنشورة في إسرائيل ونقصد كتاب غانم مزعل "الشخصية العربية في الأدب العبري الحديث" (1985). إلاّ أنه لم يشر إلى حقيقة أن هذا الكتاب صدر في إسرائيل وأنه يمثّل نهجاً يكاد يكون ثابتاً في إستخدام مصطلح الأدب العبري في الأبحاث العربية المنشورة في بلادنا.

إن هذه الظواهر وغيرها تشير إلى مدى العشوائية وعدم الموضوعية في إختيار المصطلحات في بعض الدراسات العربية الصادرة في العالم العربي وإلى تحكم إعتبارات سياسية وتجارية في هذا الإختيار. الأمر الذي يتنافى وطبيعة البحث العلمي الذي يتطلب الدقة والموضوعية. ولحسن الحظ فإن هذه الظواهر آخذة بالإنحسار ولا سيما في الدراسات الأكاديمية.

6 ـ يبدي حزّين تحفظه من إستخدام مصطلحات الأدب الصهيوني. الأدب اليهودي والأدب العبري. وقد أسهب في توضيح أسباب تحفظه. ولكن يبدو لي أنه في حين أن حزّين كان واضحاً في تعليل أسباب تحفظه من مصطلحي الأدب الصهيوني والأدب اليهودي فإن تعليلاته بشأن تحفظه من مصطلح الأدب العبري بدت مضطربة وغير واضحة. فهو من ناحية يقصر إهتمامه على الأدب المكتوب بالعبرية في إسرائيل ويشير إلى أن هذا الأدب ذو سمات خاصة مميزة عن الأدب الذي يكتبه اليهود خارج إسرائيل وأنه "لم تكن له إستمرارية في المكان أو الزمان. وأنه نبت في أوروبا وليس في المنطقة التي قامت فيها إسرائيل" (حزّين 1995،

140) ولهذا يفضل تسمية هذا الأدب بالأدب الإسرائيلي. ومن ناحية أخرى فإن حزّين لا يوضح موقفه بشأن تسمية الأدب الذي كُتب بالعبرية قبل قيام إسرائيل. فإذا كان هذا الأدب يسمى الأدب العبري فهل بمجرد قيام إسرائيل يصبح تعريفه الأدب الإسرائيلي؟! وإذا كان الأمر كذلك فماذا عن الأدباء الذين كتبوا بالعبرية قبل وبعد قيام الدولة؟! هل كانوا يكتبون أدباً عبرياً ثم أصبحوا يكتبون أدباً إسرائيلياً؟! وماذا عن الأدب الذي يُكتب في إسرائيل بلغات أخرى؟! من الواضح إذن أن التعليلات التي ساقها حزّين لموقفه المتحفظ من مصطلح الأدب العبري ظلّت قاصرة عن عرض موقف واضح من مجمل ظاهرة الأدب العبري. لأنها توقفت فقط عند الأدب المكتوب في إسرائيل. ولعله من المجدي أن نعرض مواقف أكثر وضوحاً في تحفظها من مصطلح الأدب العبري. من بين الباحثين الذين أبدوا تحفظهم من هذا المصطلح فؤاد حسنين علي في كتابه "الأدب اليهودي المعاصر" (1972) حيث يعلّل تحفظه بالأسباب التالية:

أ ـ إن جلّ ما جاءنا من أدب لأبناء الطائفة اليهودية منذ العصور الوسطى حتى اليوم تمّ تدوينه بلغات شتّى غير اللغة العبرية.

ب ـ القومية واللغة والوطن هي مقومات لا بدّ من توافرها لخلق أدب حقيقي. وهذه المقومات يفتقدها ما يسميه البعض بالأدب العبري الحديث.

ج ـ هنالك فترة تاريخية قصيرة إستخدمت فيها اللغة العبرية وبرز خلالها ما يسمى بالأدب العبري القديم. ولكن هذه الفترة أعقبها سبي ونفي واندثار للغة العبرية التي حلّت مكانها لغات أخرى كالآرامية والعربية وغيرها.

د ـ منذ عصر النهضة في أوروبا إزداد الإهتمام بدراسة وإحياء اللغة العبرية. ولكن هذا الإهتمام إزداد بشكل ملحوظ مع إرتفاع شأن الحركة الصهيونية حتى أصبحت إسرائيل حالياً المركز الطبيعي للعبرية لغة وأدباً. ورغم ذلك فإن خُمس سكان إسرائيل فقط يهتمون بهذه اللغة (علي 1973: 35 ـ 40).

أما أيمن رقعت فقد كتب مقالاً بعنوان "الأدب العبري ـ مدخل إلى إشكاليات المصطلح" نشره في إطار الملف الخاص عن ثقافة إسرائيل الذي أصدرته مجلة "إبداع" (1995). وفيه يبين رفعت أن مصطلح الأدب العبري يثير إشكالية هامة نتيجة لعدم توفّر وحدة عضوية بين وحداته المتنافرة ولعدم وجود تقاليد أدبية راسخة ومستمرة سوى تقاليد العهد القديم. وكل ذلك يعود للأسباب التالية:

أ ـ إن اليهود لا يشكّلون وحدة إثنية نقيّة تماماً.

ب ـ لا توجد حدود جغرافية للأدب العبري فقد انتقل من الأندلس الإسلامية إلى شرق أوروبا ثم إلى فلسطين.

ج ـ إن التاريخ اليهودي أشبه بسلسلة حلقاتها منفصلة. ولهذا لا توجد لغة عبرية واحدة. فهنالك عبرية الكتاب المقدس التي تختلف عن عبرية الأندلس المتأثرة بالعربية. وكلا النوعين السابقين يختلفان عن العبرية الحديثة المتأثرة باللغات الأوروبية.

د ـ إن نشأة الأدب العبري جاءت في أعقاب الإحتكاك بالحضارتين العربية والأوروبية ولم يظهر قبل ذلك أي أدب حقيقي مكتوب بالعبرية.

أما بالنسبة للأدب المكتوب باللغة العبرية الحديثة فيتميز هو الآخر بعدم التجانس بسبب تصارع

مجموعة من الهويات المختلفة التي يقسمها رفعت إلى نوعين أساسيين هما هويات الدياسبورا (الشتات) وتشمل: هوية الهسكلاه (التنوير)، هوية محبة صهيون، الهوية القومية والهوية الصهيونية. أما النوع الثاني فهو الهويات الإسرائيلية وتشمل: هوية الأشكنازيم (اليهود الغربيين)، هوية السفارديم (اليهود الشرقيين)، هوية الصابرا (اليهود المولودين في فلسطين) وأخيراً الهوية العربية (الأدباء العرب الذين يكتبون بالعبرية).

إذن فهؤلاء الباحثون (حزيّن، علي ورفعت) متفقون على التحفظ من مصطلح الأدب العبري ولكنهم غير متفقين حول أسباب هذا التحفظ وحول المصطلح البديل الذي يمكن أن يغني عن ذلك المصطلح. فبينما يكرّس حزيّن إهتمامه للأدب المكتوب بالعبرية في إسرائيل ويعتبره ذا سمات خاصة ويفضّل تسميته بالأدب الإسرائيلي لئلا "يستمتع" النقّاد الإسرائيليون بخلق الإنطباع بأن هذا الأدب يشكل إستمرارية للأدب المكتوب بالعبرية في أماكن وأزمنة أخرى، فإننا نجد بالمقابل بأن علي (1973) يعتبر الأدب المكتوب بالعبرية أدباً هامشياً بين الآداب المكتوبة بلغات أخرى من قبل اليهود ولهذا فإنه يفضل مصطلح الأدب اليهودي. وقد لاحظنا أن حزيّن أبدى تحفظه من هذا المصطلح. أما رفعت (1995) فإنه يشدّد على عدم التجانس الموجود في الآداب المكتوبة بالعبرية قديمها وحديثها ولكنه لا يقترح مصطلحاً بديلاً. ولا أرى حاجة لمناقشة هذه التحفظات لما بينها من تناقض ولأنها تفتعل أزمة وجدلاً عقيمين لا سيما وأنها لا تقترح بديلاً ثابتاً ومتفقاً عليه لتسمية هذا الأدب. كما أنها تخطت في بعض الأحيان مشكلة المصطلح لتعبّر عن تقييمها لهذا الأدب الذي يعتبره البعض خالياً من المقومات التي تجعله ذا هوية محددة وبالتالي يشككون في وجوده. وخير مثال على هذا التشكيك ما كتبه الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي في الملف الخاص عن ثقافة إسرائيل في مجلة "إبداع" حيث يقول: "فإذا كان الإسرائيليون في أحسن الفروض جماعات تسعى لأن تكون أمة. فهل تتوفر في الأعمال الثقافية التي ينتجونها الشروط التي تجعل من هذه الأعمال ثقافة قومية؟! وجوابي هنا أيضاً هو النفي قطعاً. رغم تقديري لما في هذا الإنتاج الإسرائيلي من أعمال جيّدة ممتازة". (حجازي 1995، أ: 5). ويتابع حجازي في موضع آخر معبراً عن موقفه من اللغة العبرية "والله يعلم إن كانت هذه اللغة المستعملة قد عادت حيّة أو أنها لا تزال ميتة. أما أنا فكل ما أعلمه أن الإسرائيليين يقولون عن لغتهم إنها حيّة. وربما كان هذا خداعاً للذات. وأننا نقول عن لغة الإسرائيليين إنها ميتة. وربما كان هذا خداعاً للذات" (حجازي 1995، ب: 4). من هنا يتضح أن الأزمة الحقيقية بنظر بعض الباحثين لم تكن أزمة المصطلح وإنما ارتبطت بالموقف من الأدب العبري وهو موقف له جذوره التاريخية وأبعاده السياسية التي لا تخفى عن القارئ.

7 ـ أخيراً، ولكي تكتمل الصورة، لا بد أن نوضح أن بعض الباحثين حاولوا تحديد ضوابط لإستخدام المصطلحات في الدراسات العربية. ورغم ما في هذه المحاولات من تهرب من مواجهة مشكلة فوضى المصطلحات ومن تبرير وتكريس لهذه الفوضى، إلاّ أن هذه المحاولات تستحق الوقوف عندها. أحمد حماد يقترح مثلاً وضع حدود فاصلة بين مختلف التعريفات والمصطلحات المتعارف عليها في الدراسات العربية. فالأدب العبري، برأيه، هو كل ما أُنتج في العصر الحديث وتناول موضوعات متعلقة بالحياة اليهودية العلمانية. أما الأدب اليهودي فهو الأدب الذي كُتب بلغات أخرى وتناول موضوعات متعلقة باليهود

واليهودية. في حين أن الأدب الصهيوني هو ما كتبه اليهود وغير اليهود بأية لغة من اللغات عن موضوعات تتعلق بالفكرة الصهيونية وتدعو لها. وأما الأدب الإسرائيلي فيقصد به الأدب الذي أنتج في فلسطين بعد إعلان قيام دولة إسرائيل في عام 1948. غير أن حماد نفسه يؤكد أن مصطلحي الأدب الصهيوني والأدب اليهودي لا يعتبران تصنيفاً أدبياً ويستحسن عدم الأخذ بهما (حماد 1991: 6 ـ 7). كما حاول محمد جلاء إدريس أيضاً تحديد مفاهيم واضحة لهذه المصطلحات. فالأدب اليهودي برأيه وإعتماداً على دائرة المعارف اليهودية، هو النتاج الأدبي اليهودي منذ ثلاثة آلاف عام في البلاد التي عاشوا فيها وباللغات التي كتبوا بها وحول الموضوعات المتعددة التي تراءت لليهود. وأما الأدب العبري فيقتصر على الأدب المكتوب بالعبرية مع تجاهل الظروف الجغرافية والحضارية المختلفة ويمتد منذ عصر تدوين العهد القديم وحتى وقتنا هذا. وأما الأدب الصهيوني فهو النتاج الأدبي المتعاطف مع الفكرة الصهيونية بغض النظر عن موضوعه أو لغته كذلك. فهو مصطلح يعتمد على تحديد جغرافي أكثر من أي شيء آخر (إدريس 1992: 68 ـ 69). هذان الباحثان يحددان إذن مفاهيم مختلفة لبعض المصطلحات ما يعني أن حدود هذه المصطلحات ظلّت غامضة ومتداخلة في أعقاب هذه التحديدات. بل إن هذه التحديدات أدخلتنا في متاهات جديدة. ولعلّ ما قام به حزّين من رفض لبعض المصطلحات يعتبر خطوة هامة في سبيل تخليص الدراسات العربية من دوامة المصطلحات، رغم أننا لا نتفق معه في النتيجة التي توصّل إليها.

بقي علينا أن نشير إلى أن هناك وجهين لأزمة المصطلح. الوجه الأول يتعلق بوجوه إستخدام المصطلحات في الدراسات العربية وما يثيره هذا الإستخدام أحياناً من إلتباس وتداخل. أما الوجه الآخر فيتعلق بالموقف من الأدب العبري، لا سيما وأن هذا الموقف دفع الباحثين إلى تفضيل مصطلح ما على مصطلح آخر. ولعلنا إستطعنا في هذه العجالة أن نوضح بعض جوانب الوجه الأول لهذه الأزمة. ولكننا بالتأكيد لم نستطع أن نوفي الوجه الآخر حقه، خاصة وأن ذلك يتطلب إطاراً أوسع من هذا الإطار. ومن الواضح أنه سواء أكانت أزمة المصطلح أزمة حقيقية أو أزمة مفتعلة فبإمكانها أن تبين لنا مدى إنشغال الباحثين العرب بهذه القضية التي تمثل جانباً من جوانب التعامل الحذر أحياناً والعدائي أحياناً أخرى مع الأدب العبري.

(جديدة ـ الجليل الغربي)

** كاتب المقال يعدّ رسالة الدكتوراة في موضوع الترجمات الأدبية من اللغة العبرية إلى اللغة العربية في جامعة تل أبيب.

المراجع

إدريس 1992 محمد جلاء إدريس، "قضايا الأدب المقارن في إطار الدراسات السامية". القاهرة: المركز القومي للدراسات العربية والإسلامية 1992.

البحراوي 1977 إبراهيم البحراوي، "الأدب الصهيوني بين حربين حزيران 1967 ـ تشرين 1973". بيروت: المؤسسة

العربية للدراسات والنشر 1977.

حجازي 1995 أ أحمد عبد المعطي حجازي. "ثقافة أمة.. أم ثقافة أفراد؟". "إبداع". ج 12 عدد 1 يناير 1995 ص 4 ـ 5.

حجازي 1995 ب أحمد عبد المعطي حجازي. "مجرد بداية". "إبداع". ج 12 عدد 3 مارس 1995 ص 4 ـ 5.

حزين 1995 صلاح حزيّن. "الأدب الإسرائيلي وأزمة المصطلح". "مشارف". العدد 2 أيلول 1995 ص 132 ـ 141.

حماد 1991 أحمد حماد. "الأدب العبري الحديث ـ الضال في دروب الحياة". القاهرة: دار الزهراء 1991.

رفعت 1995 أيمن رفعت. "الأدب العبري ـ مدخل إلى إشكاليات المصطلح". "إبداع". ج 12 عدد 1 يناير 1995 ص 30 ـ 41.

السباعي 1993 السباعي محمد السباعي. "الدراسات الشرقية في خمسين عاماً". "رسالة المشرق". ج 2 عدد 2 ـ 3 ديسمبر 1993 ص 8 ـ 15.

السعد 1981 جودت السعد. "الأدب الصهيوني الحديث بين الإرث والواقع". بيروت: المؤسسة العربية 1981.

علي 1972 فؤاد حسنين علي. "الأدب اليهودي المعاصر". القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية 1972.

وهب الله 1983 عبد الوهاب وهب الله. "الإستيطان اليهودي في الأدب الصهيوني". بيروت: دار الكلمة 1983.

مكتبة "مشارف"



"الشمعة والدهاليز" ـ رواية جديدة للطاهر وطّار محاولة لفهم ما لا يُفهم!

* يقول الكاتب الجزائري الطاهر وطّار في تقديم روايته الجديدة "الشمعة والدهاليز" أن وقائعها تجري قبل إنتخابات العام 92 في الجزائر. وهي في هذا إنما تُسجّل فصلاً من فصول التاريخ الجزائري الذي يسجّل ذاته في الصفحات المفتوحة الآن. وهي من حيث زمنها، تشكّل مدخلاً لقراءة أحداث الجزائر التي انكفأت إلى أزمة سياسية ـ إقتصادية ـ فكرية بعد ثورة تحرر مظفرة.

الطبعة الثانية للرواية ستصدر قريباً عن "المؤسسة العربية للدراسات والنشر"، بينما كانت الطبعة الأولى صدرت عن منشورات "التبيين" الجاحظية في الجزائر ضمن سلسلة الإبداع الأدبي (1995)، في 207 صفحات من القطع الصغير. أما الإخراج والطباعة فيبدوان أنهما نُفذا على عجل فجاءا مختلفين تماماً عمّا كان في رواية "تجربة في العشق" السابقة للطاهر وطّار. وربما أن هذه العجلة من سمات المرحلة الجزائرية الراهنة. كل شيء يُنفّذ على عجل لئلا تطال المنفّذ رصاصة طائشة أو مُحكمة أو سيارة مفخخة!

الرواية نُشرت على حلقات في ملحق جريدة "أخبار اليوم" ـ ("أخبار الأدب") المصرية. فاطلع عليها القارئ العربي، لا سيما المصري. وطباعة الرواية في "نسخ محدودة" ستمكّن القارئ الجزائري من قراءتها في وقت هو في أمسّ الحاجة فيه إلى الأمن والطمأنينة، وإلى مخارج من دوامة العنف.

يقيناً أن مسألة فهم ما يحدث في الجزائر الآن ليست سهلة الفهم والإدراك. والكاتب نفسه يدرك هذا الإشكال في فهم ما يحدث. فهو يقول في خاتمة مقدمة الرواية: "ها إنني لا أستطيع لحاق ما يجري في الجزائر لا لشيء آخر سوى أنني جزء لا يتجزأ من هذا التاريخ. أؤثر فيه وأتأثر به. وأبذل كل عمري محاولاً فهمه. لعل هذا هو المهم".



مجلتا "التبيين" و"القصيدة" الجزائريتان خطوتان في مشروع ثقافي متكامل!

• وصلتنا من منشورات الجاحظية الجزائرية، مجلة "التبيين" (العدد 9) وهي ثقافية وإبداعية وهي مجلة يديرها الكاتب الطاهر وطّار ويشارك فيها عدد كبير من المثقفين والمبدعين الجزائريين.

والمجلة التي تحتوي بين دفتيها مواد غنية وقيّمة ربما كانت السمة الرئيسية فيها إنشغالها في مسألتين هما الرواية المغاربية والمأزق الحضاري للمجتمع العربي. هذا إضافة إلى عدد من المواد الأدبية.

وما يلفت النظر إلى هذه المجلة والفلسفة الثقافية من ورائها هو ما كتبه الكاتب وطّار في إفتتاحية العدد: "(...) شهيتنا كجاحظيين متفتحة للعمل الثقافي، وللعطاء السخي حتى نُسهم في إقامة حاجز العقل والمعرفة، ضد التصحّر الفكري الذي يزحف بلا هوادة، في عصر كل حركة فيه، حتى حركة المجرات البعيدة محسوبة بالعلم والعقل". ومن بقية ما في الإفتتاحية ندرك أننا لسنا أمام مجلة عادية وإنما أمام مشروع ثقافي متكامل ومحسوب يحاول أصحابه ـ المثقفون الجزائريون ـ أن يعملوا وينجزوا في ظروف من العمل السري أو ما يُشبه!



•

ومع مجلة "التبيين" وصلتنا فصلية "القصيدة". وهي ملحق أدبي يُعنى بقضايا القصيدة المغاربية ومسألة الحداثة الشعرية. والعدد الذي وصلنا هو العدد الرابع وهو مليء بالأبحاث في الشعر المغاربي وبنصوص شعرية فلما صحّ لنا أن نطّلع عليها.

والمجلة حلقة أخرى في المشروع الثقافي الذي أخذت مجموعة

كبيرة من المثقفين الجزائريين النهوض به في ظروف يبدو أنه ليس لهم فيها أي إحتمال.

عن منشورات "فراديس" في باريس "ذكر ومومياءات" و"تكلّم أنت أيضاً"





• وصلنا من منشورات "فراديس" كتابان شعريان ترجمهما عبد القادر الجنابي في منفاه الباريسي.

الأول بعنوان "ذكر ومومياءات"، وهو مجموعة قصائد مترجمة عن الفرنسية للشاعرة جويس منصور التي تحدرت من عائلة مصرية وعاشت في بريطانيا وباريس. والثاني بعنوان "تكلّم أنتَ أيضاً" للشاعر الألماني باول تسيلان.

والجنابي اختار جويس منصور المرأة الثائرة التي تنتمي إلى المدرسة الشعرية السوريالية حتى الرمق الأخير. فإذا بالقصائد المترجمة خناجر حادة متحفزة للإنقضاض. صارخة في مكاشفتها وفي صورها. شاعرة ثائرة بقصائد متناهية الصراحة.

أما باول تسيلان فهو نموذج الشاعر الذي أصرّ على إستخدام اللغة التي عاش في فضائها المجتمع الذي أراد إبادة شعبه اليهودي. إلا أنه نجح في توظيف اللغة الألمانية ليعلن بها وفيها موقفه النقدي من الماضي والتاريخ وما فيهما. وهو متميّز في شعره المكثّف الذي يتحرك في فضاء اللغة تحركاً خارقاً تنبعث منه وفي كل إتجاه شاعرية متفرّدة.

والجنابي في هاتين الترجمتين إختار للترجمة نصوصاً خاصة لشاعرين لا نعرف إذا ما كنّا سنعرفهما بالعربية لولاه. إنها فرصة منحها لنا كي نعرف. كي نرى ونطّلع على ما هو آخر ومختلف.

"تربية عبد القادر الجنابي" سيرة ذاتية لمثقف قلق

• "لأن الكتابة ليست مجرّد تعبير عمّا خفي على الكاتب



في أعماقه وإنما هي كذلك جَوَلاته على سطح الأعماق لاكتشاف ما ترسّب في ذاكرته فغدا جزءاً منه. فالكاتب، بقدر ما يتشرّد في متيه ذاتية حرّة يُولد لديه، في حمى هذا التشرّد شعور بالإستيلاء على مجمل الماضي وبالإبتعاد عن كل موضوعية" - هكذا يكتب المثقف العراقي القلق، عبد القادر الجنابي، في مُفتتح كتابه "تربية عبد القادر الجنابي" - وهو كتاب سيرة ذاتية صادر حديثاً عن شركة "دار الجديد" في بيروت.

الكتاب واقع في 137 صفحة من القطع المتوسط. وهو عبارة عن سيرة ذاتية يرويها الكاتب على نحو ما يتذكرها ويراها.

والجنابي عراقي الأصل والمنشأ راديكالي النزعة أراد في أحلامه وأعماله أن يقلب الدنيا التي انقلبت عليه فعاش ويعيش في المنفى على ما يعنيه من قلق دائم ورغبة في أن يتفجّر شيء ما وأن يحدث الخارق.

إنها ليست سيرة ذاتية فحسب، بل هي تسجيل لوقائع مرحلة كاملة من مراحل الثقافة العربية المتأزمة. فالكاتب شارك في مشاريع ثقافية عديدة في الوطن العربي وفي المنفى العربي أيضاً. أفلح وأخفق، انتشى ويئس لكنه واصل قدماً في قناة الكتابة يحاول أن يُمسك الفرح المنزلق أبداً من بين أصابعه.



"المدار الصعب" - جديد د. محمود غنايم ضوء على مساحة أكبر من كياننا الأدبي

• "المدار الصعب" - رحلة القصة الفلسطينية في إسرائيل، كتاب جديد للباحث والناقد د. محمود غنايم في إطار سلسلة "منشورات الكرمل" - جامعة حيفا و"دار الهدى - كفرقرع".

والكتاب كما في عنوانه قراءة لتطورات الكتابة القصصية العربية الفلسطينية في إسرائيل منذ بداياتها. وهو إذاً ليس دراسة مونوغرافية، عن كاتب أو عمل أدبي أو تيار معين، بل "يبقى في إطار الرؤية غير المتكاملة لفهم ديناميكية هذا الأدب والقوى الفاعلة والمؤثرة فيه".

والكتاب يأتي في مدخلين وخمسة فصول. في المدخل الأول ـ البدايات ـ إستعراض "بشكل موجز بدايات الأدب الفلسطيني على مختلف فروعه وأنشطته. للتمهيد للمدخل الثاني ـ البداية مرة أخرى ـ الذي تتبع الظروف الجديدة والمراحل المختلفة التي يُمكن من خلالها النظر إلى الأدب العربي في إسرائيل". وفي نهاية المدخل الثاني "بعض التصورات التي نتجت عن استعراض الجو العام الذي أحاط بنشأة هذا الأدب".

وأتى الفصل الأول عن الأديبة نجوى قعوار، التي "تعتبر أهم كاتبة في الخمسينات". وجاء الفصل الثاني على طبيعة القصة عند توفيق فيّاض في بداية الستينات. أما الفصل الثالث فأفرد لـ "سداسية الأيام الستة" لإميل حبيبي. ويبحث الفصل الرابع في التيارات الأدبية ـ القصصية التي نشأت في السبعينات وفي ميزاتها واتجاهاتها وعلى نحو مقارن. وكُرّس الفصل الخامس لرصد "محاولات القصة منذ السبعينات للإفلات من المحلية والإنطلاق إلى العالم العربي وما أوجب ذلك من تغييرات في أسلوب القصة ومضمونها".

إذن فالكتاب الذي جاء في طبعة أنيقة وفي 387 صفحة من القطع الكبير، يتناول مسألة أدبية على نحو شامل يؤرخ لها ويحللها ويستعرضها. وهو في هذا إنما يشكّل خطوة أخرى في قراءة متأنية للمشهد الأدبي المحلي. فهو ليس قراءة سريعة في نصّ أو نقداً لأديب أو تحليلاً لأعماله. فرغم أهمية مثل هذه الأعمال، ولدينا منها الكثير، تبقى للعمل الجديد الذي أنجزه د. محمود غنايم نكهته وأبعاده الخاصة. فهو يُتيح لنا قراءة الأدب في حركيته، في جريان أحد تياراته. وكأنه يلقي الضوء على مساحة أوسع من كياننا الأدبي ويؤشر لنا على مواقع ومعالم وعلامات بارزة.

والكاتب يفعل ذلك من خلال أدوات علمية وعلى نحو منهجي فيتوقف عند منعطفات المكان وثنايا الزمان ولا يُغفل التفاصيل.



"أحلام فاطمة"
نصوص مختارة صادرة عن الإذاعة الألمانية باللغة العربية

• "أحلام فاطمة" ـ هو عنوان لكتاب صادر باللغتين العربية والألمانية عن دار مالك الجديدة للنشر (ألمانيا). وهو يجمع بين دفتيه مجموعة من الأعمال القصصية والمسرحية التي كتبها مبدعون عرب في إطار مسابقة إبداعية أعلنتها إذاعة صوت ألمانيا باللغة العربية.

والكتاب أنيق الإخراج يقع في (400) صفحة تضمّ النصوص بالعربية مترجمة إلى اللغة الألمانية.

والكُتّاب المشاركون هم من الوطن العربي الكبير، خاصة من مصر.

أما الناشران فهما بيتر فيليب وهو رئيس قسم الشرقين الأدنى والأوسط في إذاعة صوت ألمانيا وجورج أنيس خوري وهو من مواليد عكا ويشغل منصب المحرر الثقافي المسؤول في القسم العربي للإذاعة.

والنصوص المنشورة هي نصوص مختارة من (1100) نص وصلت الإذاعة لدى الإعلان عن المسابقة. أما الهدف من إصدارها فهو الرغبة في إيصال النصوص المختارة إلى مجموعة أكبر من المهتمين تتعدى حدود المستمعين. "كما أننا نأمل في أن يُساهم الكتاب في تقريب بعضنا من بعض" ـ كما يقول ديتر فايريش، المدير العام للإذاعة.

(مرزوق حلبي)

رسالة حيفا

نقابة عامة للأدباء في إسرائيل

• في 18 و1995/12/19 عقد في تل أبيب المؤتمر التأسيسي الأول "للنقابة العامة للأدباء في إسرائيل" وهي منظمة تجمع مئات الكتّاب الذين يكتبون بلغات مختلفة، العبرية والعربية والروسية والايديشية والإسبانية وغيرها.

جاء هذا التنظيم الجديد في أعقاب قرار "رابطة الكتّاب العبريين" (نيسان 1995) رفض تغيير إسمها من "رابطة كتّاب عبريين" إلى "رابطة عامة للكتّاب" ليتسنى لجميع الكتّاب في البلاد الإنتساب إليها بغض النظر عن إنتماء الكاتب القومي أو الطائفي أو لغة إبداعه ولتصبح نقابة مهنية تعنى بشؤون الكاتب. وعلى أثر هذا القرار إنسحب عدد كبير من "رابطة الكتّاب العبريين" ودعوا إلى إقامة تنظيم جديد على أساس مهني ويعمل من أجل ضمان حقوق الكاتب وتنظيم العلاقة بين الكتّاب والناشرين وتوفير الإستشارة القضائية وصياغة مشروع قانون يؤمن حرية الكتّاب وحقوقهم، بما في ذلك الحق في الحصول على مخصصات تقاعد.

الجدير بالذكر أن "رابطة الكتّاب العبريين" التي تأسست عام 1921 تصرّ على المحافظة على نهجها وطابعها وأهدافها كما صاغها مؤسسوها قبل سبعين عاماً وهي "رعاية وتطوير الأدب العبري واللغة العبرية". وفي عامي 1972 و1973 رفضت قبول الكتّاب العرب وتكرر هذا الموقف في مؤتمرها الأخير بحجة أن "تغيير إسم الرابطة وفتحها أمام جميع الكتّاب في إسرائيل يتناقض وأهدافها ويمسّ بمكانة الثقافة العبرية ويهمش اللغة العبرية التي يجب أن تحافظ على مكانتها في الدولة والمجتمع الإسرائيلي".

وفي عام 1972 إنسحب منها كبار الكتّاب العبريين مثل عاموس عوز ونتان زاخ وداليه رابيكوفيتش ويورام كانيوك وعاموس كينان. وفي العام المنصرم إنسحب أيضاً يعقوب بيسر (الذي كان رئيساً للرابطة حتى مؤتمرها الأخير) وأريه سيفان ويهوديت هندل وآخرون بادروا فور إنتهاء

المؤتمر إلى الدعوة لإقامة تنظيم نقابي جديد لجميع الكتّاب في البلاد.

في حفل إفتتاح المؤتمر التأسيسي الذي عُقد في قاعة "تسافتا" في تل أبيب بحضور المئات من الكتّاب، أعلنت وزيرة الثقافة والفنون، شولاميت ألوني، أنها تؤيد وتبارك قيام هذه المنظمة مؤكدة أنه "لا يجب أن يكون هناك فصل بين الكتّاب جرّاء أصلهم أو دينهم أو قوميتهم، ولا يوجد مكان في دولة إسرائيل اليوم لخلق تمييز ومفاضلة في أوساط كتّاب اللغات المختلفة ولا يجب أن نسمح بالتمييز". وقد أرسلت إلى المؤتمر تحيات من رئيس الدولة، عيزر وايزمن، ورئيس الحكومة، شمعون بيرس، ومندوب عن قيادة الهستدروت الجديدة وتكلم أيضاً يئير تسابان، وزير الإستيعاب، والأدباء يعقوب بيسر وإميل حبيبي ونتان زاخ ويورام كانيوك وفلاديمير تراسوف.

وفي اليوم التالي واصل المؤتمر جلساته التي أقرّت دستور النقابة وتمّ إنتخاب هيئة إدارية ولجنة مراقبة وهي تتألف من: يعقوب بيسر (رئيساً) وسلمان ناطور وأريه سيفان (نائبين للرئيس) وحاييم نغيد (أميناً للصندوق) وعضوية: سعود الأسدي ويهوديت كافري وأميرة هجاني وشفيق حبيب ويوري أفنر وزكي الناشف ومردخاي جلدمان وبيساح ميلين ودافيد ماركيش ومريم إيتان وليف برينسكي وأولجا لفيتان ويائيرة جينوسار. وأما لجنة المراقبة فتتألف من: شمعون بلاص (رئيساً) ونيكودا زينغر وجورج فرح ونسيم كلدرون.

(س)

رسالة غزة



حفل تأبين الشاعر عبد الحميد طقش

في جو حزين، وذكريات شجيّة مؤلمة، تحت سقف "إتحاد الكتّاب الفلسطينيين" ـ فرع قطاع غزة، تداعى لفيف من الكتّاب والأدباء والمثقفين والإعلاميين للحفل التأبيني للشاعر المرحوم عبد الحميد طقش في ذكرى الأربعين لرحيله. كما احتشد في القاعة أصدقاء الشاعر وذووه وعدد من مراسلي الصحف. فأعلن الشاعر سعيد فلفل، رفيق درب الفقيد، إفتتاح حفل التأبين بتلاوة آيات من الذكر الحكيم على روح الشاعر الراحل وتبع ذلك السلام الوطني الفلسطيني فيما وقف الحضور بإجلال. وألقى نائب رئيس إتحاد الكتّاب الفلسطينيين، القاص عبد الله تايه، كلمة "الاتحاد" إستعرض فيها علاقة الشاعر مع الكتّاب في قطاع غزة ورعايته لهم بعد هزيمة حزيران 1967. وبيّن دوره في تأسيس "إتحاد الكتّاب" رغم كل الضغوطات زمن الإحتلال. وقال: "لقد حفر في ذاكرتنا كل معاني الحب والخير والأمل وصدق الإنتماء لوطننا. نفخر بأننا عرفناه وتتلمذنا على يديه واستمعنا له وأسمعناه. هذا الرجل الإنسان الذي دهمته طلقات المحتل في 1956 وحاصرته الأسلاك في 1967 وظلّ يقاوم، يستحق منّا كل تكريم واعتزاز. وفي اللحظات الصعبة حين كان الحساب عسيراً على كل كلمة حرّة زمن الإحتلال نشر كتبه وجعل من بيته ملتقى لنا جميعاً". وتابع: "كنّا نود أن يصدر ديوان الشعر الجديد في حياته ليراه ويفرح معه". ثمّ تحدث كل من القاص زكي العيلة والشاعر خضر محجز والكاتب محمود صالحة، فتحدثوا حول علاقتهم

بالشاعر ودوره في حمل أمانة الكلمة. كما تحدث الشاعر خالد جمعة حول دور الراحل ورأيه في شعر الحداثة. وحول أدب وشعر عبد الحميد طقش تحدث د. علي عودة والقاص محمد نصّار. أما الشاعر محمد حسيب القاضي فقدم للحضور دراسة أدبية نقدية عن أدب وشعر عبد الحميد طقش. وقرأت الشاعرة وداد نصر والشاعرة عائدة حسنين قصائد من أشعار الفقيد. أما الشاعر باسم النبريص الذي لازم عبد الحميد طقش سنوات طويلة وعاش معه ساعات الألم وساعات الحزن وساعات المرض الصعبة فقد أصرّ أن يزيد شجون الحضور فألقى عليهم قصيدة للشاعر الراحل كتبها قبل وفاته يرثي فيها نفسه.

كما تمّ توجيه نداء إلى كل أصدقاء الفقيد بجمع تراثه الأدبي

ندوات

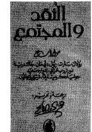
• ازدحمت قاعة الشيخ محمد عوّاد في جامعة الأزهر بالحضور الذين جاؤوا للمشاركة في الندوة الشعرية التي نظمها مجلس الطلبة بالجامعة. وشارك في هذا اللقاء الشاعر عبد الكريم السبعاوي فألقى مجموعة من قصائده الوطنية عن الوطن والإستقلال. وألقت كل من وداد نصر واكتمال حسين بعضاً من أشعارهما.

• أقامت دائرة الثقافة والفنون بمديرية التوجيه السياسي والمعنوي ندوة شعرية. بالتعاون مع دائرة الإعلام الجماهيري بمناسبة الذكرى السنوية للإنتفاضة في التاسع من ديسمبر في قاعة "جمعية الشبّان المسيحية" في غزة. وحضر اللقاء عدد من الكتّاب والشعراء والمهتمين. وقدم كلمة الإفتتاح الشاعر محمد حسيب القاضي في حين ألقى الشعراء المشاركون عدداً من القصائد وهم: باسم النبريص وسائد السويركي وعائدة حسنين وخضر محجز وخالد جمعة ووداد نصر وسعاد أبو ختلة.

رواق "مشارف"

مختارات من الشعر العربي المعاصر

• عن مركز "الأهرام" للترجمة والنشر صدر كتاب مختارات من الشعر العربي المعاصر، ويضم أعمال خمسة وثلاثين شاعراً من الدول العربية. منهم عبد المنعم الرفاعي (الأردن) وسلطان بن علي العويس (الإمارات) وأبو القاسم الشابي (تونس) وإبراهيم العريض (البحرين) ومحمد عيد خليفة (الجزائر) وعبد الله الطيب (السودان) وأحمد سالم (السعودية) ونزار قباني (سوريا) وبدر شاكر السياب ومحمد مهدي الجواهري (العراق) وعبد الرحمن بن أحمد (الصومال) وسميح القاسم وفدوى طوقان ومعين بسيسو (فلسطين) وبشارة الخوري (لبنان) وأحمد رفيق المهدوي (ليبيا) وعبد الله كنون (المغرب) وعبد الله البردوني (اليمن) وأحمد ولد عبد القادر (موريتانيا) وإبراهيم ناجي وأحمد رامي ومحمود حسن إسماعيل ومحمود أبو الوفا (مصر) وعبد الله زكريا الأنصاري (الكويت) وعبد الله بن علي الخليلي (عُمان). أعد المختارات وقدم لها: ربيع فلسطين.



فخري صالح وترجمة متميزة جديدة

• بعد ترجمته المتميزة لكتاب تودوروف "المبدأ الحواري: ميخائيل باختين" وكتاب تيري إيغلتون "النقد والأيديولوجيا"، ترجم الناقد الأردني فخري صالح سلسلة حوارات مع رولان بارت، بول دي مان، جاك دريدا، نورثروب فراي، إدوارد سعيد، جوليا

كريستيفا وتيري إيغلتون، وجمعها في كتاب من تحريره حمل إسم "النقد والمجتمع" وصدر مؤخراً عن "المؤسسة العربية للدراسات والنشر".

وفي ختام مقدمته للكتاب يشير صالح إلى أن "الحصاد النظري الحافل للنقد قد تشكّل نتيجة لإنشغال النقد بقضايا شديدة التخصص لكن مراقبتنا لتطور النظرية الأدبية المعاصرة تثبت أن المجتمع ومشكلاته كانت في خلفية صعود النظرية الأدبية المعاصرة إلى سدة الإهتمام الثقافي بعامة". كذلك يشير إلى أنه اختار ترجمة حوارات مع هؤلاء النقّاد بدلاً من ترجمة دراسات لهم أو عنهم لأن "طبيعة المقابلة تسمح بإقامة حوار من نوع خاص بين من يطرح الأسئلة ومن يجيب عليها. إن المقابلة هي نوع من الخطابات التعددية التي تسمح بتعديل الأفكار والتصورات من خلال طرح الأسئلة والإعتراض على الأجوبة. وهي في الوقت نفسه تسمح بتوضيح الكثير من الجوانب الخاصة بفكر الناقد".

وقد سبق لفخري صالح أن أصدر عدداً من الدراسات النقدية، بينها "أبو سلمى، التجربة الشعرية" (1982)، "أرض الاحتمالات من النص المغلق إلى النص المفتوح في السرد العربي المعاصر" (1988) و"وهم البدايات. الخطاب الروائي في الأردن" (1993).

العدد السادس من مجلة "أبواب"



• صدر العدد السادس من مجلة "أبواب" الفكرية الثقافية التي تصدر مرة كل شهرين عن "دار الساقي" في لندن وبيروت. ويتضمن عدداً من الدراسات والمقالات والنصوص ومراجعات الكتب.

تحت عنوان "أفكار" ثمة دراسة للكاتب العراقي سامي زبيدة يناقش فيها أطروحات أرنست غلنر في سوسيولوجيا الإسلام ومقالة لصالح بشير حول العلم والدين كسجال يمكن تلافيه. "أطروحات في الفكرة والهوية" هو عنوان مقالة علي حرب. وينطلق عبد الحسن الأمين من الخطأ الشائع بأن حملة نابليون بونابرت كانت "اللقاء الأول بين الشرق والغرب" في قراءة "بيانات بونابرت المصري". هذا بالإضافة إلى ترجمة مقالة أمبرتو إيكو "إيطاليا: فاشيتنا".

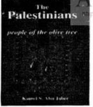
لا يقل باب "ثقافة" أهمية عن الدراسات السابقة، إذ يتضمن دراسة للباحث والمؤرخ اللبناني أحمد بيضون يقرأ فيها المعاجم الفرنسية ـ العربية في "جردة مجملة".

في باب النصوص ثمة قصة، أو لعله مقطع من رواية إبراهيم أصلان المنتظر صدورها قريباً بعنوان "خريف فضل الله عثمان".

الأعمال الشعرية الكاملة لعبد الوهاب البياتي

• الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر العراقي عبد الوهاب البياتي صدرت عن "المؤسسة العربية للدراسات والنشر"، بالإشتراك مع "دار الفارس للنشر والتوزيع" في عمّان، في جزءين يشتملان على كل ما نشر البياتي من "يوميات محترف سياسي" إلى "ملكة السنبلة".

"الفلسطينيون: شعب شجرة الزيتون" كما يراه كامل أبو جابر



• في كتابه "الفلسطينيون: شعب شجرة الزيتون"، الصادر باللغة الإنكليزية عن "مركز الكتب الأردني" في عمان، يختار أستاذ العلوم السياسية ووزير خارجية الأردن السابق كامل أبو جابر أسلوباً غير متوقع في قراءة تاريخ الشعب الفلسطيني وتحليل راهنه السياسي. فما يتوقعه القارئ من كامل أبو جابر الذي كان وزيراً للخارجية الأردنية في أثناء إنعقاد مؤتمر السلام هو أن يكتب من موقعه كرجل سياسة وباحث في العلوم السياسية عن تحولات الراهن الفلسطيني من خلال الإنصات إلى مجموعة من الفلسطينيين، فيهم العامل وأستاذ الجامعة ورجل الأعمال الناجح.

ويتدخل المؤلف في الرواية بين حين وآخر، موجّهاً دفة الحديث للتأثير على القارئ الغربي الذي لا يعرف الكثير عن القضية الفلسطينية أو يعرف حقائق مشوّهة. هذا القارئ الذي لا يستطيع أن ينظر إلى رؤية الفلسطينيين كبشر عاديين يسعون في مناكب

الأرض. ويتألمون ويلاقون الصعاب بسبب شرطهم التاريخي الذي عينه لهم قيام إسرائيل على أرضهم.

ومهّد أبو جابر لحكاياته التي لا تخلو من نفس قصصي بسرد تاريخي مبسّط يستعيد الخطوط الأساسية للصراع وجذوره. بدءاً من قضية الضابط الفرنسي اليهودي ألفريد درايفوس الذي أثارت محاكمته في نهاية القرن الماضي قضية اللاسامية في فرنسا. وانتهاءً بالإنتفاضة الفلسطينية.

"أميّة المتخيّل الثقافي": موسيقى عالمية أم موسيقى العالم؟



• خصّص كتاب "أميّة المتخيّل الثقافي" الدوري الصادر عن "دار ثقافات العالم" في باريس. عدده الرابع لموضوع "الموسيقى والعالم". ويضم العدد 14 دراسة. إهتمامها المركزي ـ كما يقول شريف خزندار وجان دوفينيو في مقدمة العدد ـ هو رصد تنوّع الطبوع الموسيقية عبر العالم. تقليدية كانت أم حديثة. إنطلاقاً من الخصوصيات المحلية. وهذه الخصوصيات هي محور اهتمام فرانسواز غروند التي تشرف على سلسلة موسيقية تخصصها هذه المؤسسة الثقافية العريقة. منذ عشر سنوات. للتعريف بالأنواع الموسيقية التقليدية عبر العالم. تحدد غروند في أولى دراسات العدد تلك الخصوصية بمقاييس أربعة. هي الإنتماء الثقافي الموقع الجغرافي. الحقبة التاريخية والفئة الإجتماعية أو الإثنيه أو الدينية.

"المنفى العراقي"

• "المنفى العراقي" هو عنوان كتاب صدر مؤخراً في السويد. ويحتوي على مختارات شعرية قام بترجمتها إلى السويدية الكاتب مجيد الكعبي. والقصائد بتوقيع عشرة شعراء عراقيين. هم: سعدي يوسف وفوزي كرم وكريم عبد ومصطفى عبد الله ومختار سعيد وحيدر الكعبي ورشدي العامل ومهدي محمد علي ومحمد طالب محمد وناصر الحجاج.

"النص الجديد"



• صدر العددان الثالث والرابع من مجلة "النص الجديد" وهي تصدر عمّن تسميهم "كتّاب النص الجديد في المملكة العربية السعودية". رغم أن التسمية لا تحدد منهجاً واضحاً لهذه الفئة ولكنها يبدو أنها كانت تهدف أساساً إلى تقديم النصوص التي يفترض فيها أن تتسم بالجدّة والتميز في اللغة والرؤية. ولكن يبدو أن المجلة لم تحقق هذه الأهداف فنوّعت إهتماماتها ولكنها نجحت في تحقيق مستوى ثقافي وتمكّنت من إستقطاب كثير من الأسماء الثقافية السعودية بحيث أصبحت ساحة ثقافية موحدة تقريباً.

في العدد حوار مميز مع د. غازي القصيبي يتناول أعماله من خلال إنتاجه الثقافي وكذلك دراسة عن رواية "شقة الحرية" بقلم د. معجب الزهراني. كما تضمن العدد دراسة مهمة كتبها خالد الدخيل بعنوان "سؤال الدين والدولة في الخطاب العربي المعاصر".

وقد حافظت المجلة على تقسيمها بحيث كان هناك مجالٌ للقصة وآخر للشعر. إضافة للنص التشكيلي. ومن أبرز الأسماء المشاركة في العدد: ميجان الرويلي وسعاد المانع وعلي الدميني وسعد البازعي وعالي القرشي وعبد العزيز مشري.

أحدث روايات جابرييل جارسيا ماركيز

• "عن الحب وشياطين أخرى" أحدث رواية للكاتب الكولومبي جابرييل جارسيا ماركيز ترجمها إلى العربية د. وليد صالح. الشخصية الرئيسة التي تدور حولها الرواية هي طفلة عمرها إثنا عشر عاماً أصيبت بالسعار نتيجة عضة كلب. الترجمة تحت الطبع. وستصدر قريباً.

"على عتبة الحياة" لنهاد صليحة

• "على عتبة الحياة" ــ هي المجموعة القصصية الثانية لـ د. نهاد صليحة (مصر) فيها تتوغل في أعماق النفس البشرية في لحظة تعكس آمالها وآلامها.. في أسلوب ساخر من خلال ست

عشرة قصة قصيرة، لنهاد صليحة عدد من الترجمات في القصة والمسرحية.

المكسيكي كارلوس فوينتس
يراود جين سيبرغ ويُقدم فريدا كالو

• "ديانة الإلهة التي تصطاد وحيدة" هو عنوان الرواية الجديدة الصادرة بالإنكليزية للروائي المكسيكي كارلوس فوينتس. وديانة أو ديانة سورين هي الشخصية الروائية المُتخيلة للممثلة الأمريكية جين سيبرغ التي اشتهرت في الستينات في أدائها أدواراً في أفلام مخرجين مثل اوتو برمنجر وجان لوك غودار. فإذا كانت ديانة صورة لشخصية واقعية، فإن كارلوس بطل الرواية يشاطر الروائي كارلوس فوينتس في أكثر من الأسم. فالأول دبلوماسي وفيلسوف سياسي. أما الثاني فقد كان دبلوماسياً لبعض الوقت ولا شك بأنه يحب أن يعتبر نفسه "فيلسوفاً سياسياً". فإذا ما اخلت الرواية عن علاقة حب يُسهب الكاتب في وصف حلقاتها الإيروتيكية بالتفصيل. سهل التخمين بأن الرواية ما هي إلا حلم يقظة طويل لرجل في خريف عمره يمعن في اعتصار ذاكرته لما جال في مخيلته من شهوات بانت بعيدة جداً عن متناوله. ولكن ليست جين سيبرغ وحدها من يتحرش بها الروائي العجوز. فها هو يقدم "مفكرة فريدا كالو: صورة شخصية حميمة" الصادرة عن دار "بلومزبري" لندن. الدار نفسها التي أصدرت الرواية المتقدم ذكرها. وكانت الفنانة المكسيكية المعروفة اشتهرت بحياة إجتماعية وسياسية بالغة الإثارة ربما يعجز فوينتس نفسه عن تخيلها مهما شحذ مخيلته.